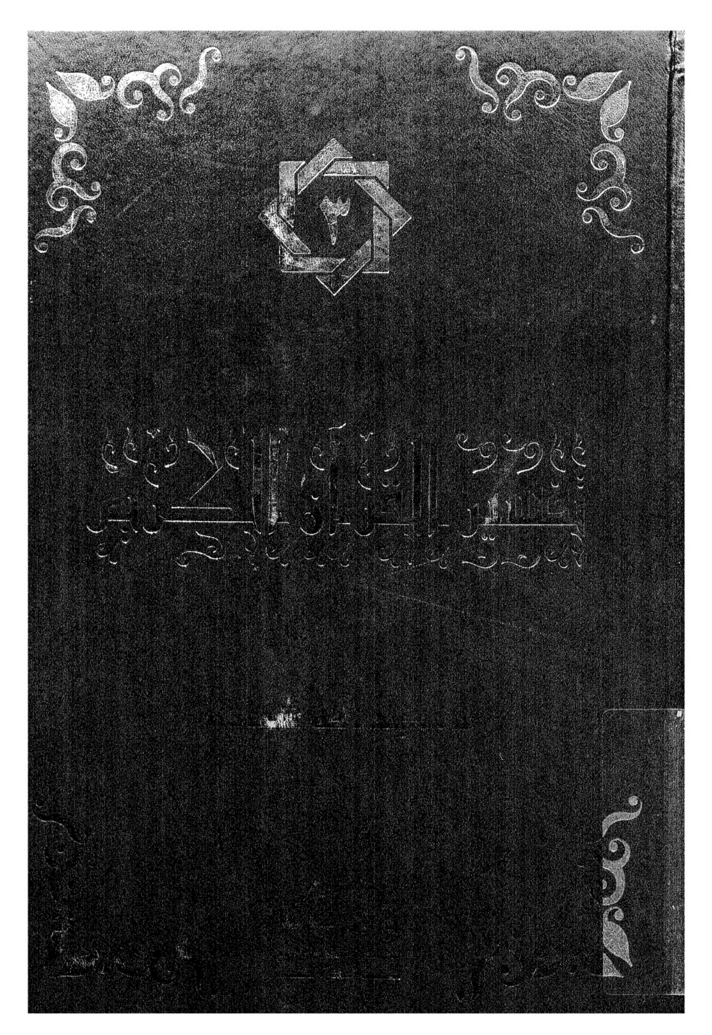

٣
تفسير القرآن الكريم

إهـــــــداء2005

أ.د. عبد الله شحاتة

القاهرة

تفسير القرآن الكريم

الجزء الخامس من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته



تحريم الخليلات

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤) وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥) ﴾

المفردات:

المحصنات: واحدتهن: محصَنة (بفتح الصاد) يقال: حصُنت المرأة (بضم الصاد) حصنا وحصانة: إذا كانت عفيفة فهى حاصن وحصان (بفتح الصاد) ويقال: أحصنت المرأة: إذا تزوجت؛ لأنها تكون فى حصن الرجل وحمايته، وأحصنها أهلها: زوجوها.

ما ملكت أيمانكم: أى: بالسبى فى حروب دينية، وأزواجهن كفار فى دار الحرب؛ فينفسخ عند ذلك نكاحهن، ويحل الاستمتاع بهن بعد وضع الحامل حملها وحيض غيرها ثم طهرها.

الإحصان: العفة.

المسافح: الزانى.

الاستمتاع بالشيء: هو التمتع به.

الأجور: واحدها: أجر: وهو فى الأصل الجزاء الذى يعطى فى مقابلة شيء ما من عمل أو منفعة، والمراد به هنا: المهر.

فريضة: أى: حصة مفروضة محددة مقدرة.

لا جناح: أى: لا حرج ولا تضييق.

الاستطاعة: كون الشيء فى طوعك لا يتعاصى عليك، والطول الغنى والفضل من مال أو قدرة على تحصيل الرغائب.

المحصنات: هنا: الحرائر.

الفتيات: الإماء.

محصنات: أى: عفيفات.

مسافحات: مستأجرات للبغاء.

الأخدان: واحدهم: خدن وهو الصاحب ويطلق على الذكر والأنثى، وهو أن يكون للمرأة خدن يزنى بها سرا فلا تبذل نفسها لكل أحد.

الفاحشة: الفعلة القبيحة وهى: الزنى.

المحصنات: هنا: الحرائر.

العذاب: هو الحد الذى قدره الشارع وهو مائة جلدة، فنصفها خمسون ولا رجم عليهن؛ لأنه لا ينتصف.

العنت: الجهد والمشقة.

تمهيد:

هاتان الآيتان من تتمة ما قبلهما من المعنى فقد ذكر فى أولاهما بقية ما يحرم من النساء وحل سوى من تقدم، ووجوب إعطاء المهور، وذكر فى الآية الثانية حكم نكاح الإماء وحكم حدهن عند ارتكاب الفاحشة، لكن من قسموا القرآن ثلاثين جزءا جعلوهما أول الجزء الخامس، مراعاة للَّفظ دون المعنى إذ لو راعوه لجعلوا أول الخامس : **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ**.

٢٤ - **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَآءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** ... أى: حرم الله عليكم نكاح المحصنات أى: المتزوجات. **وَالْمُحْصَنَاتُ** معطوف على قوله تعالى: **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ**. والمعنى: وكما حرم الله عليكم نكاح أمهاتكم وبناتكم ... إلخ. فقد حرم عليكم أيضا نكاح ذوات الأزواج من النساء عامة، حرائر وغير حرائر إلاَّ ما سبيتم وملكتم منهن فى حرب بينكم وبين الكفار، فإن نكاحهن السابق ينفسخ بالسبى فيصرن حلالا لكم بعد استبراء أرحامهن.

وقد كان الإسلام مضطرا إلى هذه المعاملة؛ لأنها معاملة بالمثل، والإسلام لم يفرض السبى ولم يحرمه وقد جاء الإسلام والرق كنهر يجرى فحاول الإسلام توسيع المصب وتضييق المنبع؛ حتى يجف نهر الرق. وقد حرم الرق الآن؛ وروح الإسلام تبارك هذا التحريم.

كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ . أى: كتب عليكم تحريم هذه الأنواع كتابا مؤكدا، فالزموا ما كتب الله عليكم فى تحريم ما حرم، ولكم فيما عدا هؤلاء المؤمنات المحرمات، أن تطلبوا النساء اللاتى أحلهن الله لكم

عن طريق ما تقدمونه لهن من أموالكم كمهور لهن وبذلك تكونون قد أحصنتم أنفسكم ومنعتموها عن السفاح والفجور والزنى.

فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً. أى: وأى امرأة من النساء اللواتى أحللن لكم تزوجتموها فأعطوها الأجر وهو المهر بعد أن تفرضوه وتتفقوا عليه عند العقد، فريضة فرضها الله عليكم.

وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ. ولا حرج عليكم فيما تم بينكم عن تراض من تنازل زوجة عن بعض مهرها، أو زيادة زوج فيه.

إن الله كان ولم يزل مطلعًا على شئون العباد مدبرًا لهم فى أحكام ما يصلح به أمرهم.

٢٥ - وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ... أى: ومن لم يجد منكم - أيها الأحرار المؤمنون - سعةً من المال تمكّنه من القيام بتكاليف الزواج من إحدى الحرائر المؤمنات؛ فلينكح أَمَةً من الإماء المؤمنات؛ لخفة تكاليف الزواج منها، ويتخذ منها زوجة دون غضاضة فى ذلك الزواج، فقد يكون فى قوة إيمان الأَمَةِ ما يعوضه خيرا مما فاته من نكاح الحرة، والله وحده هو الذى يعلم حقيقة إيمانكم، الذى هو أساس التفاضل بينكم عنده سبحانه وتعالى، فأنتم جميعا أمام الله سواء؛ أكرمكم عند الله أتقاكم.

فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ. أى: فإذا رغب أحدكم أن يتزوج إحدى الإماء المسلمات، فليكن نكاحه إياها بإذن وليها ومالكها، وليؤد لها مهرها، من غير إضرار أو نقص بل المهر المتعارف لأمثالهن، مع حسن التعامل وتوفية الحق، واختاروهن عفيفات، فلا تختاروا زانية معلنة ولا خليلة، فإن أتين الزنى بعد زواجهن؛ فعقوبتهن نصف عقوبة الحرة، وإباحة نكاح المملوكات عند عدم القدرة جائز لمن خاف منكم المشقة المفضية إلى الزنى، وصبركم عن نكاح المملوكات مع العفة خير لكم. والله كثير المغفرة عظيم الرحمة.

★ ★ ★

التيسير

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾

التمهيد:

بعد أن ذكر أحكام النكاح فيما سلف على طريق البيان والإسهاب، ذكر هنا: عللها وأحكامها كما هو دأب القرآن الكريم أن يعقب ذكر الأحكام التى يشرعها للعباد ببيان العلل والأسباب؛ ليكون فى ذلك طمأنينة للقلوب، وسكون للنفوس؛ لتعلم مغبة ما هى مقدمة عليه من الأعمال، وعاقبة ما كلفت به من الأفعال، حتى تقبل عليها وهى مثلجة الصدور عالمة بأن لها فيها سعادة فى دنياها وأخراها، ولا تكون فى عماية من أمرها؛ فتتيه فى أودية الضلالة، وتسير قدما لا إلى غاية.

٢٦ - **يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .** يريد الله بما شرعه لكم من الأحكام أن يبين لكم ما فيه مصالحكم ومنافعكم وأن يهديكم مناهج من تقدمكم من الأنبياء والصالحين؛ لتقتفوا آثارهم وتسيروا سيرتهم، ويتوب عليكم من الإثم والمحارم واتباع الشهوات والمعاصى، ويريد الله أن يرجع بكم إلى طريق طاعته والله مطلع على شئونكم مدبر فى أحكامه لما يصلح أمركم.

٢٧ - **واللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا .** والله سبحانه يريد أن يتوب عليكم فيفتح لكم باب التوبة والأمل، ويريد أتباع الشياطين من اليهود، والنصارى، والزناة أن تميلوا عن الحق، وتنحرفوا إلى الضلالة انحرافا عظيما؛ حتى تكونوا مثلهم وهذا شأن المنحرفين دائما يريدون أن يكون الناس على طريقتهم؛ حتى يسلموا من ذمهم ولومهم.

٢٨ - **يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسانُ ضَعِيفًا .** يريد الله أن ييسر عليكم بتشريع ما فيه سهولة لكم وتخفيف عليكم، وقد خلق الإنسان ضعيفا أمام غرائزه وميوله، فيناسبه من التكاليف ما فيه يسر وسعة، لضعفه فى نفسه، وضعف عزمه وهمته.

★ ★ ★

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾

تمهيد:

بعد أن ذكر فيما سلف كيفية معاملة اليتامى وإيتاء أموالهم إليهم عند الرشد وعدم دفع الأموال إلى السفهاء، ثم بين وجوب دفع المهور للنساء وأنكر عليهم أخذها بوجه من الوجوه، ثم ذكر وجوب إعطاء شيء من أموال اليتامى إلى أقاربهم إذا حضروا القسمة، ذكر هنا قاعدة عامة للتعامل فى الأموال؛ تطهيرا للأنفس فى جمع المال المحبوب لها فقال:

٢٩ - **يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِنْكُمْ.** يأيها الذين آمنوا لا يأخذ بعضكم مال بعض بغير الحق أى: بأنواع المكاسب غير المشروعة كأنواع الربا، والقمار، والسرقة، والغصب، والرشوة، واليمين الكاذبة، وشهادة الزور، ونحو ذلك مما حرمه الله.

وبَيَّن وسيلة من وسائل الكسب الحلال، وهى التجارة القائمة عن تراض يتعامل الناس فيها معا، ويقيمونها بينهم كما بينها رسول الله ﷺ، وفصلها الفقهاء فى كتبهم، ويلحق بالتجارة كل أسباب التملك التى أباحها الشارع كالهبة، والصدقة، والإرث.

وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ. أى: بارتكاب محارم الله وتعاطى معاصيه وأكل أموالكم بينكم بالباطل، **إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا.** فيما أمركم به ونهاكم عنه.

روى الإمام أحمد وأبو داود: أن عمرو بن العاص كان أميرا على الجيش فى سرية ذات السلاسل فأصبح جنبا فى ليلة باردة شديدة البرد؛ فتيمم وصلى بأصحابه ثم أخبر بذلك رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، احتلمت فى ليلة باردة وأشفقت إن اغتسلت أن أهلك؛ فذكرت قول الله عز وجل: **وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُم إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا.** فتيممت ثم صليت؛ وضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئا[1].

وفى الصحيحين: «من قتل نفسه بشيء عذب به إلى يوم القيامة»[2].

وروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «من تردى من جبل فقتل نفسه؛ فهو فى نار جهنم يتردى فيه خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن تحسى سما فقتل نفسه؛ فسمه فى

يده يتحساه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن قتل نفسه بحديدة؛ فحديدته فى يده يجأ بها فى بطنه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدًا»[٣].

٣٠ - وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ... ومن يقدم على فعل ما حرم الله، معتديا فيه ظالما فى تعاطيه. أى: عالما بتحريمه متجاسرا على انتهاكه.

فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا. فسوف ندخله نارا يحترق فيها، وكان ذلك على الله هينا ميسورًا.



﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

المفردات:

الاجتناب: ترك الشىء جانبا، والكبائر واحدتها كبيرة وهى المعصية العظيمة، والسيئات: واحدتها: سيئة، وهى الفعلة التي تسوء صاحبها عاجلا أو آجلا، والمراد بها هنا: الصغيرة.

نكفر: نغفر ونمح.

مدخلا كريما: أى: مكانا كريما وهو الجنة.

تمهيد:

بعد أن نهى سبحانه عن أكل أموال الناس بالباطل، وعن قتل النفس، وهما أكبر الذنوب المتعلقة بحقوق العباد، وتوعد فاعل ذلك بأشد العقوبات، نهى عن جميع الكبائر التى يعظم ضررها، وتؤذن بضعف إيمان مرتكبها، ووعد من تركها بالمدخل الكريم.

التفسير:

٣١ - إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ. أى: إن تتركوا جانبا كبائر ما ينهاكم الله عنه ارتكابه من الذنوب والآثام؛ نمح عنكم صغائرها فلا نؤاخذكم بها.

وقد اختلف فى عدد الكبائر فقيل: هى سبع؛ لما ورد فى الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: وما هى يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، والسحر، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»[٤]، وفى رواية لهما عن أبى بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم

بأكبر الكبائر» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين – وكان متكئا فجلس وقال – ألا وقول الزور وشهادة الزور، فما زال يكررها؛ حتى قلنا: ليته سكت»[٥].

وفيهما أيضا من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أكبر الكبائر أن يعلن الرجل والديه، قالوا: وكيف يعلن الرجل والديه؟! قال: يسب أبا الرجل؛ فيسب أباه، ويسب أمه؛ فيسب أمه»[٦].

والأحاديث الصحيحة مختلفة فى عددها، ومجموعها يزيد على سبع؛ ومن ثم قال ابن عباس لما قال له رجل: الكبائر سبع. قال: هى إلى سبعين أقرب. إذ لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار، ومراده: أن كل ذنب يرتكب لعارض يعرض على النفس من استشاطة غضب أو ثورة شهوة، وصاحبه متمكن من دينه، يخاف الله ولا يستجل محارمه، فهو من السيئات التى يكفرها الله تعالى، إذ لولا ذلك العارض القاهر للنفس؛ لم يكن ليجترحه تهاونا بالدين، إذ هو بعد اجتراحه يندم ويتألم ويتوب ويرجع إلى الله تعالى، ويعزم على عدم العودة إلى اقتراف مثله؛ فهو إذ ذاك أهل لأن يتوب الله عليه، ويكفر عنه.

وكل ذنب يرتكبه الإنسان مع التهاون بالأمر وعدم المبالاة ينظر الله إليه، ورؤيته إياه حيث نهاه، فهو مهما كان صغيرا فى صورته، أو فى ضرره، يعد كبيرا من حيث الإصرار والاستهتار، فتطفيف الكيل والميزان ولو حبة لمن اعتاده، والهمز واللمز (عيب الناس والطعن فى أعراضهم) – لمن تعوده – كل ذلك كبيرة ولا شك.

وكان النبى ﷺ يذكر فى كل مقام ما تمس إليه الحاجة، ولم يرد الحصر والتحديد.

وقال بعض العلماء: الكبيرة كل ذنب رتّب عليه الشارع حدًّا أو صرح فيه بوعيد.

وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا. أى: وندخلكم مكانا لكم فيه الكرامة عند ربكم وهى الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار والعرب تقول: أرض كريمة، وأرض مكرمة، أى: طيبة جيدة النبات، قال تعالى: فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. (الشعراء: ٥٧، ٥٨)

★ ★ ★

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ ﴾

المفردات:

التمني: تشهي حصول الزمر المرغوب فيه، وحديث النفس بما يكون وما لا يكون.

من فضله: أي: إحسانه ونعمه المتكاثرة.

تمهيد:

بعد أن نهى سبحانه عن أكل الأموال بالباطل، وعن القتل، وتوعد فاعلهما بالويل والثبور، وهما من أفعال الجوارح؛ ليصير الظاهر طاهرا من المعاصي الوخيمة العاقبة – نهى عن التمنى، وهو التعرض لها بالقلب حسدا؛ لتطهر أعمالهم الباطنة فيكون الباطل موافقا للظاهر، ولأن التمنى قد يجر إلى الأكل، والأكل قد يقود إلى القتل، فإن من يرتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

التفسير:

٣٢ – وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ.

أي: إن الله كلف كلا من الرجال والنساء أعمالا فما كان خاصا بالرجال لهم نصيب من أجره لا يشاركهم فيه النساء، وما كان خاصا بالنساء لهن نصيب من أجره لا يشاركهن فيه الرجال وليس لأحدهما أن يتمنى ما هو مختص بالآخر وقد أراد الله أن يختص النساء بأعمال البيوت، والرجال بالأعمال الشاقة التى فى خارجها؛ ليتقن كل منهما عمله، ويقوم بما يجب عليه مع الإخلاص.

وعلى كل منهما أن يسأل ربه الإعانة والقوة على ما نيط به من عمل، ولا يجوز أن يتمنى ما نيط بالآخر، ويدخل فى هذا النهى تمنى كل ما هو من الأمور الخلقية كالعقل والجمال؛ إذ لا فائدة فى تمنيها لمن لم يعطها، ولا يدخل فيه ما يقع تحت قدرة الإنسان من الأمور الكسبية؛ إذ يحمد من الناس أن ينظر بعضهم إلى ما نال الآخرون ويتمنوا لأنفسهم مثله أو خيرا منه بالسعى والجد.

والخلاصة: أنه تعالى طلب إلينا أن نوجه الأنظار إلى ما يقع تحت كسبنا، ولا نوجهها إلى ما ليس فى استطاعتنا، فإنما الفضل بالأعمال الكسبية، فلا تتمنوا شيئا بغير كسبكم وعملكم.

فعلى المسلم أن يعتمد على مواهبه وقواه فى كل مطالبه، بالجد والاجتهاد مع رجاء فضل الله فيما لا يصل إليه كسبه إما للجهل به وإما للعجز عنه فالزارع يجتهد فى زراعته ويتبع السنن والأسباب التى سنها الله لعمله، ويسأل الله أن يمنع الآفات والجوائح عنه ويرفع أثمان غلاته إلى نحو أولئك مما هو بيد الله.

روى عكرمة: أن النساء سألن الجهاد فقلن: وددنا أن الله جعل لنا الغزو فنصيب من الأجر ما يصيب الرجال؛ فنزلت: وَسْئَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ. أى: لا تتمنوا نصيب غيركم، ولا تحسدوا من فضل الله عليكم واسألوا الله من إحسانه وإنعامه؛ فإن خزائنه مملوءة لا تنفد، روى أنه ﷺ قال: «سلوا الله من فضله؛ فالله يحب أن يسأل وإن من أفضل العبادة انتظار الفرج».

إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا. وبذا فضل بعض الناس على بعض بحسب مراتب استعدادهم، وتفاوت اجتهادهم فى معترك الحياة، ولا يزال العاملون يستزيدونه ولا يزال ينزل عليهم من جوده وكرمه ما يفضلون به القاعدين الكسالى حتى بلغ التفاوت بين الناس فى الفضل حدا بعيدا، وكاد التفاوت بين الشعوب أن يكون أبعد من التفاوت بين بعض الحيوان وبعض الإنسان.

★ ★ ★

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِىَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣) ﴾

المفردات:

الموالى: من يحق لهم الاستيلاء على التركة، مِمَّا تَرَكَ. أى: وارثين مما ترك، وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ. هم الأزواج، فإن كلا من الزوجين له حق الإرث بالعقد، والمتعارف عند الناس فى العقد أن يكون بالمصافحة باليدين، قاله أبو مسلم الأصفهانى.

تمهيد:

بعد أن نهى سبحانه عن أكل أموال الناس بالباطل، وعن تمنى أحد ما فضل الله به غيره عليه من المال؛ حتى لا يسوقه التمنى إلى التعدى، وهو وإن كان نهيا عاما فالسياق يعيِّن المراد منه، وهو المال؛ لأن أكثر التمنى يتعلق به ثم ذكر القاعدة العامة فى حيازة الثروة وهى الكسب؛ انتقل إلى نوع آخر تأتى به الحيازة وهو الإرث.

التفسير:

٣٣ - وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ. أى: إن لكل من الرجال الذين لهم نصيب مما اكتسبوا، ومن النساء اللواتى لهن نصيب مما اكتسبن، موالى لهم حق الولاية على ما يتركون من كسبهم.

ثم بين هؤلاء الموالى فقال:

الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ والَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ. أى: إن هؤلاء الموالى هم جميع الورثة من الأصول، والفروع، والحواشى، والأزواج.

فآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ. أى: فأعطوا هؤلاء الموالى نصيبهم المقدر لهم ولا تنقصوهم منه شيئا.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا. أى: إن الله رقيب شاهد على تصرفاتكم فى التركة وغيرها، فلا يطمعنَّ من بيده المال أن يأكل من نصيب أحد الورثة شيئا، سواء أكان ذكرا أم أنثى، كبيرا أم صغيرا.

وجاءت هذه الآية؛ لمنع طمع الوارثين فى بعض.

★ ★ ★

قوامة الرجال

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾

المفردات:

يقال: هذا قيِّم المرأة وقوامها؛ إذا كان يقوم بأمرها ويهتم بحفظها وما به الفضل قسمان: فِطْرى: وهو قوة مزاج الرجل وكماله فى الخلقة، ويتبع ذلك قوة العمل وصحة النظر فى مبادئ الأمور

وغاياتها، وكَسْبى: وهو قدرته على الكسب والتصرف فى الأمور، ومن ثم كلف الرجال بالإنفاق على النساء والقيام برياسة المنزل.

القنوت: السكون والطاعة لله وللأزواج.

الحافظات للغيب: أي: اللاتى يحفظن ما يغيب عن الناس، ولا يقال إلا فى الخلوة بالمرأة.

تخافون: أي: تظنون.

نشزت الأرض: ارتفعت عما حواليها، ويراد بها هنا: معصية الزوج والترفع عليه.

البغى: الظلم وتجاوز الحد.

الشقاق: الخلاف الذي يجعل كلا من المختلفين في شق: أي: جانب، وخوفه توقع حصوله بظهور أسبابه.

الحكم: من له حق الحكم والفصل بين الخصمين، وبعث الحكمين: إرسَالُهما إلى الزوجين؛ لينظرا فى شكوى كل منهما، ويتعرفا ما يرجى أن يصلح بينهما.

تمهيد:

لما نهى سبحانه كلا من الرجال والنساء عن تمنى ما فضل الله به بعضهم على بعض، وأرشدهم إلى الاعتماد فى أمر الرزق على كسبهم وأمرهم أن يؤتوا الوارثين أنصبتهم، وفى هذه الأنصبة يستبين تفضيل الرجال على النساء – ذكر هنا أسباب التفضيل.

٣٤ – **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِم**. الرجال لهم حق الصيانة والرعاية للنساء، والقيام بشئونهن؛ بما أعطاهم الله من صفات تهيئهم للقيام بهذا الحق، فقد خص الله الرجال بأمور منها:

الإمامة، والولاية، والميراث، والشهادة، والجهاد، والجمعة، والجماعات، وولاية الزوج على زوجته ولاية رعاية ومودة ورحمة لا ولاية غلظة ورهبة، كما أن ولاية الزوج على زوجته، تهيئ للزوجة الاستقرار فى البيت ورعاية شئون الأسرة.

والرجل أقدر – بطبيعته – على السعى والكدح فى سبيل تحصيل رزقه، ورزق أسرته؛ ليهيئ لها حياة سعيدة هانئة.

النساء قسمان:

قسم يفهم ويقدر قوامة الرجل على المرأة، فيلتزم بما أمر الله وهن الصالحات؛ فالصالحات مطيعات لله ولأزواجهن، حافظات لكل ما يغيب عن أزواجهن بسبب أمر الله بهذا الحفظ وتوفيقه لهن فى القيام بواجبهن، وهن يحفظن على الأزواج أموالهم وأعراضهم فى جميع الحالات.

أما القسم الثانى من النساء:

فهو قسم مكابر يرغب فى التعالى والخروج عن طاعة الزوج وقد شرع الإسلام العلاج لهذا النوع من النساء على النحو الآتى:

١ - الوعظ والإرشاد، والتوجيه، والتذكير بما أمر الله ورسوله من طاعة الزوج، والتزام أمره، والتحذير من شماتة الأعداء وتصدع شمل الأسرة.

٢ - الهجر والإعراض فى المضجع ويتحقق ذلك بهجرها فى الفراش مع الإعراض والصد.

٣ - الضرب اليسير غير المبرح، وهو ما كان بنحو سواك أو عصا صغيرة. وهو أمر معنوى أكثر منه حسى.

وهو خاص ببعض النساء ومن لا تستقيم بالوعظ ولا بالهجر، ويجب ألا يكون الضرب قاسيا ولا شديدا. وبعض الناس لا يتقبل عقوبة الضرب. ونحن نشاهد هذه العقوبة فى الجيش وفى غيره !.

وليست هذه العقوبة لجميع الناس، بل لفئة جاحدة لا تريد أن تخضع لقانون الله ولا أن تلتزم بشئون الأسرة.

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾. أى: فإن أطعنكم بواحدة من هذه الخصال التأديبية؛ فلا تبغوا ولا تتجاوزوا ذلك إلى غيرها، فابدءوا بما بدأ الله من الوعظ، فإن لم يفد فبالهجر، فإن لم يفد فبالضرب الخفيف غير مبرح ولا مهين، عند التمرد، فإذا لم يغن فليلجأ إلى التحكيم، ومتى استقام لكم الظاهر فلا تبحثوا عن السرائر.

إن الله فوقكم وينتقم منكم إذا آذيتموهن أو بغيتم عليهن ونلمح أن فى نهاية الآية تهديدا ووعيدا لكل من يتكبر على زوجته، أو ينتهز الفرصة لإذلالها والعدوان عليها، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، وإذا دفعتك قوتك إلى ظلم غيرك؛ فتذكر قدرة الله عليك وفى الحديث القدسى: «يا عبادى؛ إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما؛ فلا تظالموا».

ويقول الشاعر:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا ... الظلم شيمته يفضى إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

٣٥ - ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ...﴾

المعنى:

وإن علمتم أن بين الزوجين شقاقا قد استفحل خطره؛ فوجهوا إليهما حكما من أهل الزوج، وحكما من أهل الزوجة؛ لينظرا فيما بينهما من نزاع وشقاق فإذا خلصت نية الحكمين، وقصدا بصدق إلى التوفيق بين الزوجين؛ وفقهما الله تعالى إلى إزالة أسباب الخلاف والشقاق.

وينبغى أن نختار الحكمين من أهل الخبرة والحكمة والصلاح والمعرفة بشئون الصلح؛ لنحفظ البيوت والأسر من التصدع والأطفال من التشرد. فالإسلام حريص على دعم الأسرة وقيامها على المودة والرحمة والألفة كما أن الإسلام أمر بالصبر والصفح، وحسن الخلق والعشرة بالمعروف بين الزوجين.

★ ★ ★

﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾

المفردات:

عبادة الله: الخضوع له، والاستشعار بتعظيمه فى السر والعلن بالقلب والجوارح، والإخلاص له بالاعتراف بوحدانيته؛ إذ لا يقبل عملا بدونها.

الإحسان إلى الوالدين: قصد البر بهما بالقيام بخدمتهما، والسعى فى تحصيل مطالبهما، والإنفاق عليهما بقدر الاستطاعة، وعدم الخشونة فى الكلام معهما.

ذى القربى: صاحب القرابة من أخ، وعم، وخال، وأولاد هؤلاء.

الجار ذى القربى: هو الجار القريب الجوار.

الجار الجنب: هو البعيد القرابة.

الصاحب بالجنب: الرفيق فى السفر، أو المنقطع إليك، الراجى نفعك ورفدك.

ابن السبيل: هو المسافر أو الضيف.

ما ملكت أيمانكم: عبيدكم وإماؤكم.

المختال: ذو الخيلاء والكبر.

الـــفـــخـــور: الذى يعدد محاسنه؛ تعاظما وتكبرا.

أعـــتـــدنـــا: هيأنا وأعددنا.

الـــمـــهـــيـــن: ذو الإهانة والذلة

رئـــاء الـــنـــاس: أى: للمراءاة والفخر بما فعل.

الـــقـــريـــن: الصاحب والخليل . وَمَاذَا عَلَيْهِم. أىّ ضرر يحيق بهم لو آمنوا وأنفقوا ؟

تمهيد:

كان الكلام من أول السورة فى وصايا ونصائح، كابتلاء اليتامى قبل تسليمهم أموالهم، والنهى عن إيتاء الأموال للسفهاء، وعن قتل النفس، والإرشاد إلى كيفية معاملة النساء، وطرق تأديبهن تارة بالموعظة الحسنة وأخرى بالقسوة والشدة، مع مراقبة الله عز وجل فى كل ذلك.

فناسب بعدئذ التذكير بحسن معاملة الخالق بالإخلاص له فى الطاعة، وحسن معاملة الطوائف المختلفة من الناس، وعدم الضن عليهم فى أوقات الشدة بالمال، مع قصد التقريب إلى الله لقصد الفخر والخيلاء.

التفسير:

٣٦ – **وَاعْبُدُواْ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ.**

هذه آية تأمر بمكارم الأخلاق وهى سبيل من سبل التكافل والتراحم بين المسلمين.

وَاعْبُدُواْ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا. أى: وحِّدوا الله وأخلصوا له العبادة، ولا تشركوا به صنما أو غيره؛ فهو سبحانه صاحب الفضل والنعمة، وهو الذى خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور.

كما أمر الله بالإحسان إلى الوالدين ورعايتهما خصوصا فى مرحلة الكبر والشيخوخة.

كما أمر بصلة الرحم، والإحسان إلى الأقارب، والتجاوز عن هفواتهم، كما أمر برعاية اليتيم والإحسان إليه؛ لأنه فقد أباه فيجب أن يرعاه المجتمع ويحنو عليه، كما أمر برعاية المسكين المحتاج بأن نيسر له العمل والنصح ويشمل ذلك إنشاء الملاجئ، والمستشفيات، ودور الحضانة، ودروس تقوية التلاميذ، وإنشاء صندوق لرعاية المحتاجين. **وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ.**

أى: أحسنوا إلى الجار الذى قرب مكانا أو دينا أو نسبا، وإلى الجار البعيد مكانا أو دينا أو نسبا.

جاء فى تفسير ابن كثير :

قال ابن عباس: وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى. يعنى: الذى بينك وبينه قرابة، وَالْجَارِ الْجُنُبِ. الذى ليس بينك وبينه قرابة.

وروى ابن جرير أن الْجَارِ ذِى الْقُرْبَى . يعنى: الجار المسلم، الْجَارِ الْجُنُبِ . يعنى: اليهودى والنصرانى، وقال مجاهد: الْجَارِ الْجُنُبِ . الرفيق فى السفر.

وقد وردت الأحاديث بالوصايا بالجار منها ما رواه الشيخان عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مازال جبريل يوصينى بالجار؛ حتى ظننت أنَّه سيورثه»[٧].

وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ. عن على وابن مسعود قالا: هى المرأة، وقال ابن عباس ومجاهد: هو الرفيق فى السفر، وقال الطبرى والزمخشرى: وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ . «هو الذى صحبك إما رفيقا فى سفر، أو جارا ملاصقا، أو شريكا فى تعلم علم، أو قاعدا إلى جنبك فى مجلس أو غير ذلك، ممن له أدنى صحبة التأمت بينك وبينه فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا تنساه». وَابْنِ السَّبِيلِ. أى: المسافر الغريب الذى انقطع عن بلده وأهله، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم. أى: المماليك من العبيد والإماء، إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا. أى: متكبرًا فى نفسه يأنف عن أقاربه وجيرانه فخورًا على الناس يرى أنه خير منهم.

قال ابن جرير عن أبى رجاء الهروى: لا تجد سيِّئ الملكة إلا وجدته مختالا فخورًا، ولا عاقا إلا وجدته جبارا شقيا ثم تلا: وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا. (مريم: ٣٢)

٣٧ – الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ... وضَّحت الآية المختال الفخور وهو المتكبر الذى لا يشكر الله على نعمه.

ومعنى الآية:

الذين يبخلون بأموالهم؛ فلا ينفقونها فى وجوه البر والإحسان ولا يكتفون بهذا بل يأمرون غيرهم بالبخل ويحرضونهم عليه، ويخفون ما أنعم الله به عليهم؛ حتى لا يطمع الناس فى أموالهم وإحسانهم.

وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا. أى: وأعددنا للكافرين عذابا مخزيا مذلا لكبريائهم وسماهم الله كفارا؛ للإيذان بأن هذه الأخلاق أخلاق وأعمال لا تصدر إلا من الكفور لا من الشكور.

٣٨ – وَالَّذِينَ يَنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَآءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ. أى: ولا يحب الله – كذلك – الذين ينفقون أموالهم للرياء والسمعة، لا شكرًا لله على نعمه، ولا اعترافا بما أوجب الله عليهم من حق فى أموالهم. ولا يصدقون بوقوع اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب؛ لأنهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر؛ لتحروا مرضاة الله، ولما رأوا أحدا أبدا.

وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا. أى: ومن يكن الشيطان له صاحبًا فبئس هذا الصاحب صاحبا؛ لأنه يضله ويقوده إلى الهلاك.

والآية تشير إلى أن البخيل والمتكبر ما حملهم على ما فعلوا إلاَّ وسوسة الشيطان وهو بئس الصاحب والخليل.

٣٩ - وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءامَنُواْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا.

الاستفهام هنا للتعجب والإنكار. أى: وما الذى كان يصيبهم لو آمنوا بالله إيمانا صحيحا يظهر أثره فى العمل، وفى هذا الأسلوب إثارة تعجيب الناس من حالهم، إذ هم لو أخلصوا؛ لما فاتتهم منفعة الدنيا ولفازوا مع ذلك بسعادة العقبى؛ فكثيرا ما يفوت المرائى ما يرمى إليه من التقرب إلى الناس وامتلاك قلوبهم، ويظفر بذلك المخلص الذى لم يكن من همه أن أحدا يعرف ما عمل، فيكون الأول قد رجع بخفى حنين فى حين أن الثانى فاز بسعادة الدارين.

وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا. فينبغى للمؤمن أن يكتفى بعلم الله فى إنفاقه ولا يبالى بعلم الناس، فهو سبحانه الذى لاينسى عمل العاملين ولا يظلمهم من أجرهم شيئا.

★ ★ ★

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴿٤٢﴾﴾

المفردات:

المثقال: أصله المقدار الذى له ثقل مهما قل، ثم أطلق على المعيار المخصوص للذهب وغيره.

الذرة: أصغر ما يدرك من الأجسام ومن ثم قالوا: إنها النملة، أو رأسها، أو الخردلة، أو الهباء (ما يظهر فى نور الشمس الداخل من الكوة) .
ولذلك روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه أدخل يده فى التراب ثم نفخ فيه فقال: كل واحدة من هؤلاء ذرة !

الظلم: النقص كما قال تعالى: كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا. ومن لدنه: من عنده.

الحديث: الكلام.

تمهيد:

بعد أن بين عز اسمه صفات المتكبرين وسوء أحوالهم، وتوعدهم على ذلك بأشد أنواع الوعيد، زاد الأمر توكيدا وتشديدا فذكر أنه لا يظلم أحدا من العاملين بوصاياه لا قليلا ولا كثيرا، بل يوفيه حقَّه بالقسطاس المستقيم، وفى هذا أعظم الترغيب لفاعلى البر والإحسان وحفز لهممهم على العمل، وفى معنى الآية قوله : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ.

التفسير:

٤٠ - إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ. أى: إنَّه تعالى لا ينقص أحدا من أجر عمله والجزاء عليه شيئا ما وإن صغر كذرة الهباء؛ بل يوفيه أجره، كما لا يعاقبه بغير استحقاق للعقوبة، إذ إنَّ الثواب والعقاب تابعان لتأثير الأعمال فى النفس بتزكيتها أو تدسيتها؛ فالعمل يرفعها إلى أعلى عليين أو يهبط بها إلى أسفل سافلين، ولذلك درجات ومثاقيل مقدرة فى نفسها لا يحيط بدقائقها إلا من أحاط بكل شىء علمًا.

والخلاصة: إن الظلم لا يقع من الله تعالى؛ لأنه من النقص الذى يتنزه عنه وهو ذو الكمال المطلق والفضل العظيم، وقد خلق للناس مشاعر يدركون بها ما لا يدركه الحس، وشرع لهم من أحكام الدين وآدابه ما لا تستقل عقولهم بالوصول إلى مثله فى هدايتهم وحفظ مصالحهم، وهى تسوق إلى الخير وتصرف عن الشر وأيدها بالوعد والوعيد، فمن وقع بعد ذلك فيما يضره ويؤذيه كان هو الظالم لنفسه؛ لأن الله لا يظلم أحدا.

وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا. أى: إنه تعالى مع كونه لا ينقص أحدا من أجر عمله مثقال ذرة يزيد للمحسن فى حسناته، فالسيئات جزاؤها بقدرها، والحسنات يضاعف الله جزاءها عشرة أضعاف أو أضعافا كثيرة كما قال فى آية أخرى: مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ. (الأنعام: ١٦٠). وقال: مَّن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً. (البقرة: ٢٤٥).

وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجرًا عَظِيمًا. أى: إنه تعالى لواسع فضله لا يكتفى بجزاء المحسنين على إحسانهم فحسب، بل يزيدهم من فضله ويعطيهم من لدنه عطاء كبيرا، وسمى هذا العطاء أجرا ولا مقابل له من الأعمال؛ لأنه لما كان تابعا للأجر على العمل سمى باسمه لمجاورته له. وفى ذلك إيماء إلى أنه لا يكون لغير المحسنين، إذ هو علاوة على أجور أعمالهم، فلا مطمع للمسيئين فيه.

٤١ - فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا. أى: إذا كان الله لا يضيع من عمل العاملين مثقال ذرة، فكيف يكون الناس إذا جمعهم الله وجاء بالشهداء عليهم وهم أنبياؤهم؟! فما من أمة إلا لها بشير ونذير.

وهذه الشهادة عبارة عن عرض أعمال الأمم على أنبيائهم (لا فرق بين اليهود والنصارى والمسلمين) ومقابلة عقائدهم، وأخلاقهم، وأعمالهم بعقائد الأنبياء، وأعمالهم، وأخلاقهم، فمن شهد لهم بينهم بأنهم على ما جاء به وما أمر الناس بالعمل به؛ فهم ناجون، ومن تبرأ منهم أنبياؤهم لمخالفة أعمالهم وعقائدهم لما جاءوا به؛ فأولئك هم الخاسرون وإن ادعوا اتباعهم والانتماء إليهم.

وقوله: وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا. يراد به شهادة محمد ﷺ - خاتم المرسلين - على أمته كما قال تعالى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا. أى: إن هذه الأمة بحسن سيرتها؛ تكون شهيدة على الأمم السالفة وحجة عليها فى انحرافها عن هدى المرسلين، والرسول ﷺ بسيرته وأخلاقه الغالية وسننه المرضية؛ يكون حجة على من تركها وتساهل فى اتباعها، وعلى من تغالى فيها وابتدع البدع المحدثة من بعده.

روى البخارى، والترمذى، والنسائى وغيرهم من حديث ابن مسعود أنه قال: قال لى رسول الله ﷺ: «اقرأ على. قلت: يا رسول الله أقرأ عليك، وعليك أنزل؟! قال: نعم أحب أن أسمعه من غيرى، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ... إلخ، فقال: «حسبك الآن» فإذا عيناه تذرفان ! »[٨].

فانظر كيف اعتبر بهذه الشهادة الشهيد الأعظم ﷺ فبكى لتذكر هذا اليوم، وهل نعتبر كما اعتبر ونستعد لهول ذلك اليوم؛ باتباع سنته ونجتهد فى اجتناب البدع والتقاليد التى لم تكن فى عهده؛ وبذا نكون أمة وسطا لا تفريط عندها فى الدين ولا إفراط، لا فى الشئون الجسمية ولا فى الشئون الروحية، أو نظل فى غوايتنا، تقليدا للآباء؛ لنكون كما قال الكافرون : إِنَّا وَجَدْنَآ ءابَآءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءاثَارِهِم مُّقْتَدُونَ . (الزخرف: ٢٢)

٤٢ - يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ. أى: إذا جاء ذلك اليوم الذى نأتى فيه بشهيد على كل أمة، يتمنى الذين كفروا وعصوا الرسول فلم يتبعوا ما جاء، أن يصيروا ترابا تسوى بهم الأرض؛ فيكونوا وإياها سواء كما قال تعالى: فى سورة النبإ: ... وَيَقُولُ الكَافِرُ يا لَيْتَنِى كُنتُ تُرَابًا. (النبأ: ٤٠)

وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا. أى: أنهم يودون لو يكونون ترابا فتسوى بهم الأرض ولا يكونون قد كتموا الله وكذبوا أمامه على أنفسهم بإنكار شركهم وضلالهم كما قال تعالى: وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُم تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ. (الأنعام: ٢٢-٢٤)، أى: فهم حينئذ يكذبون وينكرون شركهم إما اعتقادًا منهم أن ما كانوا عليه ليس بشرك، وإما هو استشفاع وتوصل، وإما مكابرة وظنا أن ذلك يجديهم ويدفع عنهم العذاب، فيشهد عليهم الأنبياء المرسلون أنهم لم يكونوا متبعين لهم فيما أحدثوا من شركهم، بل كانوا مبتدعين ذلك من عند أنفسهم، فقد قاسوا ربهم على ملوكهم الظالمين وأمرائهم المستبدين الذين يتركون عقاب بعض المسيئين بشفاعة المقربين، فإذا شهدوا عليهم تمنوا لو كانوا قد سويت بهم الأرض وما افتروا ذلك الكذب.

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾

المفردات :

الغائط: المنخفض من الأرض كالوادي، وأهل البادية والقرى الصغيرة يقصدونه عند قضاء الحاجة؛ للستر والاستخفاء عن الناس.

ملامسة النساء: الإفضاء إليهن.

تيمموا: اقصدوا .

الصعيد: وجه الأرض.

الطيب: الطاهر.

العفو: ذو العفو، والعفو عن الذنب: محوه وجعله كأن لم يكن.

الغفور: ذو المغفرة.

المغفرة: ستر الذنوب بعدم الحساب عليها.

تمهيد:

بعد أن وصف سبحانه الوقوف بين يديه يوم العرض والأهوال التى تؤدى إلى تمنى الكافر: العدم فيقول: يا ليتنى كنت ترابا! والتى تجعله لا يستطيع أن يكتم الله حديثا، وذكر أنه لا ينجو فى ذلك اليوم إلا من كان طاهر القلب والجوارح بالإيمان به والطاعة لرسوله، وصف فى هذه الآية الوقوف بين يديه فى مقام الأنس، وحضرة القدس، المنجى من هول الوقوف فى ذلك اليوم، وطلب فيه استكمال القوى العقلية وتوجيهها إلى جانب العلى الأعلى بألا تكون مشغولة بذكرى غير طاهرة من الأنجاس والأخباث؛ لتكون على أتم العدة للوقوف فى ذلك الموقف الرهيب، مستشعرة تلك العظمة والجلال والكبرياء.

٤٣ - يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءامَنُواْ لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنتُم سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إلاَّ عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا.

يأيها الذين آمنوا، لا يحل لكم أن تؤدوا الصلاة وأنتم فى حالة السكر؛ حتى تكونوا بحيث تعلمون ما تقولونه قبل أدائها، ولا فى حالة الجنابة؛ حتى تغتسلوا ولا تقربوا مواضع الصلاة (وهو المسجد) حال كونكم جنبا إلا فى حال عبوركم من جانب إلى جانب.

روى ابن جرير: أن رجالا من الأنصار كانت أبوابهم فى المسجد تصيبهم جنابة ولا ماء عندهم فيريدون الماء ولا يجدون ممرا إلا فى المسجد فأنزل الله تعالى: وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِى سَبِيلٍ .

وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا. أى: وإن كنتم مرضى ويضركم الماء، أو مسافرين، وفى الأسفار يصعب وجود ما يكفى من الماء عادة فقد أباح الله لكم التيمم وهو ضربتان ضربة للوجه وضربة لليدين وكذلك إذا جاء أحدكم من المكان المعد لقضاء الحاجة أو جامعتم النساء فلم تجدوا ماء تتطهرون به لفقده؛ فاقصدوا ترابا طيبا كذلك، فاضربوا به أيديكم، وامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه؛ إن الله من شأنه العفو العظيم والمغفرة.

وتفيد الآية ما يأتى:

١ – يسر الإسلام وسماحته، وتيسير الله على عباده قال تعالى: مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. (المائدة: ٦).

٢ – من الواجب على المسلم عندما يتهيأ للصلاة أن يتجنب كل ما يتعارض مع الخشوع؛ لأن الصلاة مناجاة وذكر لله، قال تعالى: وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِى. (طه: ١٤).

٣ – استدلوا بهذه الآية على أن المسلم منهى عن الصلاة حال النعاس أو ما يشبهه.

٤ – التيمم مباح للمسلم عند فقده الماء، أو عند وجود الماء ولكن هناك عارض يمنعه من استعماله كمرض أو نحوه.

★ ★ ★

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾

المفردات:

ألم تر: أى: ألم تنظر؟

نصيبا: حظا.

السبيل: الطريق القويم.

وليا: أى: يتولى شئونكم.

نصيرا: معينا يدفع شرهم عنكم.

من الذين هادوا: هم: اليهود.

غير مسمع: يحتمل أن يكون المعنى غير مسمع: مكروها، وأن يكون غير مقبول منك ولا مجاب إلى ما تدعو إليه.

وراعنا: إما بمعنى: ارقبنا وانظرنا؛ نكلمك، وإما بمعنى: كلمة عبرانية كانوا يتسابون بها، وهى: (راعينا).

ليا بألسنتهم: أى: فتلا بها وتحريفا.

طعنا فى الدين: قدحًا فيه.

أقوم: أعدل وأسد.

إلا قليلا: أى: إلا قليلا من الإيمان لا يعبأ به.

تمهيد:

بعد أن ذكر الله سبحانه فى سابق الآيات كثيرا من الأحكام الشرعية، ووعد فاعلها بجزيل الثواب، وأوعد تاركها بشديد العقاب، انتقل هنا إلى ذكر حال بعض الأمم الذين تركوا أحكام دينهم، وحرفوا كتابهم، واشتروا الضلالة بالهدى؛ لينبه الذين خوطبوا بالأحكام المتقدمة إلى أن الله مهيمن

عليهم كما هيمن على من قبلهم، فإذا هم قصروا؛ أخذهم بالعقاب الذى رتبه على ترك أحكام دينه فى الدنيا والآخرة، والمؤمنون بالله حقا بعد أن سمعوا الوعد والوعيد المتقدمين لابد أن يأخذوا بهذه الأحكام على الوجه الموصل إلى إصلاح الأنفس، وذلك هو الأثر المطلوب منها، ولن يكون ذلك إلا إذا أخذت بصورها ومعانيها، لا بأخذها بصورها الظاهرة فحسب.

وقد اكتفى بعض الأمم من الدين ببعض رسومه الظاهرة فقط كبعض اليهود الذين كانوا يكتفون ببعض القرابين وأحكام الدين الظاهرة، وهذا لا يكفى فى اتباع الدين والقيام به على الوجه المصلح للنفوس كما أراده الله.

فأرشدنا سبحانه إلى أن عمل الرسوم الظاهرة فى الدين كالغسل، والتيمم لا يغنى عنهم شيئا إذا لم يطهروا القلوب؛ حتى ينالوا مرضاته ويكونوا أهلا لكرامته، ولا يكون حالهم كحال بعض من سبقهم من الأمم.

٤٤ - أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ.

ألم ينته إلى علمك حال هؤلاء الأحبار من اليهود الذين أعطوا حظا ومقدارا من علم التوراة؟!

إن كنت لم تعلم أحوالهم أو لم تنظر إليهم فهاك خبرهم وتلك هى حقيقتهم، إنهم يشترون الضلالة وهى البقاء على اليهودية، بعد وضوح الآيات لهم الدالة على صحة دين الإسلام، وهم لا يكتفون بتلبسهم بالضلال الذى أشربته نفوسهم، بل يريدون منكم يا معشر المسلمين أن تتركوا دين الإسلام الذى هو السبيل الحق، وأن تتبعوهم فى ضلالهم وكفرهم.

٤٥ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا.

الله أعلم بأعدائكم أيها المؤمنون، وقد أخبركم بأحوالهم وبما يبيتون لكم من شرور؛ فاحذروهم، ولا تلتفوا إلى أقوالهم، وأعدوا العدة لتأديبهم؛ دفاعا عن دينكم وعقيدتكم، **وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا** يتولى أموركم ويصلح بالكم **وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا** يدفع عنكم مكرهم، وشرهم فلا تطلبوا ولاية غير ولايته وتكفيكم نصرته؛ فلا تستعينوا بسواه. وعليكم باتباع السنن التى وضعها الله فى هذه الحياة، ومنها عدم الاستعانة بالأعداء الذين لا يعملون إلا لمصلحتهم الخاصة.

٤٦ - مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ .

من اليهود فريق يميلون الكلام عن معناه، ويفسرونه بغير مراد الله تعالى كذبا منهم وافتراء وتضليلا وإنهم كانوا يقولون للنبى ﷺ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا. أى: سمعنا قولك، وعصينا أمرك وروى عن مجاهد أنهم قالوا للنبى ﷺ: (سمعنا قولك ولكن لا نطيعك). وكذلك كانوا يقولون له: اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ.

أي: اسمع كلامنا لا أسمعك الله، في الموضع الذى يقول فيه المتأدبون للمخاطبين: اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ. أي: لا سمعت مكروها. فاللفظ يسوقونه ومرادهم منه الدعاء عليه ويوهمون أن مرادهم الدعاء له.

ويقولون: رَاعِنَا . وهى كلمة تحتمل الخير على معنى: (انظرنا وتمهل علينا نكلمك) وتحتمل الشر على معنى: (راعينا) أي: اشملنا بالرعونة والحمق، أو جعله راعيا من رعاة الغنم.

ومن تحريفهم قولهم: (السام عليكم) أي: الموت عليكم، لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فى الدِّينَ. أى: صرفا للكلام عن ظاهره إلى إرادة الشتم والسب، وقدحا فى الدين بالاستهزاء والسخرية.

وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ. أى: لو أنهم استقاموا وقالوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا. بدل قولهم: سمعنا وعصينا وقالوا: اسْمَعْ دون أن يقولوا: غَيْرَ مُسْمَعٍ، وقالوا: انظُرْنَا بدل رَاعِنَا لكان خيرا لهم ما قالوه، وأعدل منه سبيلا ولكن الله طردهم من رحمته؛ بإعراضهم فلا تجد منهم من يستجيبون لداعى الإيمان إلا عددا قليلاً.

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ ﴾

المفردات:

الكتاب: التوارة.

الطمس: إزالة الأثر بمحوه أو إخفائه كما تطمس آثار الدار وأعلام الطرق إما بأن تنقل حجارتها، وإما بأن تسفوها الرياح، ومنه الطمس على الأموال فى قوله: رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ. (يونس: ٨٨) أي: أزلها وأهلكها، والطمس على الأعين فى قوله: وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ. (يس: ٦٦) إما إزالة نورها، وإما محو حدقتها.

الوجه: تارة يراد به الوجه المعروف وتارة وجه النفس وهو ما تتوجه إليه من المقاصد كما قال تعالي: أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ. (آل عمران: ٢٠)، وقال: وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ. (لقمان: ٢٢)، وقال: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا. (الروم: ٣٠).

الأدبار: واحدها: دبر، وهو الخلف والقفا.

الارتداد: هو الرجوع إلى الوراء، إما في الحسيات وإما فى المعانى، ومن الأول: الارتداد والفرار فى القتال ومن الثانى: قوله: إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُم وَأَمْلَى لَهُمْ. (محمد:٢٥)

نلعنهم: نهلكهم. كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ، أى: كما أهلكنا أصحاب السبت، وقيل: مسخهم الله وجعلهم قردة وخنازير كما أخرجه ابن جرير عن الحسن.

تمهيد:

بعد أن نعى أهل الكتاب فى الآية السالفة اشتراءهم الضلالة بالهدى بتحريفهم بعض الكتاب وإضاعة بعضه الآخر، ألزمهم هنا بالعمل بما عرفوا وحفظوا بأن يؤمنوا بالقرآن؛ ذلك أن إيمانهم بالتوراة يستدعى الإيمان بما يصدقها وحذرهم من مخالفة ذلك، وتوعدهم بالويل والثبور وعظائم الأمور.

التفسير:

٤٧ - يَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ ءامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُم. أى: يأيها اليهود والنصارى، آمنوا بالكتاب الذى جاء مصدقا لما معكم، من تقرير التوحيد والابتعاد عن الشرك، وما يقوى ذلك الإيمان من ترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وتلك هى أصول الدين وأركانه والمقصد الأسمى من إرسال جميع الرسل، ولا خلاف بينهم فى ذلك، وإنما الخلاف فى التفاصيل، وطرق حمل الناس عليها وهدايتهم بها، وترقيتهم فى معارج الفلاح بحسب السنن التى وضعها الله فى ارتقاء البشر، بتعاقب الأجيال، واختلاف الأزمان.

مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا على أَدْبَارِهَآ. أى: آمنوا قبل أن يحل بكم العقاب من طمس الوجوه، والرد على الأدبار: أى: من قبل أن نطمس وجوه مقاصدكم التى توجهتم بها من كيد الإسلام، ونردها خاسرة إلى الوراء بإظهار الإسلام ونصره عليكم، وقد كان لهم عند نزول الآية شىء من المكانة والقوة والعلم والمعرفة.

وجعل بعضهم الرد على الأدبار حسيا فقال: نردهم على أدبارهم بالجلاء إلى فلسطين والشام، وهى بلادهم التى جاءوا منها.

وخلاصة المعنى: آمنوا قبل أن نعمى عليكم السبيل بما نبصِّر المؤمنين بشئونكم ونغريهم بكم، فتردوا على أدباركم بأن يكون سعيكم إلى غير الخير لكم.

أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَابَ السَّبْتِ. أى: آمنوا قبل أن تقعوا فى الخيبة والخذلان وذهاب العزة؛ باستيلاء المؤمنين عليكم وإجلائكم عن دياركم كما حدث لطائفة منكم، أو بالهلاك كما وقع بقتل طائفة أخرى وهلاكها.

ثم هددهم وتوعدهم فقال:

وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً. المراد من الأمر: الأمر التكوينى المعبر عنه بقوله عز من قائل: إِنَّمَآ أَمْرُه إِذَآ أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ. (يس: ٨٢)، إنما أمره بإيقاع شىء ما نافذ لا محالة، ومن هذا ما أوعدتم به قال ابن عباس: يريد لا رادَّ لحكمه ولا ناقض لأمره، فلا يتعذر عليه شىء يريد أن يفعله، كما تقول فى الشىء الذى لا شك فى حصوله: هذا الأمر مفعول وإن لم يفعل بعد.

والخلاصة: إنه يقول لهم: أنتم تعلمون أن وعيد الله للأمم السالفة قد وقع ولا محالة؛ فاحترسوا وكونوا على حذر من وعيده لكم.

★ ★ ★

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾

المفردات:

يقال: افترى فلان الكذب؛ إذا اعتمله واختلقه، وأصله من الفَرْى، بمعنى: القطع، وتزكية النفس: مدحها، قال تعالى: فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ . (محمد: ٣٢) والظلم: النقص، والفتيل: ما يكون في شق نواة التمر مثل: الخيط، وبه يضرب المثل فى الشيء الحقير كما يضرب بمثقال الذرة، قال الراغب: الإثم والآثام: اسم للأفعال المبطئة عن الثواب: أى: من الخيرات التى يثاب المرء عليها وقد يطلق الإثم على ما كان ضارا.

تمهيد:

بعد أن هدد سبحانه اليهود على الكفر، وتوعدهم عليه بأشد الوعيد كطمس الوجوه والرد على الأدبار، ثم بين أن ذلك الوعيد واقع لا محالة بقوله: وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً.

ذكر هنا أن هذا الوعيد وشديد التهديد إنما هو لجريمة الكفر، فأما سائر الذنوب سواه فالله قد يغفرها ويتجاوز عن زلاتها.

أخرج ابن المنذر عن أبى مِجْلَزْ قال: لما نزل قوله تعالى: قُلْ يَاعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ. (الزمر: ٥٣) قام النبى ﷺ على المنبر فتلاها على الناس، فقام إليه رجل فقال: والشرك بالله، فسكت، ثم قام إليه فقال: يا رسول الله والشرك بالله تعالى فكست مرتين أو ثلاثا فنزلت هذه الآية:

٤٨ - إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ.

بعد أن عدد مثالب اليهود، بين أنهم إذا دخلوا فى الإسلام واتبعوا طريق الإيمان، غفر الله لهم كما يغفر سبحانه لكل مؤمن.

والمعنى: إن الله لا يغفر لكافر مات على كفره، ويغفر ما دون الكفر من الذنوب والمعاصى لمن يشاء أن يغفر له إذا مات من غير توبة، فمن مات من المسلمين بدون توبه من الذنوب التى اقترفها فأمره مفوض إلى الله إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه وأدخله الجنة.

وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا. أى: ومن يجعل لغير الله شركة مع الله قيوم السموات والأرض - سواء أكانت الشركة بالإيجاد أو بالتحليل والتحريم - فقد اخترع ذنبا عظيم الضرر تستصغر فى جنب عظمته جميع الذنوب والآثام فهو جدير بألا يغفر، وما دونه قد يمحى بالغفران.

٤٩ - أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا.

ألم ينته علمك يا محمد إلى هؤلاء الذين يثنون على أنفسهم ويمدحونها بما ليس فيهم مدعين أنهم على الحق، والله وحده هو الذى يعلم الخبيث من الطيب فيزكى من يشاء، ولا يظلم أى إنسان قدره مهما كان ضئيلا.

روى ابن جرير عن الحسن أن الآية نزلت فى اليهود والنصارى حيث قالوا: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ. (المائدة: ١٨).

جاء فى تفسير المراغى ... وفى الآية موضعان من العبرة:

١ - أن الله يجزى عامل الخير بعمله ولو مشركا؛ لأن لعمله أثرا فى نفسه يكون مناط الجزاء. فيخفف عذابه عن عذاب غيره كما ورد فى الأحاديث: إن بعض المشركين، يخفف عنهم العذاب بعمل لهم، فحاتم الطائى بكرمه، وأبو طالب بكفالته النبى ﷺ ونصره إياه، وأبو لهب لعتقه جاريته ثويبة حين بشرته بمولد النبى ﷺ.

٢ - أن يحذر المسلمون الغرور بدينهم كما كان أهل الكتاب فى عصر التنزيل وما قبله، وأن يبتعدوا عن تزكية أنفسهم بالقول واحتقار من عداهم من المشركين، وأن يعلموا أن الله لا يحابى فى نظم الخليفة أحدا لا مسلما ولا يهوديا ولا نصرانيا[٩].

٥٠ - انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا.

أى: انظر كيف يكذبون على الله بتزكية أنفسهم وزعمهم أن الله يعاملهم معاملة خاصة بهم، لا كما يعامل سائر عباده وكفى بالكذب على الله ذنبا واضحا يكشف عن خبيث طويتهم.

★ ★ ★

سقطات اليهود

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾

المفردات:

بالجبت: الجبت: كل ما عبد من دون الله، ويطلق أيضا على الكاهن، والساحر، والسحر.

الطاغوت: الطاغوت في الأصل، كثير الطغيان، ويطلق على كلّ رأس فى الضلال يصرف عن طريق الخير، ويغرى بالشر.

نقيرا: النقير في الأصل: هو النقرة التى تكون في ظهر النواة. ويضرب به المثل فى القلة والضآلة، فالمراد به: أقل القليل.

يحسدون الناس: الحسد: تمنى زوال نعمة الغير.

الحكمة: العلم النافع، أو النبوة.

صدّ عنه: انصرف عنه، وأعرض.

سعيرا: نارا مسعرة يعذبون فيها.

التفسير:

٥١ - أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ . . الآية

روى ابن أبى حاتم، عن عكرمة: أن حيى بن أخطب، وكعب بن الأشرف اليهوديين، خرجا إلى مكة فى جماعة من اليهود؛ ليحالفوا قريشا على محاربة رسول الله ﷺ، وينقضوا العهد الذى كان بينهم وبينه؛ فقال لهم كفار قريش: أنتم أهل كتاب، وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا، فلا نأمن مكرمكم؛ فاسجدوا لآلهتنا، حتى نطمئن إليكم.. ففعلوا.

فهذا إيمانهم بالجبت والطاغوت؛ لأنهم سجدوا للأصنام، وأطاعوا إبليس فيما فعلوا.

وقال أبو سفيان لكعب: إنك امرؤ تقرأ الكتاب، وتعلم، ونحن أميون لا نعلم. فأينا أهدى سبيلا: نحن أم محمد؟ فقال: ماذا يقول محمد؟ قال: يأمر بعبادة الله وحده، وينهى عن الشرك. قال: وما دينكم؟ قالوا: نحن ولاة البيت: نسقى الحاج، ونقرى الضيف، ونفك العانى. وذكروا أفعالهم. فقال: أنتم أهدى سبيلا؛ فنزلت.

وروى – من غير وجه – نحو ذلك .

وهذه الآية: تعجيب من حال أخرى من أحوال أهل الكتاب، وتوبيخ لهم على ارتكابهم جريمة من أشنع الجرائم، وهى سجودهم للأصنام، وشهادتهم بأن عبدة الطاغوت أحسن دينا من أهل الإسلام. على الرغم من أنهم أهل كتاب. وأعرف من غيرهم بالدين الصحيح.

والمعنى: ألم ينته علمك يا محمد – أَوْ كل من يستحق أن يخاطب – إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب، ورزقوا حظا منه، وإلى حالتهم العجيبة الداعية إلى الدهشة والعجب، وهى أنهم – مع كونهم أهل كتاب – يؤمنون بالأصنام ويطيعون الشيطان، ويقولون فى شأن الذين آمنوا للذين كفروا – من أجل مخالفتهم – هؤلاء الكفار الجاهليون: أهدى سبيلا، وأقوم طريقا من الذين آمنوا بمحمد؟!

فبين بذلك مناط التعجيب من حالهم.

يا للعجب من قوم: أهل كتاب، وأتباع رسل، يقولون عن المؤمنين بمحمد: إن الكفار – من مشركى مكة – أهدى منهم سبيلا ! وإنما وصفهم الله بأنهم أوتوا نصيبا من الكتاب، ولم يصفهم بأنهم أوتوا الكتاب؛ لأن حالهم تتنافى مع الكتاب كله، حيث يؤمنون ببعضه، ويكفرون ببعضه.

٥٢ – أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا. بعد أن ذكر الله أحوالهم المثيرة للدهشة والعجب، عقب ذلك بتقريعهم، وبيان العقاب المستحق لهم، فقال: أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ . . . الآية

والمعنى: أولئك الموصوفون بالصفات السابقة، المرتكبون لهذه الجرائم البشعة، هم الذين حكم الله عليهم بالطرد من رحمته؛ بسبب كفرهم وعصاينهم ومن يلعنه الله ويبعده من رحمته؛ فلن تجد له نصيرا ينصره من عذاب الله الذى ينزل به.

٥٣ – أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا. أى: ليس لهم نصيب من الملك، حتى يكون لهم الحق فى الإعطاء والمنع، والحكم بالهداية وغيرها؛ فقد زال ملكهم قبل بعثة محمد ﷺ، بمئات السنين ولو بقى لهم من الأمر شيء، لما أعطوا أحدا أقل قليل من الخير.

ثم بَيَّنَ الله تعالى سر هذا العناد والتمادى فى الضلال، فذكر أنه يرجع إلى حسدهم للنبى ﷺ وأمته، وسيطرة الحقد على نفوسهم، فوبخهم على ذلك بقوله:

٥٤ - أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَآ ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ. أى: أنهم ليس لهم دليل يستندون إليه، وسبب يتمسكون به فى تكذيبهم. بل هم يحسدون الناس، وهم النبى ﷺ ومن معه من المؤمنين، على ما آتاهم الله من فضله، وأنعم به عليهم حيث: أعطاهم النبوة، والكتاب، والحكمة.

ولا غرابة فى هذا، ففضل الله واسع، وقد آتى الله آل ابراهيم - أى: إبراهيم ومن معه - الكتاب، والحكمة، والنبوة، وآتاهم الله مع ذلك ملكا عظيما واسعا.

ومن ذلك ما أعطاه الله تعالى يوسف عليه السلام، من السلطان فى مصر.

وما أعطاه الله تعالى داود وسليمان عليهما السلام، من النبوة والملك العظيم فلا غرابة - بعد هذا - أن يؤتى الله محمدا ﷺ - وهو من أولاد إبراهيم - مثلما أعطى إخوانه الأنبياء.

٥٥ - فَمِنْهُم مَّنْ ءامَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا.

فى هذه الآية بيان لموقف أهل الكتاب من شريعة إبراهيم عليه السلام، والتصديق برسالته.

أى: فمن أهل الكتاب، من آمن بإبراهيم وما أنزل عليه، ومنهم من كفر به وصد عنه. وقد أعطى الله الكفار الجزاء المناسب لهم، وهو أنهم يصلون سعيرا: أى: يقاسون نارا مسعرة ملتهبة، وكفى بجنهم سعيرا. ولا حاجة بعدها إلى ما هو أشد منها، إذ ليس هناك ما هو أقوى منها حرارة وأكثر اضطراما وأشد تعذيبا.

★ ★ ★

عذاب النار

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾

المفردات:

نصليهم نارا: نذيقهم حرها، ونشويهم بها.

نضجت جلودهم: احترقت وذابت.

ظلا ظليلا: ظلا وارفا مستديما: لا يصاحبه حر ولا برد.

التفسير:

٥٦ – إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا... الآية

بعد أن عدد الله جرائم أهل الكتاب، وأحوالهم المقتضية للتعجيب، وعددهم عليها بالسعير، اتبع ذلك بيان جزاء الكفار على وجه العموم: الشاملين لأهل الكتاب، وغيرهم فقال: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا...

والمعنى: إن الذين جحدوا آياتنا الدَّالة على ألوهيتنا، والمنزلة على أنبيائنا – عليهم الصلاة والسلام – وفى مقدمتها القرآن الكريم: الذى هو آخر الكتب وأوفاها، وأوضحها دلالة.

سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا. أى: سوف ندخلهم نارا هائلة يوم القيامة.

كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم. أى: كلما احترقت جلودهم، وتعطلت عن الإحساس بالألم.

بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا. أى: جلودا جديدة أخرى؛ ليستمر عذابهم، ويدوم لهم بها، وذوقهم لها؛ لأنهم كانوا مصرين على الكفر إلى ما لا يتناهى.

فحكم الله تعالى عليهم بالعذاب الشديد الذى لا يتناهى: جَزَآءً وِفَاقًا. (النبأ: ٢٦).

وأكد الله هذا الوعيد بقوله: إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا. أى: هو – فى ذاته – قوى: لا يعجزه شىء، ولا يستعصى عليه أمر، حكيم فى أفعاله ومن حكمته: تعذيب العاصى على قدر ذنبه.

٥٧ – وَالَّذِينَ ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ.

بعد أن ذكر الله عذاب الكفار، أتبعه بيان ثواب المؤمنين، جريا على عادة القرآن الكريم، فى اتباع الترهيب بالتَّرغيب؛ وقرن الوعد بالوعيد، إظهارا للفرق بين الحالين، وتقريرا للعدل بين الفريقين. فقال:

وَالَّذِينَ ءامَنُوا بالله ورسله إيمانا صحيحا.

وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ: أى: عملوا الأعمال النافعة لهم. وللناس جميعا، فى الدنيا والآخرة.

سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ. أى: سندخلهم يوم القيامة جنات عالية تجرى من تحت أشجارها وقصورها، وتفيض الخيرات فى كل أنحائها. لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ. (الحجر: ٤٨).

خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا. فلا يعتريهم خوف من زواله.

لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ. أى: ويتنعمون فيها بزوجات طاهرات من الأدناس الحسية والمعنوية.

وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً. أى: وسيدخلهم الله – الكريم القادر – ظلا ظليلا، لا يعتريه ضيق الحر، ولا مس البرد. ولهم فيها الثواب العظيم، والنعيم المقيم.

وشتان بين هذا وبين ما يقاسيه الكفار. مما بينته الآية السابقة.

وَمَا يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ * وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ. (فاطر: ١٩– ٢١)

★ ★ ★

﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ ﴾

المفردات:

أن تؤدوا الأمانات: جمع أمانة، وهى ما يؤتمن عليه الإنسان: لله أو للناس وأداؤها: ردها وحملها إلى أصحابها.

التفسير:

٥٨ – إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا... الآية

الخطاب فى هذه الآية عام لجميع المكلفين كما أن الأمانات تعم جميع الحقوق المتعلقة بالذمم سواء كانت حقوق الله أو العباد.

والمعنى: إن الله تعالى يأمركم أيها المؤمنون أن تؤدوا ما ائتمنتم عليه من الحقوق سواء أكانت هذه الحقوق لله تعالى أم للعباد وسواء أكانت فعلية أم قولية أم اعتقادية.

ومعنى أدائها إلى أهلها: توصيلها إلى أصحابها كما هى من غير بخس أو تطفيف أو تحريف أو غير ذلك مما يتنافى مع أدائها بالطريقة التى ترضى الله تعالى.

وقد ذكر المفسرون أن الأمانة على أنواع:

١ – أمانة العبد مع ربه، وتشمل قيامه بحقوق الله عز وجل على عباده من الصلاة، والزكاة، والصيام، والكفارات، والنذور.

٢ – أمانة العبد مع الناس. ومن ذلك: رد الودائع إلى أربابها، وعدم الغش، وحفظ السر.

ويدخل فى ذلك عدل الأمراء مع الرعية؛ لأن الحكم أمانة (فيجب على الولاة تأدية ما لديهم من الأمانات ورد الظلامات وتحرى العدل فى أحكامهم)[١٠].

٣ – أمانة الإنسان مع نفسه بأن يختار لنفسه ما هو الأصلح والأنفع له فى الدين والدنيا.

وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالعَدْلِ. أى: كما أمركم الله تعالى أيها المؤمنون بأداء الأمانات إلى أهلها فإنه يأمركم – أيضا – إذا حكمتم بين الناس أن تجعلوا حكمكم قائما على الحق والعدل؛ فإن الله تعالى ما أقام ملكه إلا عليهما، ولأن الأحكام إذا صاحبها الجور والظلم أدَّت إلى شقاء الأفراد والجماعات.

قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ . (النحل: ٩٠)

وقال تعالى: يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ. (ص: ٢٦).

إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ. أى: نعم الشيء الذى يعظكم الله به أداء الأمانات، والحكم بالعدل بين الناس؛ إذ لا يعظكم إلا بما فيه صلاحكم وفلاحكم وسعادتكم فى الدارين وأن الله دائما سميع لما يقال، بصير بما يفعل، فيعلم من أدى الأمانة ومن خان، ومن حكم بالعدل أو جار؛ فيجازى كلا بعمله.

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾

المفردات:

وأولى الأمر منكم: أصحاب الحل والعقد. من الرؤساء والعلماء.

تنازعتم: اختلفتم.

فردُّوه إلى الله والرسول: أى: ارجعوا فى معرفته إلى كتاب الله، وسنة رسوله.

تأويلا: مآلا ومرجعا وعاقبة، أو أحسن تأويلا من تأويلكم.

التفسير:

٥٩ – يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّه وأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِى الأَمْرِ مِنكُم...

أى: أطيعوا الله واعملوا بكتابه، وأطيعوا الرسول؛ لأنه موضح للكتاب ومبين له وهو القدوة العملية قال تعالى: لَّقَدْ كَانَ لَكُم فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ. (الأحزاب: ٢١).

وَأُوْلِى الأَمْرِ مِنكُم. من الولاة والرؤساء والعلماء وغيرهم.

جاء فى تفسير المراغى:

وهذه الآية مبينة لأصول الدين فى الحكومة الإسلامية وهى:

١ – الأصل الأول: القرآن الكريم والعمل به؛ طاعة الله تعالى.

٢ – الأصل الثانى: سنة رسوله ﷺ، والعمل به؛ طاعة الرسول ﷺ.

٣ – الأصل الثالث: إجماع أولى الأمر وهم أهل الحل والعقد الذين تثق بهم الأمة من العلماء والرؤساء فى الجيش والمصالح العامة كالتجار، والصناع، والزراع، ورؤساء العمال، ومديرى الصحف، ورؤساء تحريرها، ورجال الأحزاب ممن تثق بهم الأمة.

٤ – الأصل الرابع: عرض المسائل المتنازع فيها على القواعد والأحكام العامة فى الكتاب والسنة، وهذه سبيلها الاجتهاد والرد إلى الله والرسول وذلك هو القياس.

فهذه الأربعة الأصول هى مصادر الشريعة، ولابد من وجود جماعة يقومون بعرض المسائل المتنازع فيها على الكتاب والسنة والاجتهاد وتحرى الصواب والحكم بما يرونه موافقا لروح الكتاب والسنة.

ويجب على الحكام الحكم بما يقرُونه.

وبذلك تكون الدولة الإسلامية مؤلفة من جماعتين:

الأولى: الجماعة المبينة للأحكام الذين يسمون الآن: (الهيئة التشريعية).

الثانية: جماعة الحاكمين والمنفذين وهم الذين يسمون: (الهيئة التنفيذية).

فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ. أى: إن اختلفتم فى شيء لم يرد فيه نص صريح فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله؛ فارجعوه إلى هذين الأصلين وليكن حكمكم فيه بالقياس على ما يشبهه من الأمور وبذلك فتح القرآن للمسلمين باب الفهم والبحث والاجتهاد.

وقد سأل رسول الله ﷺ معاذا حين أرسله قاضيا: ما تصنع إن عرض لك قضاء؟

قال للرسول: أقضى بكتاب الله.

قال الرسول: فإن لم تجد؟

قال معاذ: أقضى بسنة رسول الله.

قال الرسول: فإن لم تجد؟

قال معاذ: أجتهد رأيى ولا آلو.

فقال الرسول ﷺ: الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى الله ورسوله[١١].

إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ. أى: ردوا الشيء المتنازع فيه إلى الله ورسوله بعرضه على الكتاب والسنة. ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً. أى: الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله خير لكم وأصلح وأحسن عاقبة ومآلا.

★ ★ ★

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾

المفردات:

الطاغوت: الطاغوت في الأصل: كثير الطغيان، ويطلق على كل رأس في الضلال، يصرف عن الخير، ويغرى بالشر.

يصدون: يعرضون.

وعظهم: خوفهم.

وقل لهم فى أنفسهم: أي: واعظا لهم - بينك وبينهم - ليكون أدعى للقبول، أو فى شأن أنفسهم: كاشفا عن خبثها.

قولا بليغا: مؤثرا واصلا إلى حقيقة المراد.

التفسير:

٦٠ - ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ...﴾

روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه تخاصم يهودى ومنافق، ودعا اليهودى المنافق إلى التحاكم إلى رسول الله ﷺ. ودعاه المنافق إلى التحاكم إلى كعب بن الأشرف... فنزلت الآية.

والمعنى: ألم ينته علمك يا محمد، إلى هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بالقرآن وبالكتب التى أنزلت على من قبلك من الرسل؟!

إن شأن هؤلاء لعجيب؛ لأنهم - مع زعمهم الإيمان بذلك - يريدون أن يتخذوا من كاهن

اليهود – رأس الضلال – حاكما فى قضاياهم. وقد أمرهم الله أن يكفروا بمن يدعوهم إلى الشر ويبعدهم عن الخير ويريد الشيطان أن يوقعهم فى ضلال بعيد، لا خلاص لهم منه باتباعهم دعاة الشر.

٦١ – وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا. أى: ومن عجيب أمر هؤلاء المنافقين: أنهم إذا دعوا إلى التحاكم إلى كتاب الله تعالى وإلى رسوله ﷺ، أصروا على الكفر، وأعرضوا عما تدعوهم إليه إعراضا شديدا.

٦٢ – فَكَيْفَ إِذَآ أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا.

هذا بيان لسوء عاقبتهم جزاء جناياتهم ومخالفتهم، وتعجيب من حالهم.

أى: فيا عجبا ... كيف يكون حال هؤلاء المنافقين – وقت نزول المصائب بهم – بسبب ذنوبهم! ثم جاءوك ملتجئين إليك فى ذلك، يعتذرون عن قبائح أعمالهم، ويحلفون بالله ما أردنا بذهابنا إلى غيرك، وتحاكمنا إلى من عداك إلا الإحسان والتوفيق. أى: المداراة والمصانعة. لا اعتقاد منا صحة تلك الحكومة. كما أخبر الله عنها بقوله: فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِى أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ. (المائدة:٥٢).

٦٣ – أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِى أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا.

أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِم . أى: أولئك هم المنافقون الموغلون فى الكفر والنفاق، الذين لا يخفى على الله أمرهم، ويعلم ما انطوت عليه صدورهم من الشر والفساد، وسيجزيهم على ذلك.

فَأَعْرِضْ عَنْهُم وَعِظْهُم . أى: أعرض عن قبول معذرتهم وازجرهم عما فى قلوبهم من الكيد والنفاق.

وَقُل لَّهُمْ فِى أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا . أى: انصحهم – فيما بينك وبينهم بعيدًا عن الناس – ليكون ذلك أدعى إلى قبولهم – بكلام بليغ رادع لهم. أو قل لهم. فى شأن أنفسهم وما انطوت عليه من الخبث والقبائح: قولا مؤثرا يردهم عن غيهم، ويعود بهم إلى رشدهم.

★ ★ ★

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾

المفردات:

فلا وربك: اللام لتأكيد القسم.

شجر بينهم: اختلط عليهم من الأمور.

حرجا: ضيقا.

٦٤ – **وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ... الآية.** أى: وما أرسلنا رسولا من الرسل، لأمر من الأمور، إلا ليطيعه الناس بسبب إذنه تعالى لهم فى طاعته، وأمره لهم بأن يتبعوه، فإن طاعة الرسول طاعة لله. **مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ.** (النساء: ٨٠).

وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَروا اللَّه واسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ.

فى هذا بيان لما كان يجب عليهم أن يفعلوه حين ظلموا أنفسهم. أى: ولو إنهم حين ظلموا أنفسهم – بترك طاعة الله تعالى – بادروا بالمجىء إليك معتذرين عن جرائمهم، مبالغين فى التضرع إلى الله، والتوبة إليه من ذنوبهم، حتى تقوم شفيعا لهم إلى ربك، طالبا منه المغفرة لهم.

لَوَجَدُواْ اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا. أى: لو أنهم فعلوا ذلك؛ لوجدوا أبواب التوبة مفتحة لهم، ورحمته تعالى محيطة بهم.

وفى هذه الآية، إرشاد لسائر العصاة والمذنبين، إذا وقع منهم ذنب أو خطيئة أن يبادروا بالتوبة والندم؛ كى يفوزوا بغفران الله لهم.

٦٥ – **فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ... الآية**

روى البخارى بمسنده، قال: خاصم الزبير رجلا فى شْرج[١٢] من الحرة، فقال النبى ﷺ: «اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك» فقال الأنصارى: يارسول الله، لأن كان ابن عمتك؟ فتلوَّن وجه رسول الله ﷺ. ثم قال: «اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك[١٣]،

فاستوفى النبى ﷺ للزبير حقه كاملا فى الحكم، حين أحفظه الأنصارى، وكان أشار عليهما ﷺ بأمر لهما فيه سعة .. قال الزبير: فما أحسب هذه الآية إلا نزلت فى ذلك.

فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ... الآية

لقد أقسم الله - سبحانه - بذاته، وهو الذى تولى تربيتك أيها الرسول، وأنعم عليك بنعمة النبوة، وأدبك بأدب القرآن، أقسم: أن هؤلاء الذين أعرضوا عن التحاكم إليك فيما اختلط عليهم، لا يدخلون فى عداد المؤمنين الصادقين؛ حتى تتحقق فيهم صفات ثلاث:

أولاها: أن يهرعوا إليك - أيها الرسول - لتحكم بينهم فيما اختلط عليهم.

ثانيها: أن ترضى نفوسهم - وتستمر راضية دون حرج أو ضيق - بحكمك وقضائك.

ثالثها: أن يسلموا بحكم رسول الله ﷺ تسليما كاملا، ويذعنوا له إذعانا صادقا، ويقوموا على تنفيذه بنفوس راضية.

★ ★ ★

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٦٨) ﴾

المفردات:

كتبنا: قدرنا.

ما يوعظون به: ما يؤمرون به من طاعة الله.

تثبيتا: تحقيقا لإيمانهم.

التفسير:

٦٦ - وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ... أى: لو فرضنا على هؤلاء المنافقين ما فرضنا على من قبلهم من المشقات، وشددنا التكليف عليهم فأمرناهم بقتل النفس، والخروج من الأوطان كما فرض ذلك على بنى إسرائيل؛ ما استجاب ولا انقاد إلا نفر قليل منهم وهم المخلصون من المؤمنين.

وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا. أى: ولو أنهم فعلوا ما أمروا به، وتركوا ما نهوا عنه؛ لكان ذلك خيرا لهم فى مصالحهم، وأشد تثبيتا لهم فى إيمانهم؛ إذ الأعمال هى التى تطبع الأخلاق والفضائل فى نفس العامل، فالصلاة والزكاة والصدقة والعفة كلها تثبت الإيمان وتنمى الشخصية.

٦٧ – وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا.

وإذا قاموا بحق التكليف الإلهى الذى يكون فى وسعهم؛ لأعطاهم الله على ذلك الثواب العظيم، والتوفيق والهدى الذى يوصلهم إلى جنة النعيم.

٦٨ – وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا.

ولهديناهم إلى طريق العمل الصالح على الوجه المرضى الموصل إلى الفوز بالسعادة فى الدنيا والآخرة، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين.

★ ★ ★

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾

المفردات:

أنعم الله عليهم: تفضل الله عليهم بنعمه.

رفيقا: مرافقا ومؤنسا.

التفسير:

٦٩ – وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ .

ومن يعمل بما أمره الله به ورسوله، ويتجنب ما نهى الله عنه ورسوله؛ فهو مع الذين أنعم الله عليهم بالهداية والتوفيق فى الدنيا والآخرة من أنبيائه؛ وأتباعهم الذين صدقوهم، واتبعوا مناهجهم والشهداء فى سبيل الله، والصالحين الذين صلحت سريرتهم وعلانيتهم ونعمت رفقة هؤلاء وصحبتهم وحسن رفيق أولئك الأبرار!

٧٠ - ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا. تلك المنزلة العظيمة لمن أطاع الله ورسوله هى الفضل الكبير من الله وهو عليم بالأعمال ومثيب عليها. وكفى به سبحانه وتعالى مجازيا لمن أطاع، عالما بمن يستحق الفضل والإحسان.

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾

المفردات:

حِذْركم: الحِذْر والحذَر بمعنى واحد وهو: التيقظ والاستعداد والمراد: احترسوا واستعدوا.

فانفروا: النفر: الانزعاج عن الشيء وإلى الشيء والمراد: اخرجوا إلى الجهاد.

ثبات: جمع ثبة وهى الجماعة أى: اخرجوا جماعة تلو جماعة.

ليبطئن: ليثبطن غيره عن القتال أو ليبطئن هو أى: يتباطأ.

التفسير:

٧١ - يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ... الآية

يأيها الذين آمنوا، خذوا حذركم واحترسوا من عدوكم، واستعدوا دائما لملاقاته؛ فإنّ الاستعداد له قد يمنع الحرب، ويكون بتنظيم الجيوش وإعداد العدة المناسبة فى كل عصر وحين، وبث العيون (المخابرات والجواسيس) ودراسة حاله وبلده وطرقه ... إلخ. مما هو معروف فى الأصول الحربية، وإذا أخذتم حذركم؛ فاخرجوا إليه جماعات إن اقتضى الحال ذلك وإلا فأعلنوا التعبئة العامة واخرجوا إليه مجتمعين وفى هذا إشارة إلى تنظيم الأمة عسكريا، وتعليم شبابها الفنون العسكرية حتى إذا دعا داعى الوطن وجدنا الكل يحمل السلاح، أما الجبهة الداخلية فلا تخلو أمة من الأمم من الجبناء الرعاديد والمنافقين الذين يثبطون الهمم، ويعوّقون عن القتال، ويقعدون عنه لفرط حبّهم للدنيا وانخلاع قلوبهم من الحرب؛ لضعف إيمانهم وخور عزيمتهم فاعرفوهم وعالجوا ضعفهم ولذا يقول القرآن:

٧٢ - وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ ... الآية. وإن منكم لجماعة يثبطون الهمم ويقعدون عن الحرب فإن أصابتكم مصيبة فى الحرب كالهزيمة أو القتل مثلا قالوا: قد أنعم الله علينا وتفضل حيث لم نكن معكم.

٧٣ - وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَمْ تَكُن بَيْنَكُمْ مَوَدَّةٌ ... الآية. ولئن أصابكم فضل من الله وانتصار على العدو قالوا: يا ليتنا كنا معكم فأخذنا نصيبنا من الغنيمة، كأنه لم تكن بينكم وبينهم مودة وصلة إذ الصلة والمودة التى يظهرونها تقتضى أن يكونوا معكم فى السراء والضراء، والله أعلم بقلوبهم وما عندهم من الحسد والحقد، ولكنه سُمِّى مودة؛ تهكما بهم وبحالهم.

★ ★ ★

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾

المفردات:

يشرون: يبيعون؛ لأن شرى: من كلمات الأضداد.

والمستضعفين: المستذلين وهى معطوفة على فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

الولدان: جمع وليد وهو الصبى، أو العبد.

وليا: مُعينًا.

الطاغوت: فى الأصل كثير الطغيان، ويطلق على كل رأس في الضلال، وقيل: الشيطان.

التفسير:

٧٤ - فَلْيُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ...

كان القرآن ينزل فى أعقاب غزوة أحد يأسو جراح المؤمنين، ويبارك جهاد المجاهدين، ويبين أن الأيام دول، وأن المؤمن يمتحن ويبتلى ولكن العاقبة للمتقين.

ورد في الآيتين السابقتين ذكر القرآن طائفة من المنافقين تبطئ عن الجهاد، وتثبط المؤمنين عنه، فإذا انهزم المؤمنون؛ فرحوا وشمتوا وإذا انتصر المؤمنون ندموا على تخلفهم عن القتال؛ لحرمانهم من الغنائم.

وفي هذه الآيات يأمر الله المؤمنين بالقتال في سبيله، والأمر موجه إلى من باعوا الحياة الدنيا؛ طلبا لثواب الآخرة. وجادوا بأنفسهم وأموالهم في سبيل إعلاء كلمة الله؛ وتقدير الكلام: إذا تباطأ المنافقون عن الجهاد؛ فليُسرع إليه المؤمنون الصادقون.

جاء في ظلال القرآن:

«إن المسلم لا يقاتل لمجد شخصي، ولا لمجد بيت، ولا لمجد طبقة، ولا لمجد دولة، ولا لمجد أمة، ولا لمجد جنس، إنما يقاتل في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله في الأرض، ولتمكين منهجه من تصريف الحياة»[١٤].

وحين يخرج المسلم ليقاتل في سبيل الله بقصد إعلاء كلمة الله، وتمكين منهجه في الحياة، ثم يُقتل؛ يكون شهيدًا، فينال مقام الشهداء عند الله، فإذا انتصر على العدوّ كان له ثمرة النصر، وجزاؤه الغنيمة في الدنيا، والأجر العظيم في الآخرة.

وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا.

والمقاتل في سبيل الله بين غايتين: الاستشهاد في سبيل الله، أو النصر على الأعداء، ولا ذكر للهزيمة في الآية الكريمة؛ لأن المؤمن المجاهد لا يرْتدُّ على عقبيه، ولا يستسلم للهزيمة بأي حال.

جاء في تفسير القرطبي في هذه الآية ثلاث مسائل منها:

المسألة الثالثة: ظاهر الآية يقتضي التسوية بين من قتل شهيدًا أو انقلب غانما، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهادٌ في سبيلي، وإيمان بي، وتصديق برسلي، فهو على ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلا ما نال من أجر وغنيمة أو أجر إن لم يغنم»[١٥].

٧٥ - وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا.

يستنهض القرآن همم المسلمين في المدينة؛ للدفاع عن المستضعفين المستذلين بمكة، الذين يتعرضون لأنواع العذاب والنكال، وهم ضعفاء لا يستطيعون مقاومة المعتدين.

والمعنى: أى شيء لكم حتى لا تقاتلوا؟! أى لا عذر لكم فى ترك القتال فالاستفهام فى الآية الكريمة، لإنكار واستقباح التخلف عن الجهاد فى سبيل الله، وفى سبيل إنقاذ المستضعفين من الشيوخ الكبار، والنساء، والأطفال.

جاء فى ظلال القرآن:

ومشهد المرأة الكسيرة والولد الضعيف، مشهد مؤثر مثير، لا يقل عنه مشهد الشيوخ الذين لا يملكون أن يدفعوا – وبخاصة حين يكون الدفع عن الدين والعقيدة – وهذا المشهد كله معروض فى مجال الدعوة إلى الجهاد؛ وهو وحده يكفى؛ لذلك يستنكر القعود عن الاستجابة لهذه الصرخات. وهو أسلوب عميق الوقع. بعيد الغور فى مسارب الشعور والإحساس(١٦).

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾. أى: لا عذر لكم فى ترك القتال؛ لتخليص المستضعفين، الذين عذبهم المشركون بمكة، فاتجهوا إلى الله عز وجل ضارعين قائلين: اللهم ربنا، هيئ لنا الخروج من مكة، والهجرة منها؛ فرارًا بديننا، من أهلها الطغاة الظالمين، وهيئ لنا بفضلك وليا، يتولى أمورنا ويحمينا منهم، وهيئ لنا من عندك من ينصرنا عليهم.

أخرج البخارى عن ابن عباس قال: كنت أنا وأمّى من المستضعفين. فهى من النساء، وهو من الولدان(١٧).

وعن مجاهد قال: أمر المؤمنون أن يقاتلوا عن مستضعفين مؤمنين كانوا بمكة ونسبة الظلم إلى أهل مكة، تشريف لها عن نسبة الظلم إليها، فهو مقصور على أهلها المشركين.

٧٦ – ﴿الَّذِينَ ءامَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَآءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

لقد وضّح القرآن المنهج ورسم طريق العقيدة السليمة من الإيمان بالله، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه؛ كما ربّى القرآن المسلمين تربية إسلامية، فرعى يقينهم ووجدانهم، وضميرهم وقلبهم وعقلهم، وقدّم لهم غذاء العقيدة بالقصص والمشاهد، وأخبار القيامة والبعث والجزاء؛ فنشأ المؤمنون نشأة متكاملة؛ كأنهم خلقوا من جديد بالعقيدة والإيمان والإسلام، وحين بدأ القتال اكتسح الإسلام الأعداء، بقوة لم يعرف لها التاريخ مثيلا.

فمعارك الإسلام فى الجزيرة العربية: فى بدر، وأحد، والخندق، والحديبية، وفتح مكة، وغزوة حنين، والطائف، وغزوة تبوك، كتب فيها النصر للقلة المؤمنة على الكثرة الكافرة.

وقل مثل ذلك فى انتصار الإسلام على الفرس والروم ومصر، بل لقد انتصر الإسلام بالفكرة والعقيدة فى بلاد كثيرة، وهناك انتصار آخر هو انتصار اللغة العربية بحيث صار العلماء فى البلاد التى فتحها الإسلام يعتنقون الإسلام طوعا واختيارًا، ويدرسون بهذه اللغة، ويقدمون للبشرية نتاج أفكارهم، وما كان للغة العربية هذا المجد قبل الإسلام، لكن القرآن والوحى، والحديث النبوى، والتراث الإسلامى؛ كل هؤلاء أخصَبُوا اللغة العربية؛ حتى سماها بعض الباحثين: اللغة الإسلامية.

الَّذِينَ ءامَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّه . . .

قال الزمخشرى:

رغب الله المؤمنين ترغيبا وشجعهم تشجيعا، بإخبارهم أنهم إنما يقاتلون فى سبيل الله؛ فهو وليهم وناصرهم، وأعداؤهم يقاتلون فى سبيل الشيطان؛ فلا ولى لهم إلا الشيطان، وكيد الشيطان للمؤمنين، إلى جنب كيد الله للكافرين، أضعف شىء وأوهنه[١٨].

وتبقى الآية على جلالها ترسم حقيقة واقعية.

الَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّه. تحت راية الله فهم جند يقاتلون من أجل منهج الله ودين الله.

وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوت . أى:فى سبيل الطغيان والاستعلاء، وشتان بين من يقاتل فى سبيل الحق والعدل، والمبادئ والمثل العليا، ومن يقاتل عدوانا وظلما، وتمكينا للطغاة الجبارين، وفى آخر الآية دعوة إلى جهاد الشيطان والانتصار عليه وعلى أتباعه.

جاء فى تفسير القرطبى:

الطَّاغُوت . يذكّر ويؤنث، والطاغوت هو الشيطان والدليل على ذلك قوله تعالى:

فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا . أى: مكره ومكر من اتبعه، ويقال: أراد به يوم بدر حين قال للمشركين: **لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُم.** (الأنفال: ٤٨).

★ ★ ★

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩) مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) ﴾

المفردات:

كفوا أيديكم: اقبضوها وامنعوها عن القتال

متاع الدنيا: ما يتمتع به من زخرفها وزينتها ولذائذها .

فتيلا: الفتيل: الخيط الموجود في شق النواة، يضرب به المثل في القلة والحقارة .

بروج مشيدة: حصون مرتفعة منيعة محكمة .

يفقهون: يفهمون فهما دقيقا .

شهيدا: شاهدًا على صدق رسالتك، أو مطلعا بصيرًا .

تولى: أعرض .

حفيظا: رقيبًا، أو مسيطرًا.

التفسير:

٧٧- **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَءَاتُواْ الزَّكَاةَ ...** الآية. روى ابن أبى حاتم بسنده. عن ابن عباس، أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابًا له أتوا النبى ﷺ بمكة، فقالوا: يا نبى الله، كنا فى عِزَّةٍ ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة، قال: «إنى أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم» . فلما

حوله الله إلى المدينة ، أمره بالقتال فكفوا ، فأنزل الله: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ .... [١٩]
أى: ألم ينته إلى علمك – يامحمد – حال أولئك الذين كانوا يتمنون القتال – وهم بمكة – قبل أن يأذن رسول الله ﷺ لهم فيه؛ رغبة فى التخلص من إيذاء المشركين المستمر لهم ؟!

وكان رسول الله ﷺ ، يستمهلهم ويقول لهم – وهم بمكة – : كفوا أيدكم عن قتال المشركين حتى يأذن الله فيه، وتفرغوا لتطهير أنفسكم وتزكيتها: بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة [٢٠] ، وإعدادها للجهاد حين يأذن الله به فيه ؟!

والاستفهام لتعجيب رسول الله ﷺ ، ومن معه ، وكل من يتأتى منه ذلك إلى يوم القيامة – تعجيب لهم – من حال هؤلاء الذين تحدثت الآية عن شأنهم . فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً . أى: فلما فرض الله القتال على المؤمنين – بعد الهجرة – استولى الخوف على الكفار – على نفوس فريق منهم، وهم المنافقون، وتهيبوا قتال الناس خشية القتل أو الأسر، وملأ الرعب قلوبهم فأصبحوا يخافون قتال الكفار كخوف المتقين من الله . بل أصبح خوفهم من الناس أشد من خوف المتقين من ربهم.

وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ. أى: وقالوا – فى ضيق ورعب وجزع من الموت – : يا ربنا، لم فرضت علينا القتال؟! هلا أخرت فرضه علينا إلى مدة قريبة؟! حبا فى التمتع بالدنيا . والمدة القريبة غير محدودة فهى – عندهم – انتهاء آجالهم دون قتال أو: يا ربنا، هلا زدتنا فى مدة الكف إلى وقت آخر ، قابل للتجديد؟! حذرا من الموت، وهربا من الجهاد؛ فقال الله لرسوله ﷺ: قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ...

متاع الدنيا كله قليل، فما بال أيام أو أسابيع أو شهور أو سنين؟! وما قيمة هذا الإمهال لأجل قصير، إذا كان متاع الحياة الدنيا بطولها فى جملته قليلا؟! ما الذى يملكون تحقيقه من المتاع فى أيام أو أسابيع أو شهور أو سنين ، ومتاع الدنيا كله ، والدنيا بطولها قليل ؟!

وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى. أى: وثواب الآخرة خير لكم من المتاع القليل، لمن اتقى الله، ولم يخش إلا الله، وتأتى التقوى هنا فى موضعها للمقابلة بين من يخاف الناس ومن يخاف الله، فالذى يخاف الله لا يخاف الناس، والإنسان لا يملك لك نفعا أو ضرا إلا بإذن الله .

وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا . والفتيل: الخيط الموجود فى شق النواة؛ أى: إن الله هو الذى يجازى الأتقياء جزاء الكريم العليم ، ولا ينقصون من أجورهم شيئا مهما كان قليلا، قال تعالى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة: ٧، ٨)

٧٨- أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ... هذه الآية تقرر قاعدة عامة، وإن كان المراد بها المنافقين، أو ضعفة المؤمنين، الذين قالوا : لَوْلاَ أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ. أى: إلى أن نموت بآجالنا[٢١] .

والمعنى: فى أىّ مكان تكونون فيه – فى ساحة القتال، أو بين أهليكم مواطن أمنكم، أو خوفكم، سينزل بكم الموت عند انتهاء آجالكم، ولو كنتم فى حصون منيعة أو قصور عالية .

جاء فى تفسير القرطبى:

قال ابن عباس: البروج: الحصون والآطام والقلاع، ومعنى مشيَّدة: مطوّلة أو محصنة بالشِّد وهو الجصّ، والمُشيَّد والمَشِيد سواء، ومنه: وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (الحج: ٤٥)، وفى هذه الآية تأنيب للجبناء أو المنافقين، الذين ضاقوا بما فرض الله عليهم من القتال، وإبراز لحماقة تفكيرهم، فإن الجبن لا يطيل عمرًا وإنما يجلب ذلا، والشجاعة لا تنقص أجلاً وإنما تورث عزًّا .

وإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ .

هذا بيان لنقيصة أخرى من نقائصهم، فهم يتطيرون بالنبى ﷺ فيظنونه – حاشاه – شؤما عليهم أو هم يريدون عامدين تجريح قيادة الرسول ﷺ؛ تخلصا من التكاليف التى يأمرهم بها.

فقد كانوا يقولون: إذا حلت بهم نعمة، من سعة فى الرزق، وكثرة فى الأموال والأولاد، هذا الذى أصابنا من النعم من عند الله، قالوا ذلك، لا عن إيمان بالله، واعتراف بفضله، بل قالوه؛ تهوينا لشأن النبى ﷺ، وإشارة إلى أنه لا يأتيهم بخير، يدل على ذلك ما حكاه القرآن عنهم بقوله:

وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ . أى: وإن يصبهم جدب وقحط، ونقص فى الأموال والأولاد ونحو ذلك؛ قالوا: أصابنا ذلك بشؤمك الذى لحقنا ...

قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ . إن الله هو الفاعل الأول، والفاعل الأوحد، لكل ما يقع فى الكون وما يقع للناس، فهو وحده الذى يملك النفع والضرّ ولا يقع فى ملكه إلاّ ما يريد .

فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا . فما شأن هؤلاء القوم؟ وماذا أصاب عقولهم، حتى أصبحوا بعيدين عن الفهم والإدراك لما يسمعون ولما يقولون، ولا يفهمون أن كلا من الخير والشر من عند الله وحده، وأن الله هو الباسط القابض وكل ذلك صادر عن حكمة وصواب .

٧٩- مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ... الآية

قررت الآية السابقة أن كل ما يقع فى الكون فهو بإرادة الله العليا، وقضائه وقدره .

ونحن نؤمن بالقضاء والقدر، ونؤمن بأن بيد الله الخلق والأمر ، ومع هذا فإن للعبد كسبا واختيارا، وإرادة محدودة مسئولة. والجمع بين إرادة الله ، وإرادة العبد يحتاج إلى شيء من الانحناء والتسليم .

فبالنسبة لأحداث الكون كلها فهي من عند الله، وبحكمته وبالنسبة لأعمال الإنسان، فهو إذا اختار طريق الهدى؛ أعانه الله عليه وسدد خطاه، وإذا اختار طريق الضلال؛ سلب الله عنه الهدى، ووكله إلى نفسه فكان هو السبب فيما يصيبه من بلاء في الدنيا أو عذاب في الآخرة .

فالآية الثانية مختلفة عن الآية الأولى:

الآية الأولى: تشير إلى أن كل ما يقع في الكون بإذن الله ، والآية الثانية: تشير إلى أن العبد إذا أطاع الله؛ أيده الله بتوفيقه، وإذا عصاه؛ وكله الله إلى نفسه.

قال الزمخشري:

مَّا أَصَابَكَ يا إنسان: خطابًا عامًا **مِنْ حَسَنَةٍ** . أي: من نعمة وإحسان **فَمِنَ اللَّهِ**. تفضيلاً منه وإحسانًا وامتنانًا وامتحانًا .

وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ . أي: من بلية ومصيبة فمن عندك؛ لأنك السبب فيها بما اكتسبت يداك، **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ** . (الشورى: ٣٠) وعن عائشة رضى الله عنا: «ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها، حتى انقطاع شسع نعله إلا بذنب وما يعفو الله أكثر »[٢٢] .

وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً . أي: رسولاً للناس جميعًا لست برسول العرب وحدهم أنت رسول العرب والعجم، كقوله تعالى: **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ** . (سبإ: ٢٨) وقال تعالى: **قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** . (الأعراف: ١٥٨).

وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا. على صدق رسالتك، وأنك أبلغت ما أنزل الله عليك، وأديت واجبك أكمل أداء، بإخلاص ويقين: تبشر الناس وتنذرهم، والله تعالى خير شهيد على ذلك .

وفي تقرير رسالته ﷺ تطمين لقلبه، وتقوية لعزمه، كما أن فيه زيادة كبت لهم، وتأكيد لجهلهم، وعدم فقههم .

٨٠- مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا .

أرسل الله رسوله محمدًا ﷺ على حين فترة من الرسل فختم به الرسالات، وأنزل عليه وحي السماء، وجعل طاعة الرسول فيما يبلغه عن ربه واجبة؛ لأن طاعته طاعة لوحي الله وأمر الله، قال تعالى: **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى** . (النجم: ٣ ، ٤).

فليس لمسلم أن يخالف الرسول فيما يبلغه عن ربه، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. (النور: ٦٣) .

وأما ما رآه الرسول من الأمور الخارجة عن دائرة التبليغ والرسالة، مما هو خاص بشئون الدنيا، فليست أوامر، بل إرشادات، ولذا راجعه المسلمون فى بعض الآراء، كما حدث فى تأبير النخيل فرجع ﷺ ونزل على رأيهم [٢٣] وقال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[٢٤] رواه مسلم .

وجاء فى تفسير ابن كثير:

يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ، بأن من أطاعه فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، وما ذاك إلاّ لأنه ما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى. قال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله تعالى على وعلى آله وسلم: «من أطاعنى فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعنى، ومن عصى الأمير فقد عصاني» [٢٥] وهذا الحديث ثابت فى الصحيحين عن الأعمش .

﴿وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ . ومن أعرض عن طاعتك، وعن اتباع الحق الذى جئت به؛ فاترك أمره إلينا فسنجازيه – فإنما أرسلناك مبلغًا ولم نبعثك مسيطرًا ولا رقيبا على أعمالهم قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ . (الغاشية: ٢١، ٢٢) .

وفى الحديث «ومن يطع الله ورسوله؛ فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله؛ فإنه لا يضرّ إلا نفسه».

★ ★ ★

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾

المفردات:

برزوا من عندك : خرجوا من مجلسك ظاهرين .

بيت طائفة : دبَّروا ليلا أو في السر. في أى وقت من ليل أو نهار .

يتدبرون القرآن : يتأملون فيه، ويتفكرن في معناه .

اختلافا كثيرًا : تناقضا فى معانيه، وتبيانا في نظمه .

التفسير:

٨١- وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ... الآية

تحكى هذه الآية شأنًا آخر من شئون المنافقين، يعتمد على الختل والتلوّن والتستّر وعدم المواجهة بالحقيقة، فهم أمام النبى ﷺ يظهرون الطاعة والامتثال والموافقة بألسنتهم، فإذا انصرفوا من مجلسه وذهبوا بعيدًا عنه .

بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ . قال ابن كثير: أى: استسروا ليلا فيما بينهم بغير ما أظهروه .

وفى التفسير الوسيط:

دبّر زعماؤهم فى السرّ – فى الليل أو النهار – مخالفة أمره ﷺ، ونقض الذى قالوه بألسنتهم فى مجلسه معتقدين أنّ هذا التدبير الخفىّ لن يعلمه الرسول ﷺ، وفاتهم أن الله يعلم كل ما يتآمرون عليه، وقد سجّله عليهم وأنه سيكشفه لرسوله ﷺ، وأنه سيعاقبهم على هذا النفاق – فى الآخرة – أشد العقاب، كما ينبئ عنه قوله تعالى: وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ .

أى: يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكاتبين الذين هم موكلون بالعباد، والمعنى فى هذا التهديد بالجزاء والعقاب .

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ . أى: اصفح عنهم ولا تؤاخذهم، ولا تكشف أمورهم للناس، ولا تأبه بهم ولا بمؤامراتهم؛ وفوض أمرك إلى الله وحده يكفك أمرهم .

وقال تعالى: وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ . (الطلاق: ٣) .

وليس معنى التوكل على الله، أن يترك الإنسان الأخذ بالأسباب، فهذا هو التواكل وهو مذموم، وإنما المراد به الأخذ بالأسباب، مع تفويض الأمر إلى الله والاعتماد عليه، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً . أى: كفى به وليًا وناصرًا ومعينًا لمن توكل عليه وأناب إليه .

٨٢- أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا . التدبر: التفكير والتأمّل فى المعنى .

وتثبت هذه الآية أن القرآن لم يصل إلى شغاف قلوبهم، وإنما قرءوه بألسنتهم، وتطالبهم الآية أن يتدبروه بيقظة وانتباه، وتحضهم على التأمل فيه.

والمعنى: أيعرض هؤلاء المنافقون عن القرآن، فلا يتأملون فيه، ليعلموا أنه من عند الله؟!

فلو تدبروه؛ لأيقنوا أنه من عند الله لا من عند غيره؛ لأن طاقة البشر لا تستطيع الإتيان بهذا الكمال، فى بيان العقائد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، والإخبار الصادق عن الماضى والمستقبل، وعالم الغيب وما يجرى فيه .. كل ذلك فى أسلوب بديع متقن بالغ الغاية فى الكمال والتحدى .

إن العلوم التى تقوم على التجارب قد تنقض اليوم، ما أبرمته بالأمس، وتهدم غدًا ما بنته اليوم .

وفى كتاب للمستشرق: موريس بوكاى بعنوان: (التوراة، والإنجيل، والقرآن فى ضوء العلم) .

أثبت فيه أن العلم قد نقض بعض ما جاء فى التوراة عن بدء الخليقة، وحادث الطوفان، وغير ذلك. كما نقض العلم بعض ما جاء فى الأناجيل .

لكن العلم لم ينقض حقيقة واحدة مما جاء فى القرآن الكريم، فقد تكلم القرآن عن حقائق علمية تتصل بالسماء والأرض، والجبال والبحار، والليل والنجوم والشمس والقمر، والحيوان والنبات والإنسان وغير ذلك، ومع تطور العلم تطورًا ملحوظًا فى القرن التاسع عشر، والقرن العشرين الميلاديين، فإن هذا العلم جاء يؤكد صدق القرآن؛ لأن هذا القرآن أنزل على رسول الله ﷺ، وهو أمىّ نشأ بين أمّة أمّية، ولم يكن لديه أجهزة علمية، أو معامل ليكتشف بها هذه الحقائق الكثيرة التى حفل بها القرآن، وقد كان النبى رجلاً عاديًا عازفًا عما عليه قومه، فلما نزل عليه الوحى؛ تفجر فمه بالحكمة فى قواعد الإيمان، والأخلاق والسلوك، والتشريع والقضاء ونظام الحكم، والعقوبات، والعبادات، والمعاملات .

فدل ذلك على أن هذا الوحى ليس من صنع محمد، وإنما هو تنزيل من حكيم حميد .

وقد تحدى العربَ أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة واحدة، وطالت مدة التحدى، مع وجود الحافز والباعث لهؤلاء الكفار، أن يبطلوا حجته فقد قاتلوه وقاتلهم، وأفنوا الأموال والأعداد من الرجال فى سبيل القضاء على دعوته، فلو كان فى استطاعتهم أن يأتوا بمثل القرآن لأتوا به، لكن العجز قد لزمهم، وسجَّل القرآن هذا العجز بقوله: **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرءَانِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** . (الإسراء: ٨٨) .

والمعهود فى كبار الأدباء أن تتفاوت آثارهم قوة وضعفًا، وسموًا وضعة، ولا يسلم أحد من هذا وإن كان عبقرى الموهبة رائع البيان .

أما القرآن الكريم فجميع آياته طبقة عليا من البلاغة والبيان، والسلامة من التناقض والاضطراب مع طول مدة نزوله فقد نزل فى ٢٣ عامًا، ومع هذا نجده آية واحدة فى حسن السبك وجمال النظم، وبراعة الاستهلال وتصريف القول ! ؛ فقد حكى عن الأمم السابقة، وساق مشاهد الكون، وتناول أخبار القيامة ومشاهد الآخرة، قال تعالى: **وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا** . (طه: ١١٣)

وقد أورد ابن كثير فى تفسيره ثلاث روايات لحديث ينهى عن الاختلاف والمراء وضرب القرآن بعضه ببعض ومن هذه الروايات ما يأتى:

عن عبد الله بن عمرو قال: هجرت إلى رسول الله ﷺ يومًا، فإنا لجلوس إذا اختلف اثنان فى آية، فارتفعت أصواتهما، فقال: «إنما هلكت الأمم قبلكم؛ باختلافهم فى الكتاب» [٢٦] رواه مسلم والنسائى.

★ ★ ★

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾

المفردات:

أمر : خبر عن سرايا الرسول ﷺ.

الأمن : النصر.

الخوف : الهزيمة.

أذاعوا به : نشروه وأفشوه.

يستنبطونه : يستخرجون حقائقه المستورة الخفية، ومقاصده البعيدة.

التفسير:

٨٣- وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ... الآية

تقدم هذه السورة ألوانا من التربية الإسلامية وآدابها، ومن هذه الآداب: التثبت فى القول، وألا يحدث الإنسان بكل ما يسمع، وألاَّ ينقل الأخبار إلا بعد التيقن من صدقها. روى مسلم عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «كفى بالمرء كذبًا أن يحدِّث بكل ما سمع» [٢٧].

وفى الصحيحين عن المغيرة بن شعبة «أن رسول الله ﷺ نهى عن قيل وقال» [٢٨] أى: الذى يكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبت ولا تدبر ولا تبين.

وفى الصحيح «من حدَّث عنى بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين» [٢٩] وقد نقل ابن كثير فى تفسيره طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة، تدعو المسلمين إلى التثبت فى القول، وعدم نشر الإشاعات والأراجيف، والرجوع إلى الثقات، وإلى أولى الأمر؛ للتثبت من الأخبار، والتيقن من الأمور قبل المشاركة فى إذاعتها وترويجها.

ونلمح أن بعض المنافقين، أو بعض ضعاف النفوس ممن شهوتهم الكلام، كانوا يروِّجون أخبار النصر والأمن، وأخبار الهزيمة والخوف، وهذه الأمور تسهل للعدوّ مهمة التجسس، ومعرفة مواطن الضعف والقوة لدى المسلمين .

وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُم لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ .

فواجب على كل مسلم أن يردّ هذه الأخبار إلى أولى الحلّ والعقد من المسلمين؛ فإنهم هم الذين يستطيعون تقييم هذه الأخبار، وتقدير ما إذا كان من المصلحة العامة للدولة إذاعتها أو كتمانها، كذلك هم – باطّلاعهم على خفايا الأمور – أعرف بصحة تلك الأخبار أو فسادها .

قال ابن كثير:

ونذكر هنا حديث عمر بن الخطاب المتفق على صحته[٣٠]، حين بلغه أن رسول الله ﷺ طلق نساءه، فاستأذن على رسول الله ﷺ، فاستفهمه: أطلقت نساءك ؟ فقال لا، قال عمر: فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلّق رسول الله ﷺ نساءه، ونزلت هذه الآية: وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُم لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ . فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر.

ومعنى يستنبطونه: يستخرجونه من معادنه، يقال: استنبط الرجل العين إذا حفرها واستخرجها من قعورها[٣١] .

والذين يستنبطون الحقائق، هم الذين يطّلعون على خفايا الأمور، أو المراد بهم الذين رجعوا بهذه الأخبار – حينما سمعوها – إلى الرسول وأصحابه، فإنهم يعرفون – عن طريقهم – ما خفى عليهم أمره من هذه الأخبار . وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً .

ولولا حفظ الله لكم، وتثبيته لقلوبكم؛ لوقعتم فيما وقع فيه المنافقون، وضعفاء الإيمان وذوو الغفلة، ولولا رحمة الله بهذه الأمة؛ لضل الكثير من أبنائها، باتباع سبيل الشيطان، ولكان مصيرها الضياع والانهزام، وضعف الثقة فى النفوس .

لكن من عناية الله بهذه الأمة، أن جعل فيها قلة ممتازة، تتميز بقوة العزيمة، وثبات الإيمان، وعدم تصديق الأراجيف أو إذاعتها، وهذه القلة بمثابة الأساس المتين الذى يقوم عليه البناء ويعتمد عليه، ويصح أن يكون المراد بقوله: لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً . إلا فى قليل من أعمالكم .

وبالتأمل فيما تضمنته الآية الكريمة من إرشادات حكيمة، يتضح أن القرآن الكريم، قد سبق جميع النظم الحربية، فى وضع أقوى الوسائل لمواجهة ما يسمى الآن: الحرب النفسية، أو حرب الأعصاب. وهى التى تدير الحرب العسكرية .

★ ★ ★

﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾ ﴾

المفردات:

لا تكلف إلا نفسك : لا تكلف إلا فعل نفسك .

وحرض المؤمنين : وحثهم ورغبتهم .

تنكيلا : تعذيبا وإيلاما .

التفسير:

٨٤ - فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ... الآية

هذه الآية تفريع على ما سبق من بيان حال المنافقين وضعاف الإيمان، وأنهم مُخذِّلون بإذاعتهم ما يسمعون، قبل التثبت من صحته.

وهى أمر من الله تعالى لرسوله، ولكل قائد، وكل قادر على القتال من المؤمنين المخلصين، أن يندفع ولو منفردًا إلى الجهاد فى سبيل الله، عند النفير العام، غير ملتفت إلى المثبطين والمرجفين .

وفى الآية حث على تحمل المسئولية الفردية، وقيام كل فرد بواجبه، وبذلك تتلاحم الصفوف، ويجتمع المسلمون يدًا واحدة، كالبنيان المرصوص .

ويفهم من الآية، أن على القائد أن يتقدم جنده، وأن يضرب لهم المثل بنفسه عمليا، وأن يُحرِّض المؤمنين على الجهاد، ويحثهم عليه، كما فعل رسول الله ﷺ يوم بدر؛ وهو يسوِّى الصفوف، فقد قال لهم: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض» .[٣٢]

وروى مسلم عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا سعيد، من رضى بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ رسولاً ونبيا؛ وجبت له الجنة» .[٣٣]

قال: فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدها علىّ يا رسول الله؛ ففعل، ثم قال رسول الله ﷺ : «وأخرى يرفع الله العبد بها مائة درجة فى الجنة! ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» قال: وما هى يا رسول الله؟ قال : «الجهاد فى سبيل الله» .

عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً . فإذا حرّض القائد جنوده على القتال والجهاد، انبعثت الرغبة فى الشهادة، ولا ريب أن الاستعداد للحرب وأخذ العدّة والتأهب للقتال،

من شأنه أن يلقى الرعب فى قلوب الكفار فيكفُون على التحرُّش بالمسلمين، ولذلك قيل: لا شىء يمنع من الحرب مثل الاستعداد لها .

فإن استعداد المسلمين وأخذهم العُدَّة من شأنه أن يحمل الكفار على التفكير والتروى قبل مواجهة المسلمين، فيتوقفون عن قتالهم، ويكفّ الله بهذا عن المسلمين شرّ قوتهم وشدة بأسهم .

وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً . فهو سبحانة أشد قوة من كل ذى قوة، وأشد تعذيبًا من كل قادر على التعذيب، وهو سبحانه قادر عليهم فى الدنيا والآخرة. قال تعالى: ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُم وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ * يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُم . (محمد : ٤ - ٧)

★ ★ ★

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾

المفردات :

من يشفع شفاعة : الشفع في الأصل: الضم. ومنه الشُّفعة. وهى ضم ملك الشريك . ومن الشفع: الشفاعة. كأن المشفوع له كان فردا، فجعلة الشفيع شفعا. وتطلق الشفاعة على التوسط لإيصال شخص إلى منفعة دنيوية أو أخروية، أو خلوص من مضرة مَّا.

نصيب : النصيب: الحظ، وهو قابل للزيادة ، وأكثر ما يستعمل في الخير .

كِفْل : الكِفْلُ: الوزر والإثم، أو المقدار المساوى، وأكثر ما يستعمل في الشرّ .

مُقيتا : مقتدرا، أو حافظًا وشاهدًا .

حسيبا : محاسبًا ومجازيا، أو كافيًا ، أو حفيظا .

التفسير:

٨٥ – مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا ... الآية

من يسع فى أمر فيترتب عليه خير – لفرد أو جماعة – كان له نصيب من أجر ذلك الخير، الذى ترتب على سعيه .

وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا .. أى: ومن يسع فى أمر فيترتب عليه شر، كان عليه وزر من ذلك الأمر الذى ترتب على سعيه، وهذا عام فى الأمرين.

قال ابن كثير فى تفسيره : (أى من يسع فى أمر فيترتب عليه خير؛ كان له نصيب من ذلك) .

وَمَن يَشْفَع شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا . أى: يكن عليه وزر من ذلك الأمر الذى ترتب على سعيه ونيته كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: «اشفعوا تؤجروا، ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء» [٣٤] .

وقال مجاهد بن جبير: (نزلت هذه الآية فى شفاعات الناس بعضهم لبعض) .

وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا .. أى: مقتدرًا عل مجازاة كل إنسان من المحسنين والمسيئين، بما يستحقه من جزاء، وقال مجاهد: مُّقِيتًا. شهيدًا، حسيبا، وقيل قديرًا وقال الضحاك: المقيت الرزاق .

٨٦– وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا .

حثّ الإسلام على صلة الرحم، وعمل على إشاعة المودة والمحبة والتراحم بين المسلمين، ومن أسباب المودة: إفشاء السلام، وإطعام الطعام، وصلة الأرحام .

روى أبو داود بسنده إلى أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «والذى نفسى بيده ! لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم؛ أفشوا السلام بينكم» [٣٥] .

وردُّ السلام فريضة والزيادة على تطوع، فينبغى أن تردَّ السلام على المسلِّم وأن تزيد عليه .

روى ابن جرير عن سلمان الفارسى قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله؛ فقال: «وعليكم السلام ورحمة الله» ثم جاء آخر فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله؛ فقال رسول الله ﷺ : «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته» ثم جاء آخر فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته؛ فقال له: «وعليك» فقال الرجل : يا نبى الله بأبى أنت وأمى! أتاك فلان وفلان فسلما عليك، فرددت عليهما أكثر مما رددت علىّ، فقال: «إنك لم تدع لنا شيئا، قال الله تعالى: وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا.. فرددناها عليك» [٣٦]. قال ابن كثير: وهكذا رواه ابن أبى حاتم،

وابن مردويه ولم أره فى المسند وفى هذا الحديث دلالة على أنه لا زيادة فى السلام على هذه الصفة: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، إذ لو شرع أكثر من ذلك لزاده رسول الله ﷺ .

وروى الإمام أحمد بن عمران بن حصين: أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: السلام عليكم يا رسول الله؛ فرد عليه السلام ثم جلس فقال: «عشر»، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله يا رسول الله؛ فرد عليه ثم جلس، فقال: «عشرون»، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ فرد عليه السلام، ثم جلس فقال: «ثلاثون» (٣٧) رواه أبو داود والترمذى والنسائى والبزار.

وجاء فى التفسير الوسيط:

والردّ على تحية الإسلام واجب وإنما التخيير بين الزيادة وتركها. ولا يردّ على من سلَّم أثناء الخطبة، وتلاوة القرآن جهرًا، ورواية الحديث، وعند دراسة العلم، وعند الأذان والإقامة. ولا يسلم على لاعب النرد، والشطرنج، والمغنِّى، والقاعد بقضاء حاجته، والعارى فى الحمام.

والسنَّة أن يسلِّم الماشى على القاعد، والراكب على الماشى، وراكب الفرس على راكب الحمار، والصغير على الكبير، والعدد القليل على العدد الكثير، وإذا التقيا بادر كل منهما إلى إلقاء السلام على صاحبه، وخيرهما الذى يبدأ.

وجاء فى تفسير ابن كثير:

عن ابن عباس قال: من سلَّم عليك من خلق الله؛ فاردد عليه وإن كان مجوسيا؛ ذلك بأن الله يقول: فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا..

فأما أهل الذِّمّة فلا يبدءون بالسلام، ولا يزادون بل يردّ عليهم بما ثبت فى الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سلَّم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم السام عليكم فقل: وعليك» (٣٨).

وروى أبو داود بسنده إلى أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «والذى نفسى بيده ! لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم؛ أفشوا السلام بينكم» (٣٩) . ورواه مسلم أيضا.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ... وختمت الآية بما يحرك وجدان المسلم نحو الامتثال والمحافظة، على ما يوطِّد روابط المحبة والمودة بين الناس، والحرص على إفشاء السلام، وعلى ردّ التحية أو الزيادة عليها، وعلى ما يملأ قلب المؤمن خوفا من الله وحذرًا من عقابه، فهو سبحانه سريع الحساب، ولا تخفى عليه خافية. فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة: ٧، ٨)

٨٧- اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا .

اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ . إخبار بتوحيد الله وتفرده بالألوهية لجميع المخلوقات.

لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ. هو الذى يجمع الناس – بعد قيامهم من قبورهم – يوم القيامة ليجازى كلاًّ بما قدمت يداه، وهذا الجمع لا ريب فيه؛ أو هذا اليوم آت لا شك فى مجيئه .

وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا . أى: لا أحد أصدق منه فى حديثه وخبره، ووعده ووعيده، فلا إله إلا هو ولا رب سواه، ولا محدِّث أصدق منه، وحين يدخل أهلُ النار النار، ويدخل أهل الجنة الجنة، يقول الذين اتقوا ربهم: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ. (الزمر: ٧٤).

* * *

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠) ﴾

المفردات :

فئتين : فرقتين .
أركسهم : ردَّهم إلى الكفر ونكَسَهم .
أولياء : أعوانا ونصراء ؛ توالونهم .
ميثاق : عهد .
حصرت صدورهم : ضاقت صدورهم .
اعتزلوكم : تركوا قتالكم .
وألقوا إليكم السلم : وألقوا إليكم الانقياد والاستسلام .

التفسير:

٨٨ – ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ .... تفيد هذه الآية وجود بعض المنافقين خارج المدينة؛ لأن المنافقين داخل المدينة كشفتهم السور المدنية، وذكرت خصالهم، وأمرت المسلمين بمهادنتهم؛ حتى ينكشف أمرهم، وحتى يقطع المسلمون مصادر قوّتهم حيث أخرج المسلمون اليهود من المدينة؛ فضعف أمر المنافقين بعد ذلك .

وقد ورد فى سبب نزول هذه الآية عدة أقوال:

ذكر ابن الجوزى فى كتابه: زاد المسير فى علم التفسير ٢/١٥٢: أن هناك سبعة أقوال فى سبب نزولها، (ويمكن أن نختار أربعة أقوال منها) :

١– أن قوما أسلموا، فأصابهم وباء المدينة وحُمَّاها، فخرجوا فاستقبلهم نفر من المسلمين، فقالوا: ما لكم خرجتم؟ قالوا: أصابنا وباء المدينة، واجتويناها، فقالوا: أما لكم فى رسولة الله أسوة؟ واختلف بشأنهم؛ فقال بعضهم: نافقوا، وقال بعضهم: لم ينافقوا؛ فنزلت هذه الآية .

٢– أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى أحد، ورجع ناس ممن خرج معه، فافترق فيهم أصحاب رسول الله، ففرقة تقول: نقتلهم؛ وفرقة تقول: لا نقتلهم، فنزلت هذه الآية، هذا فى الصحيحين من قول زيد بن ثابت .

٣– أن قوما كانوا بمكة تكلموا بالإسلام، وكانوا يعاونون المشركين فخرجوا من مكة لحاجة لهم، فقال قوم من المسلمين: اخرجوا إليهم، فاقتلوهم، فإنهم يظاهرون عدوكم، وقال قوم: كيف نقتلهم وقد تكلموا بمثل ما تكلمنا به؟! فنزلت هذه الآية .

٤– نزلت هذه الآية فى شأن عبد الله بن أُبَىٍّ؛ حين تكلّم فى عائشة بما تكلم به. رواه ابن جرير الطبرى ٩/١٣ ورجح ابن جرير قول من قال: إنها نزلت فى اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ فى قوم كانوا ارتدوا بعد إسلامهم من أهل مكة .

ونحن نعلم فى قواعد علوم القرآن أنَّه إذا تعددت الروايات فى سبب نزول الآية وبعضها صحيح وبعضها ضعيف أخذنا بالرواية الصحيحة، فإذا كانت الروايات كلها صحيحة وأمكن الجمع بينها؛ حكمنا بتعدد الأسباب والمنزل واحد، فيمكن أن يكون حدث أكثر من سبب أدّى إلى نزول هذه الآية.

والجو العام للسيرة النبوية يؤدى إلى ترجيح ما رجحه ابن جرير الطبرى واختاره الأستاذ سيد قطب فى ظلال القرآن حيث رجح أن الآية نزلت فى منافقين كانوا بعيدين عن المدينة، ولعلَّ بعض المسلمين كانت تربطهم بهم قرابة، أو مشاركة فى تجارة أو منفعة؛ فأراد القرآن أن يضع قاعدة للمسلمين، تؤكد أن الترابط والتعاون والعمل ينبغى أن يتم على أساس العقيدة والإيمان .

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ . والخطاب فى الآية عام لجميع المؤمنين .

والمعنى: لم تختلفون فى القول بكفر هؤلاء المنافقين، وتفترقون فى هذا الأمر فرقتين، وقد ردَّهم الله إلى الكفر، كما كانوا بسبب ما اقترفوه من الاحتيال على رسول الله ﷺ وخديعته، أو معاونة المشركين فى إيذاء المسلمين بمكة، حيث بيَّتوا الشر وأضمروا الردّة ؟

ليس لكم أن تختلفوا فى شأنهم .. بل كان يجب عليكم – أيها المؤمنون – أن تتفقوا على القطع بكفرهم؛ لظهور أدلة هذا الكفر وذلك النفاق .

لقد يسر الله لهؤلاء المنافقين طريق الإيمان الصادق، ولكنهم تنكبوا طريق الصواب، واختاروا الضلالة على الهدى؛ فسلبهم الله معونته وتوفيقه، وردَّهم إلى الكفر بسبب ما عملوا .

وكلمة أَرْكَسَهُمْ فيها أربعة أقوال:

١– ردَّهم . ٢ – ركست الشيء وأركسته: لغتان أى: نكسهم وردهم فى كفرهم .

٣– أوقعهم . ٤– أهلكهم [٤٠] .

فأما الذى كسبوا فهو كفرهم وارتدادهم .

أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ . أى: ترشدوه إلى الثواب بأن يحكم لهم بحكم المؤمنين؛ لأن قوما من المؤمنين قالوا: إخواننا وتكلموا بكلمتنا، فبين القرآن خطأ هذا الاتجاه بعد أن ظهر للعيان نفاقهم.

وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلا ... فإنما يضلُّ الله الظالين، أى: يمدُّ لهم فى الضلالة حين يتجهون هم بجهدهم ونيتهم إلى الضلالة، وعندئذ تغلق فى وجوههم سبل الهداية، بما بعدوا عنها وسلكوا غير طريقها، ونبذوا العون والهدى، وتنكروا لمعالم الطريق [٤١] .

٨٩ – وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ... الآية

يفصح القرآن عن حقيقة مشاعر هؤلاء المنافقين، فهم لم يكتفوا بكفرهم، ورجوعهم إلى الضلال، بل يتمنون أن يقضوا على معالم الحق والإيمان .

والقرآن يلمس مشاعر المؤمنين لمسة قوية، مفزع لهم وهو يقول لهم:وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاءً ... فقد كانوا حديثى عهد بنبْذ الكفر، وتذوّق حلاوة الإيمان، فمن حاول أن يردّهم إلى وهدة الضلال، وظلام الجاهلية؛ وجب أن ينفروا منه، وأن يبعدوا عنه .

فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... أى: إذا كان الأمر كما علمتم؛ فلا تتخذوا من هؤلاء المنافقين أولياء وأصدقاء، حتى يهاجروا من مكة إلى المدينة؛ إخلاصًا لله، وطلبًا لمرضاته.

فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ .. فإن أعرضوا عن الإيمان الصادق، والهجرة الصحيحة، فذلك هو الدليل المادىّ على نفاقهم وخداعهم.. فَأْسِروهم إن قدرتم عليهم، واقتلوهم إذا تمكنتم منهم، فى أى مكان تجدونهم فيه؛ دفعًا لشرّهم، وردًا لكيدهم .

وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا . أى: ولا تجعلوا منهم – فى هذه الحالة – وليًا يتولى شيئا من مهام أموركم، ولا نصيرا تستنصرون به على أعدائكم .

إن الإسلام يتسامح مع أصحاب العقائد المخالفة له؛ فلا يكرههم أبدًا على اعتناق عقيدته، بل ويحافظ على حياتهم وأموالهم ودمائهم، وهو يمتّعهم بخير الوطن الإسلامى، بلا تمييز بينهم وبين أهل الإسلام وهو يدعهم يتحاكمون إلى شريعتهم فى غير ما يتعلق بمسائل النظام العام.

إن الإسلام يتسامح هذا التسامح مع مخالفيه جهارًا نهارًا فى العقيدة، ولكنه لا يتسامح مع من يقولون: إنهم يوحدون الله، ويشهدون بالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، ثم يناصرون أعداء الإسلام، وينضمون إلى معسكر الكافرين؛ لأن فى هذا خداعً للإسلام والمسلمين .

٩٠ – إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ... الآية

استثنى الإسلام من هذا الحكم – حكم الأسر والقتل – لهذا الصنف من المنافقين، الذين يعينون أعداء الإسلام؛ من يلجأون إلى معسكر بينه وبين الجماعة الإسلامية عهد – عهد مهادنة أو عهد ذمة – ففى هذه الحالة يأخذون حكم المعسكر الذى يلتجئون إليه ويتصلون به .

من ذلك نلمح رغبة الإسلام فى السلام والوفاء، واحترام العهود والمواثيق .

فهو يجعل من يلجأ ويتصل ويعيش بين قوم معاهدين – عهد ذمة أو عده هدنة – شأنه شأن القوم المعاهدين يعامل معاملتهم ويسالم مسالمتهم .

أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ ... وهذه فئة تريد أن تقف على الحياد، فيما بين قومهم وبين المسلمين من قتال؛ إذ تضيق صدورهم أن يقاتلوا المسلمين مع قومهم، كما تضيق صدورهم أن يقاتلوا قومهم مع المسلمين؛ فيكفُّوا أيديهم عن الفريقين؛ بسبب هذا التحرج من المساس بهؤلاء أو هؤلاء .

فهؤلاء ليس للمسلمين تسلط عليهم؛ لأن الله كفّ المسلمين عن قتالهم؛ بما ألقى فى قلوبهم من الميل إلى الموادعة .

وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ . أي: ولولا ذلك الذى ألقاه الله فى نفوسهم؛ من الميل إلى الموادعة، والرغبة فى الحياد؛ لكانوا قوة تضاف إلى قوة الأعداء، وتزيد فى آلام المسلمين .

وهكذا يلمس المنهج التربوى الحكيم نفوس المسلمين المتحمسين، الذين قد لا يرضون هذا الموقف من هذا الفريق، يلمسه بما فى هذا الموقف من فضل الله وتدبيره، ومن كفٍّ لجانبٍ من العداء والأذى، كان سيضاعف العبء على عاتق المسلمين (٤٢) .

وجاء فى تفسير القرطبى أن هذه الآية فيها خمس مسائل منها:

المسألة الخامسة: قوله تعالى: وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ .. تسليط الله تعالى المشركين على المؤمنين؛ هو بأن يقدرهم على ذلك ويقوِّيهم، إما عقوبة ونقمة عند إذاعة المنكر وظهور المعاصى، وإما ابتلاء واختبارًا كما قال تعالى: وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ.. (محمد: ٣١)، وإما تمحيصا للذنوب كما قال تعالى: وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ .. (آل عمران: ١٤١) .

ولله أن يفعل ما يشاء، ويسلّط من يشاء على من يشاء إذا شاء، ووجه النظم والاتصال بما قبل: أى: اقتلوا المنافقين الذين اختلفتم فيهم، إلا أن يهاجروا، وإلا أن يتصلوا بمن بينكم وبينهم ميثاق، فيدخلون فيما دخلوا فيه فلهم حكمهم، وإلا الذين جاءوكم، وقد حصرت صدورهم عن أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم، فدخلوا فيكم فلا تقتلوهم (٤٣) .

فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً .. أى: وما دام هؤلاء الذين جاءوكم متحرجين من قتالكم وقتال قومهم، وقد اختاروا العزلة وعدم القتال، وسارعوا إلى السَّلْم والمسالمة فليس لكم عليهم – أيها المسلمون – أى سبيل أو أدنى تسلط .

قال ابن كثير: أى: فليس لكم أن تقاتلوهم ما دامت حالهم كذلك، وهؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بنى هاشم مع المشركين فحضروا القتال وهم كارهون كالعباس ونحوه، ولهذا نهى النبى ﷺ يومئذ عن قتل العباس وأمر بأسره (٤٤) .

★ ★ ★

﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا (٩١) ﴾

المفردات:

أركسوا: انقلبوا.

ثقفتموهم: وجدتموهم.

سلطانا مبينا: حجةً ظاهرة.

التفسير:

٩١ – سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ ... ينبه الله – سبحانه – المسلمين فى هذه الآية الكريمة إلى طائفة أخرى من المنافقين يلقون المسلمين بوجه، ويلقون كفّار قومهم بوجه آخر .. يقصدون بذلك أن يظفروا بالأمن من الجانبين، وهذا الفريق من المنافقين لا يترك قتال المسلمين تحرُّجا، ولكن يتركه مراوغة لتحقيق مآربه.

سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ ...

قال ابن جرير الطبرى: وهؤلاء فريق آخر من المنافقين كانوا يظهرون الإسلام لرسول الله ﷺ وأصحابه؛ ليأمنوا به عندهم من القتل والسباء، وأخذ الأموال، وهم كفار، يعلم ذلك منهم قومهم، إذا لقوهم كانوا معهم، وعبدوا ما يعبدونه من دون الله، ليأمنوهم على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وذراريهم يقول الله:

كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا .... يعنى: كلما دعاهم قومهم إلى الشرك بالله، ارتدوا فصاروا مشركين مثلهم[٤٥].

كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيها ...

أُرْكِسُوا۟ فِيهَا .. أى: انهمكوا فيها والفتنة هنا بمعنى الشرك، حكى ابن جرير عن مجاهد: أنها نزلت فى قوم من أهل مكة كانوا يأتون النبى ﷺ فيسلمون رياءً، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون فى الأوثان، ويعودون إلى عبادة الأصنام، يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا؛ فأمر بقتلهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا[٤٦].

﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّواْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ ... أى: فإن لم يجتنب هؤلاء قتالكم، ويطلبوا الصلح معكم، ويمدُّوا يد السلام والأمن إليكم، ويكفوا شرهم وأذاهم عنكم، ويقفوا موقف الحياد ويعلنوه ـ فخذوهم بالقوة أسرى لديكم، واقتلوهم فى أىِّ مكان تدركونهم وتظفرون بهم عنده، (فإن دماءهم لكم حينئذ حلال)[٤٧] .

﴿وَأُولَائِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ .. والسلطان المبين . أى: وهؤلاء المنافقون: قد جعل الله لكم الحجة الواضحة على جواز أخذهم وقتلهم، بسبب ظهور عدوانهم لكم، وانكشاف حالهم فى الكفر والغدر بكم، والخيانة والكيد لكم .

★ ★ ★

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾

المفردات :

فتحرير رقبة : فعتق رقبة .

يصَّدَّقوا : يتصدقوا بالدية، بالتنازل عنها .

ميثاق : عهد .

خالدًا فيها : ماكثا مكثا طويلاً .

التفسير :

٩٢ ـ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا﴾ .. اى: وما أذن الله لمؤمن ولا أباح له أن يقتل مؤمنًا يقول: ما كان ذلك له فيما جعل له ربّه، وأذن له فيه من الأشياء البتة [٤٨] .

لقد حرص الإسلام على حفظ العقول والأعراض والأموال والأرواح وقد حرم الله قتل النفس. وفى الصحيحين عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «ولا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة» (٤٩).

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا ... أى: وما صح وما استقام لمؤمن صادق الإيمان، فيما أتاه ربّه فى شريعة الإسلام، أن يقتل إنسانًا مؤمنًا بغير حق إلا خطأ.

وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ ... أى: ومن وقع منه القتل الخطأ، فالجواب عليه فى هذه الحالة أن يعتق نفسًا مؤمنة، وأن يؤدى إلى ورثة القتيل دية يقتسمونها كما يقتسمون الميراث، والدية عوض عن دم القتل، وهى مائة من الإبل أو قيمتها بالدراهم أو الدنانير، وقد قدَّرها عمر رضى الله عنه بألف دينار على من يتعاملون بالذهب، واثنى عشر ألف درهم على من يتعاملون بالفضة.

روى أبو داود عن عمر رضى الله عنه: (على أهل الإبل مائة بدنة، وعلى أهل البقر مائتا بقرة، وعلى أهل الشاة ألف شاة، وعلى أهل الحلل مائتا حلة) وتتحمل عشيرة القاتل عنه دفع الدية، فإن لم تكن له عاقلة؛ وجبت على بيت المال، فإن لم يكن فيه؛ وجبت فى مال القاتل، ولا تسقط هذه الدية، إلا فى حال تنازل أهل القتيل عنها، وهذا التنازل نوع من المعروف وكل معروف صدقة (٥٠).

قال تعالى: **إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ**. أى تجب الدية إلا أن يعفو أهل القتيل بالتنازل عنها تطوعًا وصدقة، هذا إذا كان المقتول خطأ مؤمنًا: من قوم مؤمنين.

فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ... أى: فإن كان المقتول خطأ من قوم كفار معادين للمؤمنين – وهو مؤمن – فالواجب فى هذه الحالة، عتق رقبة مؤمنة، وفكاكها من قيد الرق، وإطلاق حريتها؛ كفارة عن هذا القتل الخطإ، ولا دية ... لأَنَّها تعود على أعداء المسلمين المحاربين، ولا يجوز أن يدفع المسلمون أموالهم إلى عدوهم؛ ليتقوى عليهم بسببها، ويحاربهم بها.

روى ابن جرير الطبرى عن قتادة: **فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ**. ولا دية لأهله؛ من أجل أنهم كفار، وليس بينهم وبين الله عهد ولا ذمة.

وعن ابن عباس قال: كان الرجل يُسلم ثم يأتى قومه فيقيم فيهم وهم مشركون، فيمرّ بهم الجيش لرسول الله ﷺ فيُقتل فيمن يُقتل، فيعتق قاتله رقبة ولا دية له.

وقال آخرون: بل عُنى به الرجل من أهل الحرب، يقدم دار الإسلام فيُسلم، ثم يرجع إلى دار الحرب، فإذا مر بهم الجيش من أهل الإسلام هرب قومه، وأقام ذلك المسلم منهم فيها، فقتله المسلمون وهم يحسبونه كافرًا.

روى الطبرى فى رواية أخرى عن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى: فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ. هو المؤمن يكون فى العدوّ من المشركين، يسمعون بالسَّرية من أصحاب محمد ﷺ، فيفرُّون، ويثبت المؤمن فيقتل، ففيه تحرير رقبة مؤمنة (٥١).

والروايات متقاربة فى المعنى، وكلها تثبت معنى الآية أو الفقرة من الآية .

قال ابن كثير:

أى: إذا كان القتيل مؤمنًا ولكن أولياءه من الكفار أهلُ حرب فلا دية لهم، وعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة ولا غير .

وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بينَكمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ... أى: وإن كان المقتول خطأً، من قوم كفار بينكم - أيها المسلمون - وبينهم عهد وميثاق، وليسوا أعداء لكم؛ فالواجب - فى هذه الحالة - المبادرة بأداء دية تسلّم إلى أهل القتيل؛ تعويضًا عن دمه، كما يجب - كذلك - عتق نفس مؤمنة؛ لأن دماء هؤلاء قد عصمت؛ بحكم ما بينهم وبين المسلمين من ذمة وميثاق.

وقد روى ابن جرير الطبرى: أن أهل التأويل اختلفوا فى صفة القتيل الذى هو من قوم بيننا وبينهم ميثاق، أهو مؤمن أو كافر؟ فقال بعضهم: هو كافر إلا أنه لزمت قاتله ديته؛ لأن له ولقومه عهدًا، فوجب أداء ديته إلى قومه؛ للعهد الذى بينهم وبين المؤمنين، وأنَّها مال من أموالهم ولا يحل للمؤمنين شىء من أموالهم بغير طيب أنفسهم، وقال آخرون: بل هو مؤمن فعلى قاتله دية يؤديها إلى قومه من المشركين؛ لأنهم أهل ذمة .

وعلَّق الطبرى على القولين بقوله:

وأولى القولين فى ذلك بتأويل الآية، قوله: من قال عنى بذلك المقتول من أهل العهد (سواء أكان مؤمنًا أم كافرًا) لأن الله أبهم ذلك، ولم يقل وهومؤمن، فكان فى تركه وصفه بالإيمان الذى وصف به القتيل الماضى ذكره قبل، الدليل الواضح على صحة ما قلنا، فإن ظن ظان أن فى قوله تبارك وتعالى: فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ. دليلاً على أنه من أهل الإيمان؛ لأن الدية عنده لا تكون إلا لمؤمن، فقد ظن خطأ؛ وذلك أن دية الذمىّ وأهل الإسلام سواء؛ لإجماع جميعهم على أن ديات عبيدهم الكفار، وعبيد المؤمنين من أهل الإيمان سواء . وذهب قوم إلى أن ديات أهل العهد والميثاق على النِّصف أو على الثلث من ديات أهل الإيمان، قال الطبرى: والراجح أن دياتهم وديات المؤمنين سواء (٥٢) .

وقال الإمام ابن كثير فى تفسيره :

وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بينَكمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ ... أى: فإن كان القتيل، أولياؤه أهل ذمة أو هدنة، فلهم دية قتيلهم، فإن كان مؤمنا؛ فدية كاملة، وكذا إن كان كافرًا أيضا؛ عند طائفة من العلماء، وقيل: يجب

فى الكافر نصف دية المسلم، وقيل ثلثها ؛ كما هو مفصل فى كتاب الأحكام، ويجب أيضا على القاتل تحرير رقبة مؤمنة [٥٣] .

وفى التفسير الوسيط ما يأتى:

وفى هذا القسم من أقسام القتل الخطإ، لم يوصف المقتول بالإيمان أو الكفر؛ مما يشعر بأن وجود عهد وذمة بين المسلمين، يسوى بين الجميع فى الدية والفدية، وبذلك يرتفع الإسلام إلى أعلى مستوى من رعاية حقوق المعاهدين والذميين، وهو تشريع فى رعاية العهد، وحرمة الدم ولا يُسَامَى أبدًا، وحرمة الدم الإنساني واضحة فى إيجاب عتق الرقيق فى جميع حالات القتل [٥٤] .

فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ... أى: فمن لم يجد الرقيق بأن لم يملكه، ولا يملك ما يوصله إليه؛ بأن عجز عن ثمنه، أو عجز عن شرائه مع اليسار بثمنه، فالواجب على القاتل فى هذه الحالة الانتقال إلى البدل، وهو صيام شهرين متتابعين: لا يقع بين أيامهما إفطار بغير عذر يبيح الفطر .

قال ابن كثير: **فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ** ... أى: لا إفطار بينهما بل يَسْرُدُ صومهما إلى آخرهما، فإن أفطر من غير عذر من مرض، أو حيض، أو نفاس؛ استأنف؛ واختلفوا فى السفر هل يقْطع أم لا على قولين .

تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ ... يعنى: تجاوزا من الله لكم؛ إلى التيسير عليكم بتخفيفه ما خفف عنكم، من فرض تحرير الرقبة المؤمنة إذا أعسرتم بها، بإيجابه صوم شهرين متتابعين [٥٥] والصوم المتتابع فيه قمع الشهوة، وإظهار التوبة، وصفاء النفس، وإظهار الأدب بامتثال أمر الله وطاعة أمره .

وقال ابن كثير فى تفسير الآية:

واختلفوا فيمن لا يستطيع الصيام؛ هل يجب عليه إطعام ستين مسكينا كما فى كفارة الظهار، على قولين:

أحدهما: نعم، كما هو منصوص عليه فى كفارة الظهار، وإنما لم يذكر ههنا؛ لأن هذا مقام تهديد وتخويف وتحذير؛ فلا يناسب أن يذكر فيه الإطعام، لما فيه من التسهيل والترخيص .

والقول الثانى: لا يعدل إلى الطعام؛ لأنه لو كان واجبا لما أُخِّر بيانه عن وقت الحاجة .

وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا... أى: كان الله ولا يزال، عظيم العلم بما يصلح عباده، فيما يكلفهم من فرائضه؛ بالغ الحكمة فى كل ما شرعه من الأحكام .

٩٣ ـ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا** ... أى: ومن يقتل مؤمنا قاصدًا قتله؛ فجزاؤه الذى يستحقه على اقتراف تلك الجريمة الشنيعة، دخول

جهنم ماكثا فيها مكثا طويلا، إلى أن يشاء الله إخراجه من النار فيخرجه منها؛ إذ ليس المراد من الخلود هنا دوام البقاء فى جهنم أبدًا ؛ فإن الخلود فيها أبدًا جزاء الكافرين .

وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ .. أى: وانتقم منه، وأبعده سبحانه عن رحمته .

وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ... أى: وقد هيأ الله فى جهنم لمن تعمد قتل المؤمن، عذابًا رهيبًا، لا يدرك الإنسان غايته لشدة بشاعته .

قال الإمام ابن كثير فى تفسيره:

وهذه الآية تهديد شديد، ووعيد أكيد، لمن تعاطى هذا الذنب العظيم، الذى هو مقرون بالشرك فى غير ما آية، فى كتاب الله حيث يقول سبحانه فى سورة الفرقان: وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ . (الفرقان: ٦٨) .

وقال تعالى: قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَالِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . (الأنعام: ١٥١) .

والآيات والأحاديث فى تحريم القتل كثيرة جدا فمن ذلك ما ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ : «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء» [٥٦] .

وروى أبو داود عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ : «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم» [٥٧] .

وفى الحديث الآخر «لو اجتمع أهل السماوات والأرض على قتل رجل مسلم لأكبهم الله فى النار» [٥٨] .

وفى الحديث الآخر: «من أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة؛ جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه: آيس من رحمة الله» [٥٩] .

من تفسير الطبرى:

ساق الطبرى عدة آراء فى صفة القتل الذى يستحق صاحبه أن يسمى متعمدًا .

فقال بعضهم: العمد ما كان بحديدة، وشبه العمد ما كان بخشبة، وقال آخرون: كل ما عمد الضارب إتلاف نفس المضروب فهو عمد، إذا كان الذى ضَرَب به الأغلب منه أن يقتل، وقد رجح الطبرى هذا الرأى .

وأما قوله: فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا .

فقد اختلف أهل التأويل فى معنى هذه الجملة .

١- فقال بعضهم: معناه: فجزاؤه جهنم إن جازاه الله وإن شاء تجاوز عنه .

٢- وقال آخرون: عنى بذلك رجلاً بعينه كان أسلم فارتدَّ عن إسلامه وقتل رجلاً مؤمنا قالوا: فمعنى الآية: ومن قتل مؤمنا مستحلا قتله؛ فجزاؤه جهنم خالدًا فيها .

وقد ساق الطبرى أحاديث تثبت ذلك، وفيها: أن النبى ﷺ قال: «أظنه قد أحدث حدثا، أما والله لئن كان فعل؛ لا أقيله فى حل ولا حرم ولا سلم ولا حرب ؛ فقتل يوم الفتح » [٦٠] قال ابن جريج وفيه نزلت هذه الآية، وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا .

٣- وقال آخرون: معنى ذلك: إلا من تاب .

قال مجاهد فى هذه الآية: إلا من ندم .

٤- وقال آخرون: ذلك إيجاب من الله الوعيد لقاتل المؤمن متعمدًا، كائنا من كان القاتل، على ما وصفه فى كتابه، ولم يجعل له توبة من فعله، قالوا: فكل قاتل مؤمن عمدًا، فله ما أوعده الله من العذاب والخلود فى النار، ولا توبة له، وقالوا: نزلت هذه الآية بعد التى فى سورة الفرقان .

وفى الحديث الصحيح [٦١] الذى رواه الإمام أحمد، ورواه البخارى، ومسلم، أن رجلا قال ابن عباس- بعد أن كفَّ بصره - أفرأيت إن تاب قاتل المؤمن عمدًا، وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ؟ قال ابن عباس ثكلته أمّه! وَأنَّى له التوبة؟ فوالذى نفسى بيده لقد سمعت نبيكم ﷺ يقول: ثكلته أمُّه قتل رجلاً متعمدًا؛ جاء يوم القيامة آخذا بيمينه أو بشماله، تشخب أوداجه دمًا، فى قُبُل عرش الرحمن، يلزم قاتله بيده الأخرى يقول: سل هذا فيم قتلنى ؟! والذى نفس عبد الله بيده، لقد أنزلت هذه الآية، فما نسختها من آية حتى قبض نبيكم ﷺ وما نزل بعدها من برهان [٦٢] .

وقد وردت عدة آثار فى هذا المعنى، تفيد أن عبد الله بن عباس قال فى شأن هذه الآية، التى تحدثت عن جزاء قتل المؤمن عمدًا: لقد نزلت فى آخر ما نزل من القرآن، وما نسخها شىء. وعن الضحاك بن مزاحم قال: ما نسخها شىء منذ نزلت، وليس له توبة .

قال الطبرى:

وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب، قول من قال: معناه:

ومن يقتل مؤمنا متعمدًا فجزاؤه - إن جزاه - جهنم خالدا فيها؛ ولكنه يعفو ويتفضل على أهل

الإيمان به وبرسوله، فلا يجازيهم بالخلود فيها، ولكنه - عز ذكره - إما أن يعفو بفضله فلا يدخله النار، وإما أن يدخله إيَّاها ثم يخرجه منها؛ بفضل رحمته لما سلف من وعده عباده المؤمنين بقوله: قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا. (الزمر: ٥٣) .

لقد قال تعالى عن المشرك: إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ. (النساء: ١١٦).

والقتل دون الشرك .

تعقيب على الآية .

بعض الناس يستدل بهذه الآية على أن مرتكب الكبيرة فى النار .

قال ابن كثير فى تفسيره:

والذى عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها: أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله عز وجل، فإن تاب وأناب، وخشع وخضع وعمل عملاً صالحًا؛ بدَّل الله سيئاته حسنات، وعوَّض المقتول من ظلامته، وأرضاه عن طلابته قال الله تعالى:

وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ ... إلى قوله... إِلاَّ مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا ... وهذا خبر لا يجوز نسخه وحمله على المشركين، وحمل هذه الآية وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ... على المؤمنين خلاف الظاهر، ويحتاج حمله إلى دليل، والله أعلم .

وقال الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ. (النساء: ١١٦)

فهذه الآية عامة فى جميع الذنوب، ما عدا الشرك .

وثبت فى الصحيحين: خبر الإسرائيلى الذى قتل مائة نفس، ثم سأل عالمًا: هل لى من توبة فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟! ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه؛ فهاجر إليه فمات فى الطريق فقبضته ملائكة الرحمة .[٦٣] .

وإذا كان هذا فى بنى إسرائيل، فلأن يكون فى هذه الأمة ؛ التوبة مقبولة بطريق الأولى والأحرى؛ لأن الله وضع عنَّا الآصار والأغلال ؛ التى كانت عليهم، وبعث نبينا بالحنيفية السمحة [٦٤].

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ ﴾

المفردات :

ضربتم فى سبيل الله: سافرتم للغزو.

فتبينوا: فاطلبوا بيان الأمر والكشف عنه وتثبتوا.

ألقى إليكم السلام: حيَّاكم بتحية الإسلام.

تبتغون عرض الحياة الدنيا: تطلبون متاعها الزائل، ونعيمها الفانى: من مال وغيره.

التفسير:

٩٤ – يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ... حرص الإسلام على حفظ الأعراض والأموال والدماء والعقول.

وقد ورد فى كتب الصحيح وغيرها أسباب نزول هذه الآية وموجزها: أن أحد المسلمين كان فى سرية للجهاد فتفرق الأعداء، وبقى رجل فى غنمه فلما أدركه المسلم، قال الرجل: السلام عليكم إني مسلم، فقتله المسلم، واستاق ماله؛ فنزلت هذه الآية، تأمر بالتثبت والتروِّى وعدم التسرع فى قتل إنسان بعد إعلان إسلامه؛ إذْ ربَّما كان الدافع الرغبة فى ماله وفى عرض الحياة الدنيا.

وقد ساق ابن جرير الطبرى ثمانى عشرة رواية فى سبب نزول هذه الآية، منها: ما يفيد أن القاتل هو أسامة بن زيد، والقتيل هو مرادس بن نهيك، ومنها: ما يفيد أن القاتل هو المقداد بن الأسود، ومنها: ما يفيد أن القاتل غيرهما؛ ويمكن الجمع بينهما بتعدد الأحداث ونزول الآية عقب كل منها.

وقد وردت روايات بهذا المعنى فى البخارى والترمذى، والحاكم، وغيرهم.

وجاء فى تفسير مقاتل بن سليمان ما يأتى:

بعث رسول الله ﷺ سرية عليها أسامة بن زيد إلى بنى ضمرة، فلقوا رجلاً منهم يدعى مرادس ابن نهيك معه غنمه له وجمل أحمر، فلما رآهم أوى إلى كهف جبل، واتَّبعه أسامة، فلما بلغ مرادس الكهف، وضع فيه غنمه، ثم أقبل إليهم فقال: «السلام عليكم، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول

الله» فشد عليه أسامة فقتله من أجل جمله وغنمه، فلما علم رسول الله ﷺ بذلك؛ قال لأسامة: «كيف أنت ولا إله إلا الله!» قال: يا رسول الله، إنما قالها متعوذًا، تعوَّذ بها .

فقال له رسول الله ﷺ: «هلاَّ شققت عن قلبه فنظرت إليه ؟» قال: يا رسول الله، إنما قلبه بضعة من جسده [٦٥]؛ فأنزل الله خبر هذا، وأخبره إنما قتله من أجل جمله وغنمه فذلك حين يقول: تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..

فلما بلغ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ: أي: فتاب الله عليكم؛ حلف أسامة أن ألا يقاتل رجلاً يقول: لا إله إلاَّ الله بعد ذلك الرجل، وما لقى من رسول الله ﷺ فيه [٦٦] .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... يأيها الذين صدَّقوا الله وصدقوا رسوله فيما جاءهم به من عند ربهم، إذا سُيِّرتم مسيرة لله فى جهاد أعدائكم .

فَتَبَيَّنُواْ . فتأنَّوا فى قتل من أشكل عليكم أمره؛ وابحثوا عن الحقيقة، وتثبتوا من حال من تقاتلونهم، ولا تُقْدموا على قتل أحد، إلا إذا علمتموه يقينا حربا لكم ولله ولرسوله .

وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ .. ولا تقولوا لمن استسلم لكم فلم يقاتلكم، مظهرا لكم أنه من أهل ملتكم ودعوتكم .

لَسْتَ مُؤْمِنًا .. أى: إنك إنما أظهرت الإسلام، طلبا للنجاة، بنفسك ومالك، ولست مخلصا فى إسلامك. وفى الأثر: فقال رسول الله ﷺ للمقداد بن الأسود: «كان رجل مؤمن يخفى إيمانه مع قوم كفّار، فأظهر إيمانه فقتلته، وكذلك كنت تخفى إيمانك بمكة من قبل!»[٦٧] .

تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . تريدون متاع الحياة الدنيا بالاستيلاء على مال الرجل وهو متاع قليل زائل.

فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ. من رزقه وفواضل نعمه فهى خير لكم إن أطعتم الله فيما أمركم به ونهاكم عنه.

كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ. كفَّارا مثلهم، أو تستخْفُون بدينكم كما استخفى هذا الذى قتلتموه وأخذتم ماله .

فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ . أى: هداكم الله إلى الإسلام، أو إعلان الإيمان، أو التوبة على الذى قتل ذلك الرجل، فعليكم أن تفعلوا بالداخلين فى الإسلام كما فعل بكم .

فَتَبَيَّنُواْ . تكرير للأمر بالتبيين؛ ليؤكد عليهم .

إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . فيعلم ما تخبئه النفوس، وتضمره القلوب، وبواعثها على العمل وغايتها التى لا تنكشف للناس .

★ ★ ★

﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾

المفردات:

القاعدون: المتخلفون عن الجهاد.

أولى الضرر: أصحاب الأمراض والعاهات.

التفسير:

٩٥ـ لاَّ يَسْتَوِى الْقَاعِدونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى الضَّرَرِ ... الآية. بين الله سبحانه فضل الجهاد ومنزلة المجاهدين، وصرَّف القول، وسلك العديد من الطرق؛ لبيان فضيلة هذه الفريضة.

وقد بين هنا فضل المجاهدين على القاعدين، وهو أمر معروف لأول وهلة، ولكنه ساقه هنا؛ ليحفز به القاعدين، ويبعث الهمم فيهم إلى الرغبة فى الجهاد، وقد ورد فى كتب السنّة وصحيح البخارى أمر خاص يتصل بهذه الآية؛ ودقة هذا الكتاب، والحكمة فى نزوله منجما؛ حتى يرعى مصالح البشر.

روى البخارى عن زيد بن ثابت: أنَّ النبى ﷺ أملى عليه:

لاَّ يَسْتَوِى الْقَاعِدونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ. فجاء ابن أم مكتوم وهو يملّها على قال: يا رسول الله، والله لو أستطيع الجهاد معك لجاهدت – وكان أعمى – فأنزل الله على رسوله ﷺ، وفخذه على فخذى، فثقلت علىَّ حتى خفت أن ترضَّ فخذى، ثم سَرى عنه فأنزل الله: غَيْرُ أُوْلِى الضَّرَرِ. [٦٨]

أى: لا يستوى المتخلفون من المؤمنين الأصحاء، الذين قعدوا عن الخروج للجهاد؛ بدون عذر أو مرض أو غير ذلك لا يستوى هؤلاء، والذين خرجوا للجهاد فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فى الأجر والثواب، وعلوّ الدرجة عند الله تعالى.

وكيف يستوى من تخلَّف – بدون أعذار – مع الذين بذلوا أرواحهم راضين صابرين؛ لتكون كلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى؟!

جاء فى زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى:

قوله تعالى: لَّا يَسْتَوِى الْقَاعِدونَ . يعنى: عن الجهاد، والمعنى: أن الجهاد أفضل، قال ابن عباس: وأريد بهذا الجهاد غزوة بدر [٦٩] وقال مقاتل: غزاة تبوك، والضرر .

والضرر: هو العذر الذى يمنع صاحبه من الجهاد .

وقال بعضهم: هو العجز بالزَّمانة والمرض .

وقال ابن عباس: هم قوم كانت تحبسهم عن الغزاة أمراض وأوجاع .

وقال الزجاج: الضرر: أن يكون ضريرًا أو أعمى أو زمنًا .

فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا. أى: فضل الله المجاهدين، الذين بذلوا أموالهم وأنفسهم فى سبيل الله، لإعلاء كلمة الحق، ابتغاء مرضاة الله، على الذين قعدوا عن الجهاد بغير عذر درجة عظيمة لا يعلم قدرها إلا الله .

وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى.. أى: وكلاً من فريقى المجاهدين والقاعدين من المؤمنين، وعده الله المثوبة الحسنى وهى الجنة؛ لتحقق الإيمان الصادق فيهما .

قال ابن كثير: وفيه دليل على أن الجهاد ليس بفرض عين . بل فرضه على الكفاية [٧٠] .

وفى هذه الأيام صار الجهاد فنا من الفنون المعقدة، فالمقاتل يحتاج إلى جهود كثيرة لدراسة فنون السلام والمناورة، أو الطيران أو الإشارة أو حل رموز الشفرة .

ولا يباح لمن كان عليه دور معين، أن يتخلف عن القتال بدون عذر؛ فقد توعَّد الله الفارّ من الزحف بالغضب والعذاب .

قال تعالى: يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ * وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . (الأنفال: ١٥، ١٦).

وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا . فيه تأكيد لمزيد أجر المقاتلين، وزيادة درجاتهم لمسارعتهم لتنفيذ أمر الله، واستجابتهم لنداء الله .

وقال تعالى : إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرءَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . (التوبة: ١١١) .

٩٦ – دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً... أى: منازل عالية لا يحبط الوصف بفخامتها، وجلال قدرها، تفضَّل الله بها على المجاهدين، مع مغفرة الذنوب، والرحمة التى يحيطهم بها، ويحفظهم بشمولها .

وهذه الآية مفسرة للأجر العظيم فى الآية السابقة والمراد بالدرجات درجات الجنة .

روى البخارى ٦/٩، ١٣/٣٤٩ عن أبى هريرة مرفوعا: «إن فى الجنة مائة درجة أعدَّها الله للمجاهدين فى سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض» [٧١] .

وروى مسلم ٣/١٥٠١ عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا سعيد، من رضى بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا؛ وجبت له الجنة» فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدها علىّ يا رسول الله! ففعل، ثم قال «وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، قال وما هى يا رسول الله ؟ قال: الجهاد فى سبيل الله، الجهاد فى سبيل الله» [٧٢] .

وقال ابن زيد: الدرجات: هى السبع التى ذكرها الله تعالى فى براءة حين قال: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . (التوبة: ١٢٠، ١٢١) .

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا.. أى: كان ولا يزال على الداوم، عظيم الغفران لذنوب عباده، واسع الرحمة بكل شىء .

فإن قيل: ما الحكمة من أن الله تعالى ذكر فى أول الكلام درجة وفى آخره درجات ؟ فعنه جوابان:

١– أن الدرجة الأولى تفضيل المجاهدين على القاعدين من أولى الضرر؛ منزلة، والدرجات تفضيل المجاهدين على القاعدين من غير أولى الضرر؛ منازل كثيرة، وهذا معنى قول ابن عباس .

٢– أن الدرجة الأولى درجة المدح والتعظيم، والدرجات منازل الجنة [٧٣] .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) ﴾

المفردات :

مستضعفين : عاجزين عن القيام بما وجب عليهم .

والولدان : الصغار أو المراهقين أو الأرقاء .

لا يستطيعون حيلة : لا يجدون سببا موصلا إلى الغرض .

التفسير :

٩٧ – إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ... تبين هذه الآية موقف المسلمين الذين تخلفوا عن الهجرة من مكة إلى المدينة، مع قدرتهم على هذه الهجرة .

وقد ورد فى كتب التفسير: أنها تشير إلى جماعة من المنافقين.

جاء فى تفسير ابن كثير عن الضحاك: نزلت فى ناس من المنافقين تخلفوا عن رسول الله ﷺ بمكة، وخرجوا مع المشركين يوم بدر فأصيبوا فيمن أصيب، فنزلت هذه الآية الكريمة عامة، فى كل من أقام بين ظهراني المشركين، وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنًا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حراما بالإجماع، وبنصٍّ هذه الآية .

وجاء فى تفسير الطبرى، عدد من الآثار فى سبب نزول هذه الآية، تفيد هذه الآثار فى جملتها: أن الآية نزلت فيمن تخلف عن الهجرة؛ وآثر البقاء فى دار الكفر .

عن ابن عباس قال:

كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانو يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم؛ فقال المسلمون: «كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا ! فاستغفروا لهم» فنزلت: إِنْ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ . الآية.

قال: فكُتب إلى من بقى بمكة من المسلمين بهذه الآية وأنه لا عذر له .

قال: فخرجوا من مكة فلحقهم المشركون، فأعطوهم الفتنة [٧٤] فنزلت فيهم: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ . (العنكبوت: ١٠) .

فكتب المسلمون إليهم بذلك فحزنوا وأيسوا من كل خير، ثم نزلت فيهم: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ . (النحل: ١١٠)، فكتبوا إليهم بذلك «إن الله قد جعل لكم مخرجا» فخرجوا فأدركهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا وقتل من قتل [٧٥].

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ .. أى: تتوفاهم .

ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ .. أى: فى حال ظلمهم لأنفسهم حيث أسلموا وآثروا البقاء بين ظهراني المشركين فى دار الكفر، وتحملوا الذل والهوان والقهر – وهم قادرون على التخلص مما هم فيه – من كبتٍ وإذلال– إلى بلد يأمنون فيه على دينهم وأموالهم وأنفسهم .

إن هؤلاء حين تقبض الملائكة أرواحهم، أى: ملك الموت وأعوانه .

قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ . أى: فى أى شيء كنتم من أمر دينكم الذى يأمركم بالهجرة، والمراد: لم مكثتم هنا وتركتم الهجرة، قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ . قالوا: معتذرين فى وقت لا ينفع فيه الاعتذار: كنا نعيش مقهورين تحت أيدى الكفار؛ لا نقدر على الخروج من مكة، ولا الذهاب فى الأرض .

قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. أى: إن عذركم عن ذلك التقصير غير مقبول، حيث كان فى إمكانكم الهجرة إلى الحبشة أو إلى المدينة، واللحاق بإخوانكم المهاجرين، والانضمام إلى صفوفهم، ليزدادوا بكم قوة ومنعة .

من تفسير الزمخشرى:

وفى هذه الآية دليل على أن الرجل إذا كان فى بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب لبعض الأسباب، والعوائق عن إقامة الدين، أو علم أنه فى غير بلده أقوم بحق الله، وأدوم على العبادة، حقت عليه المهاجرة .

اللهم، إن كنت تعلم أن هجرتى إليك لم تكن إلا للفرار بدينى؛ فاجعلها سببا فى خاتمة الخير، ودرْك المرجو من فضلك، والمبتغى من رحمتك، وصل جوارى لك، بعكوفى عند بيتك، بجوارك فى دار كرامتك يا واسع المغفرة [٧٦] .

فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا .. أى: فجزاء هؤلاء الذين تخلفوا عن الهجرة أن يكون مسكنهم جهنم؛ لتركهم الفريضة المحتومة – فقد كانت الهجرة واجبة فى صدر الإسلام – أو لنفاقهم وكفرهم، ونصرتهم أعداء الله على رسول الله ﷺ [٧٧] .

٩٨ - إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً .

هذا عذر من الله لهؤلاء المستضعفين فى ترك الهجرة؛ لأنهم لا يقدرون على التخلص من أيدى المشركين أى: لكن الضعفاء من الرجال والنساء والولدان أى: الأطفال والمراهقين الذين لا يقدرون على حيلة فى الخروج من مكة، ولا على نفقة ولا قوة .

وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً .. أى: لا يعرفون الطريق إلى المدينة .

أو لا يعرفون طريقا يتوجهون إلى إن خرجوا هلكوا [٧٨] .

٩٩ - فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا . أى: فهؤلاء المستضعفون سيرجى لهم العفو من الله، لأنه كثير العفو واسع المغفرة .

قال الألوسى: وفيه دليل على أن ترك الهجرة أمر خطير؛ حتى أن المضطر الذى تحقق عدم وجوبها عليه، ينبغى أن يعدّ تركها ذنبا، ولا يأمن، ويترصد الفرصة ويعلق قلبه بها [٧٩] .

★ ★ ★

﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٠) ﴾

المفردات :

مراغما : متحولا يتحول إليه، ومكانا يتنقل فيه .

وسعة : السعة: البسطة فى العيش ، والزيادة فى الرزق .

فقد وقع أجره على الله : أى: ثبت ثوابه عنده .

التفسير :

١٠٠ - وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ... الاية

كانت الآيات السابقة فى تحذير المسلمين من القعود عن الهجرة . من مكة عند القدرة عليها، وبعث الرجاء فى نفوس المستضعفين بأن الله سيعفو عنهم .

وهذه الآية جاءت بعدها؛ للترغيب فى تلك الهجرة : ببيان ثوابها ومنزلتها عند الله تعالى. وكونها طريقا للنصر، وإذلال الأعداء، وبابًا واسعا للرزق. وذلك جريًا على عادة القرآن الكريم: من الجمع بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب .

سبب النزول:

لما نزلت الآيات السابقة فى التحذير من القعود عن الهجرة؛ خرج ضمرة بن جندب مهاجرًا إلى رسول الله ﷺ، فمات فى الطريق قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ؛ فنزلت الآية: وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...

أورده ابن كثير عن ابن عباس .

وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً .. أى: ومن يعمد إلى مثل تلك الهجرة– فى سبيل إعلاء كلمة الله، والمحافظة على دينه – يجد فى الأرض متَّسعًا لهجرته، ورحابًا فسيحة، يستطيع التنقل فيها، والتحول إليها، والاستمتاع بخيراتها، واتخاذ الموقع المناسب لضرب الأعداء والنجاة من شرهم .

وفى ذلك ما فيه الإهانة لهم، وإرغام أنوفهم . كما يجد – إلى جانب ذلك – سعة فى الرزق، وبسطة فى العيش ... فلا عذر لأحد من الأقوياء فى القعود عن الهجرة والبقاء فى دار الكفر: مكتوم الأنفاس، متعرضًا لأذى الكفار . قال تعالى: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ. (العنكبوت: ٥٦).

وليست الهجرة – بصفة عامة – للهرب من العدو؛ وإنما هى ضرب من الجهاد؛ للقضاء على سيطرة الأعداء، وتحول من موقع إلى موقع آخر، يمكن منه ضرب العدو، وإلحاق الأذى والذل به، والتمكن من إقامة شعائر الدين فى حرية وطلاقة .

فهى فى الأصل: الانتقال من مكان إلى مكان . والمراد بها : الهجرة من أرض الكفر إلى أى مكان يأمن فيه الإنسان على نفسه وماله ودينه .

وقد هاجر بعض المسلمين – فى أول الإسلام – إلى الحبشة .

ثم كانت الهجرة بعد ذلك من مكة إلى المدينة . وكانت واجبةً قبل فتح مكة . وهى التى نزلت فيها آيات الترغيب والترهيب .

ولما تم فتح مكة، واستقر الأمر فيها للمسلمين، وأعز الله فيه الإسلام، لم تعد هناك حاجة إلى الهجرة من مكة . ولهذا قال ﷺ : «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية» [٨٠] .

وتشمل الهجرة بالمعنى العام: الهجرة فى طلب العلم، والهجرة فى طلب الرزق، والهجرة فى نشر الدعوة الإسلامية فى البلاد التى لم تصلها أو التى هى فى حاجة إليها . وكلها مما رغب الله فيه.

وقد تطلق الهجرة على هجر الذنوب والمعاصى، كما فى قول الرسول ﷺ : «والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه» [٨١] .

هذا، وقد تكفل الله تعالى، فى هذه الآية الكريمة، بثواب الهجرة كاملا لمن خرج من بيته بنيَّة الهجرة: لا يريد بذلك إلا وجه الله واللحاق برسول الله، ثم حلَّ به الموت قبل أن يصل إلى مقصده، وإن أدركه أمام باب داره التى خرج منها . فقال جل شأنه:

وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ.. أى: لإعلاء كلمة الله، فهى ضرب من الجهاد .

ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ : أى: يلحقه، وينزل به قبل أن يبلغ مقصده .

فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ : أى ثبت ثوابه عنده، وكان فى ضمانه تعالى؛ بمقتضى وعده وتفضيله؛

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا : أى: كان – ولا يزال – عظيم المغفرة لما فرط من الذنوب، التى من جملتها: القعود عن الهجرة من غير عذر إلى وقت الخروج إليها .

رَّحِيمًا : كثير الرحمة بعباده حيث قبل توبتهم، وغفر ذنوبهم .

فهذه الآية الكريمة : تطمئن المهاجر على رزقه فى مهجره؛ حتى لا يتقاعس عن الهجرة، فترفع عنه جميع الأعباء، وتفتح له سبل السعادة فى الدنيا، وتعده بعظيم الثواب فى الآخرة حتى لو حال الموت بينه وبين ما يتمناه: من إتمام الهجرة فى سبيل الله، بعد أن شرع فيها .

★ ★ ★

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾

المفردات:

ضربتم فى الأرض : سافرتم .

جُناحٌ : حرج وإثم

أن تقصروا من الصلاة : أن تخففوها من رباعية إلى ثنائية .

يفتنكم : يتعرض لكم بما تكرهون من الإغارة عليكم أثناء الصلاة .

التفسير:

١٠١ – وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ... الآية

بعد أن رغَّبت الآية السابقة فى الهجرة – وهى مبنية على السفر والخوف من العدو – جاءت

هذه الآية تبين كيفية الصلاة فى السفر، وفى حال الخوف من العدو: من جواز قصرها، وتفضيلا من الله على عباده .

والكلام عن الصلاة فى هذا الموطن؛ للدلالة على أنها وسائل الأمن عند الخوف، وعلى عظم شأنها، وبيان أنها لا تسقط بحال من الأحوال .

والمعنى: وإذا سافرتم فى الأرض - أيها المسلمون :-

فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ : حرج وإثم .

أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلَاةِ : فتصلوا الرباعية - وهى الظهر والعصر والعشاء - ركعتين .. أما الصبح فلا تقبل القصر ؛ لأنها قصيرة بطبيعتها، وكذلك المغرب لا تقبل القصر؛ لأنها وتر النهار .

وظاهر الآية: إباحة القصر لمطلق السفر، طال أم قصر .. ولكن الفقهاء اختلفوا فى تحديد مسافة القصر ومدته، كما اشترط بعضهم أن يكون سفرا مباحا .. وتفصيل ذلك فى موضعه من كتب الفقه.

وظاهر قوله تعالى:

إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ . اشتراط الخوف فى السفر فى جواز القصر . ولكن السنة النبوية بينت أنه يجوز القصر فى السفر مع الأمن، كما يجوز فيه عند الخوف .

وفى ذلك يقول الرسول ﷺ؛ جوابا لمن سأله عن القصر حالة الأمن: «صدقة تَصدَّق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته ! » [٨٢] . وقد بيَّن الله سبب الترخيص - فى القصر فى السفر - عند الخوف من العدو بقوله :

إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا : أى: كانوا لكم أعداء ظاهرى العداوة، مجاهرين بها. فتبينوا لعداوتهم واحذروها، وكونوا متيقظين لهم فى الصلاة وغيرها .

★ ★ ★

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٠٢) ﴾

المفردات:

طائفة: جماعة.

وليأخذوا حذرهم: وليكونوا متيقظين للعدو، محترسين منه.

فيميلون عليكم: فيهجمون عليكم.

ميلة واحدة: هجمة واحدة يقضون بها عليكم، فلا يحتاجون بعدها إلى هجمة أخرى.

التفسير:

١٠٢ – وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ ... الآية

لما بيَّن الله حكم القصر فى السفر عند الخوف عقّبه ببيان كيفية صلاة الخوف.

سبب النزول:

روى الدارقطنى، عن أبى عياش الزرقى، قال: كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان، فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد، وهم بيننا وبين القبلة، فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر. فقالوا: لقد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم، ثم قالوا: يأتى عليهم صلاة هى أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم، قال: فنزل جبريل عليه السلام – بهذه الآية بين الظهر والعصر: وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ [٨٣].

ومعنى: وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُم فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَائِكُمْ: وإذا أردت أن تصلى بهم إماما، فلتصل طائفة منهم معك، بعد أن تجعلهم طائفتين، ولتقف الطائفة الأخرى تجاه العدو؛ لمراقبته، وحراسة المسلمين منه. وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ :

أى: ولتأخذ الطائفة التى تصلىّ معك أسلحتهم؛ ليتقوا بها العدو عند المفاجأة. فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَائِكُمْ. أى: فإذا فرغت الطائفة التى تصلى معك من سجود الركعة الأولى؛ فلينصرفوا للحراسة خلفكم.

وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ: أى: ولتأت الطائفة الأخرى التى كانت فى مواجهة العدو للحراسة والمراقبة، والتى لم تصل بعد، فليصلوا معك الركعة الثانية، وهى الأولى لهم.

وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ: أى: يجب أن يكونوا دائما متيقظين لمخادعات العدو، وليأخذوا أسلحتهم معهم؛ ليتقوه بها إن بادءوهم؛ لأن الأعداء يتمنون أن ينالوا منكم غرة فى صلاتكم، فيحملوا عليكم حملة واحدة: منتهزين فرصة انشغالكم بالصلاة. كما قال تعالى: وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً: والأمتعة: ما يتمتع به المحارب من لوازمه فى السفر.

والأمر هنا: للوجوب؛ لقوله تعالى بعده:

وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ: أى: ولا إثم عليكم فى أن تتركوا أسلحتكم عندما يكون بكم تأذٍّ من المطر أو المرض. وهذ الرخصة لا تعطى إلا فى حال العذر الذى بينه الله فى الآية فى قوله تعالى: وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ. أى كونوا على حذر دائم، وبخاصة فى تلك الحالة التى وضعتم فيها أسلحتكم.

إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا: يهينهم ويخزيهم ويذلهم، يتحقق بعضه على أيديكم بالنصر عليهم؛ إذا اتبعتم النصيحة، ونهضتم بالتكاليف، وكنتم دائما على صلة بالله، وفى موقف اليقظة والاستعداد بما تستطيعون من قوة، ويتحقق بعضه الآخر بالعذاب الذى يلاقونه يوم القيامة من الله بسبب كفرهم ومحاربتهم أولياءه. فاهتموا بأموركم ولا تهملوا مباشرة الأسباب.

هذا نموذج من نماذج تأدية الصلاة فى الميدان حين التربص والتهيؤ.

وقد دلت الآية على أهمية الصلاة وضرورتها، وما للجماعة فيها من ميزة ومنزلة، حتى فى أشد حالات الخوف.

فالصلاة هى المدد الروحى الحافز للعزائم على النصر؛ إذ هى صلة بالله رب العالمين، القادر على كل شيء، وهو مالك الأسباب جميعا للنصر وغيره. وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ. (آل عمران: ١٢٦).

فعلى المسلمين أن يحرصوا على أداء الصلوات؛ استدرارًا لعون الله. وفى الحروب الحديثة عليهم تأدية الصلاة بالكيفية التى تناسب وضعهم من العدو، بحيث لا يعرض أمنهم للخطر.

وقد بين الشرع طريقتها فى كل حال.

ومنها: أنه إذا التحم الجيشان، فللجندى أن يصلى مستقبل القبلة أو غير مستقبلها، وعلى أية كيفية ممكنة ولو بالإيماء.

وفى ذلك يقول الله تعالى: فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا. (البقرة: ٢٣٩).

★ ★ ★

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾

التفسير:

١٠٣ ـ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ ... الآية. أى: فإذا أديتموها على هذا النحو .

فَاذْكُرُواْ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ .. : يأمر الله – تعالى – بكثرة الذكر عقب صلاة الخوف وإن كان ذلك مشروعا فيه بعد غيرها أيضا – ولكن ههنا آكد، لما وقع فيها من التخفيف فى أركانها، ومن الرخصة فى الحركات الكثيرة التى لا تباح فى غيرها – وكما يذكرونه بألسنتهم يذكرونه بقلوبهم .

فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ . أى : سكنت قلوبكم من الخوف، وأمنتم بعدما وضعت الحرب أوزارها .

فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ . أى: أدوها بأركانها وشروطها كاملة فى مواقيتها .

إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا . أى: أقيموها كذلك ؛ لأنها كانت فى حكم الله، ولا زالت مكتوبة مفروضه محددة الأوقات: لا يجوز إخراجها عن أوقاتها فى أمن .

★ ★ ★

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾

التفسير:

١٠٤ – وَلاَ تَهِنُواْ فِى ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ .. أى: لا تضعفوا ولا تتوانوا فى طلب الكفار أهل الحرب. لقتالهم؛ لأنكم، إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَالاَ يَرْجُون. فليست الآلام مختصةً بكم. بل هى أمر مشترك بينكم وبينهم . وتزيدون عليهم : أنكم ترجون وتطعمون من الله تعالى. فيما لا يخطر لهم ببال . من نصر دينه الذى أمركم بالجهاد فى سبيله . ومن الثواب الجزيل . والنعيم المقيم فى الآخرة فأنتم تنصرون الله وهو معكم على عدوكم . ومن كان الله معه؛ فهو من المنتصرين . وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا : عظيم العلم بكل شىء، فيعلم ما فيه مصلحتكم فى دنياكم وأخراكم، عظيم الحكمة فيما يأمركم به وينهاكم عنه؛ فجدوا فى الامتثال لأمره ؛ فإن عواقب الامتثال حميدة .

★ ★ ★

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾

المفردات:

خصيما: مجادلاً، ومدافعًا.

يختانون أنفسهم: يخونونها بالظلم والشرّ؛ لأن وبال ذلك يعود عليها.

يبيتون: يدبّرون خفية.

التفسير:

١٠٥ - إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا.

اختار الله رسوله بشرا من بين الناس؛ ليكون قدوة عملية فى سلوكه وله أن يجتهد فى الحكم بين الناس وهذا هو رأى الجمهور.

وقال بعضهم: ليس له أن يجتهد؛ لأن الوحى ينزل عليه والوحى قطعى، والاجتهاد ظنى.

وأجيب عن ذلك بأن الوحى قد لاينزل عليه فى كل وقت؛ فقد تأخر عنه الوحى خمسة عشر يوما.

ثم إن الاجتهاد من صفة العلماء إذا توفرت لديهم شروطه والرسول نوع مختار من البشر يتمتع بالذكاء والفطنة والأمانة فهو أولى أن يتمتع بهذه النعمة، وأن يُعمل عقله فى ما لم ينزل عليه وحى بشأنه.

فإذا تخاصم إليه رجلان فمن حقه أن يقضى بينهما، بما ينقدح فى ذهنه بأنه الحق والصواب، ولا يجب عليه انتظار الوحى؛ لأن الوحى من شئون الرسالة والدين ونظام الشريعة. أما شئون الدنيا والقضاء بين الناس فى خصوماتهم العادية، فهو من شئون الناس؛ والرسول ﷺ يقضى بينهم بأصول دينه الذى أوحى إليه، وبما ينقدح فى ذهنه من الحكم بعد الاستماع إلى أطراف القضية.

وقد ساق الإمام ابن كثير فى تفسيره طائفة من الأحاديث تتعلق بهذه الآية. منها ما ثبت فى الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته فخرج إليهم فقال: «ألا إنما أنا بشر وإنما أقضى بنحو ما أسمع ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض؛ فأقضى له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليحملها أو ليذرها !»[٨٤]

سبب نزول هذه الآية وما بعدها:

ذكر ابن الجوزى ثلاثة أقوال فى سبب نزول هذه الآية.

وقال ابن كثير: ذكر مجاهد وعكرمة وقتادة والسدى وابن زيد وغيرهم فى هذه الآية أنها نزلت فى سارق بنى أبيرق على اختلاف سياقاتهم وهى متقاربة.

وقال ابن الجوزى:

جمهور العلماء على أن المشار إليه بالاستخفاء والتبييت: قوم طعمة بن أبيرق وقد بيتوا: احتيالهم فى براءة صاحبهم بالكذب.

وقصة الآية:

أن طعمة بن أبيرق سرق درعا لقتاده بن النعمان؛ وكان الدرع فى جراب فيه دقيق؛ فجعل الدقيق ينتشر من خرق فى الجراب، حتى انتهى إلى الدار، ثم خبأها عند رجل من اليهود، فالتُمست الدرع عند طعمة فلم توجد عنده، وحلف: مالى بها علم، فقال أصحابها: بلى والله، لقد دخل علينا فأخذها، وطلبنا أثره حتى دخل داره، فرأينا أثر الدقيق، فلما حلف تركوه، واتبعوا أثر الدقيق؛ حتى انتهوا إلى منزل اليهودى فأخذوه، فقال: دفعها إلىَّ طعمة بن أبيرق، فقال قوم طعمة: انطلقوا إلى رسول الله ﷺ؛ حتى نبرئ صاحبنا وندافع عنه، فمال رسول الله ﷺ إلى كلامهم، وهمَّ أن يجادل عن طعمة بن أبيرق، وأن يعاقب اليهودىَّ؛ فنزلت هذه الآيات كلها؛ تبرِّئ اليهودى وتلطخ طعمة بعار السرقة[٨٥] وفى ذلك نلمح صدق القرآن فهو يتحيَّز إلى الحق، ويدافع عن يهودى برىء، ويوجه الاتهام إلى مسلم خائن؛ لأن القرآن كلام الله الحق، ومن أصدق من الله حديثا ؟ !

إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَآ أَرَاكَ اللَّهُ.

إنا أنزلنا إليك القرآن الكريم ناطقا بالحق، داعيا إليه وإلى التمسك به؛ لتحكم بين الناس على اختلاف عقائدهم، بما عرَّفك الله وأوحى به إليك، ولا تكن مجادلاً عن الخائنين؛ فينتصروا على البرءاء.

قال ابن الجوزى:

لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ. أى: لتقضى بينهم، وفى قوله: بِمَآ أَرَاكَ اللَّهُ. قولان:

أحدهما: أنه الذى علَّمه، والذى علَّمه ألا يقبل دعوى أحد على أحد إلا ببرهان.

والثانى: أنه مما يؤدى إليه اجتهاده [٨٦].

وَلاَ تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا.

قال الزجاج: لاتكن مخاصما، ولا دافعا عن خائن، واختلفوا هل خاصم عنه أم لا على قولين:

أحدهما: أنه قام خطيبا فعذره.

والثانى: أنه هم بذلك ولم يفعله.

قال القاضى أبو يعلى: وهذه الآية تدل على أنه لا يجوز لأحد أن يخاصم عن غيره فى إثبات حق أو نفيه، وهو غير عالم بحقيقة أمره؛ لأن الله تعالى عاتب نبيَّه على مثل ذلك.

١٠٦ - وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا.

أى: واستغفر الله مما هممت به فى أمر طعمة وبراءته لظاهر الحال.

قال الالوسى فى تفسيره روح المعانى:

والهم بالشىء خصوصًا إذ يظن أنه الحق ليس بذنب حتى يستغفر منه، لكن لعظم النبى ﷺ، وعصمة الله تعالى له، وتنزيهه عما يوهم النقص - وحاشاه - أمره بالاستغفار؛ لزيادة الثواب، وإرشاده إلى التثبت، وأنَّ ما ليس بذنب مما يكاد يعدُّ حسنة من غيره؛ إذا صدر منه عليه الصلاة والسلام بالنسبة لعظمته، ومقامه المحمود يوشك أن يكون كالذنب؛ فلا متمسك بالأمر بالاستغفار فى عدم العصمة كما زعمه البعض، وقيل: يحتمل أن يكون المراد وَاسْتَغْفِرِ. لأولئك الذين برَّءوا ذلك الخائن. إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا. مبالغا فى المغفرة والرحمة لمن استغفره، وقيل: لمن استغفر له [٨٧].

١٠٧ - وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ... الآية

أى: تدافع. وتوحى هذه الآية بأن قوم طعمة بن أبيرق، بيتوا أمرًا سريا لتبرئة طعمة، وإلصاق التهمة بيهودى برىء، وهم بذلك قد خانوا غيرهم؛ ولكن القرآن جعلهم خائنين لأنفسهم؛ لارتكابهم ما يشين هذه النفس، وما يحط من شأنها عند الله.

أو خائنين لمبادئ الجماعة الإسلامية وقوانينها؛ وهى القيام بالقسط والعدل وعلى نفس الإنسان أو الوالدين والأقربين.

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف:

يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ. يخونونها بالمعصية، كقوله تعالى: عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ. (البقرة:١٨٧)

جعلت معصية العصاة خيانة منهم لأنفسهم، كما جعلت ظلمًا لها؛ لأن الضرر راجع إليهم، (فإن قلت): لم قيل لِلْخَائِنِين. وَيَخْتَانُونَ أَنفُسَهُم. وكان السارق طعمه بن أبيرق وحده ؟ .

(قلت): لوجهين:

أحدهما: أن قومه شهدوا له بالبراءة ونصروه فكانوا شركاء له فى الإثم.

والثانى: أنه جمع ليتناول طعمة، وكل من خان خيانة، فلا تخاصم لخائن قط، ولا تجادل عنه[٨٨].

إِنَّ اللَّهَ لاَيُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا.

أى: لا يرضى عمن يكثرون من الخيانة والإثم، بارتكاب المعاصى، وانتهاك محارم الله، واتهام غيرهم بهتانا وزورًا.

«والذين لا يحبهم الله لا يجوز أن يجادل عنهم أحد ولا أن يحامى عنهم أحد، وقد كرههم الله للإثم والخيانة»[٨٩].

١٠٨ - يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُون مَالاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ...الآية

يستترون من الناس؛ مخافة أن يظهروا أمامهم بالإثم «والناس لا يملكون لهم نفعا ولا ضرًا بينما الذى يملك النفع والضرّ معهم مطلع عليهم وهم يزورون من القول ما لا يرضاه، فأى موقف يدعو إلى الزراية والاستهزاء أكثر من هذا الموقف ؟ ! »[٩٠].

قال الزمخشرى فى الكشاف:

وكفى بهذه الآية ناعية على الناس ما هم فيه من قلة الحياء والخشية من ربهم مع علمهم - إن كانوا مؤمنين - أنهم فى حضرته[٩١].

وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا...

أى: وكان الله بجميع أعمالهم - عليما - شامل العلم، فلا تخفى عليه خلجات نفوسهم، وخفايا أسرارهم، وهم تحت عينه وفى قبضته.

١٠٩ - هَأَنتُمْ هَؤُلآءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا... الآية

تجىء هذه الآية فى مقام الإنكار، على هؤلاء الذين جادلوا عن طعمة بن أبيرق، وألصقوا التهمة بيهودى برىء.

والمعنى: هبُوا أنكم بذلتم الجهد فى المخاصمة عمن أشارت إليه الأخبار فى الدنيا .

فما جدوى الجدال فى الدنيا، إذا كان ذلك لا يغنى عنهم من عذاب الله شيئا ؟ !

فَمَن يُجَادِلُ اللّه عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. أى: فمن يخاصمه فى ذلك اليوم الثقيل الذى تنطق فيه كل جارحة بما اجترحت. يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . (النور: ٢٤)

أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً. أى: حافظا ومحاميا من بأس الله تعالى وانتقامه وأصل معنى الوكيل: الشخص الذى توكل الأمور له وتسند إليه، وتفسيره: بالحافظ والمحامى؛ مجاز من باب استعمال الشىء فى لازم معناه [٩٢].

★ ★ ★

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾

المفردات :

بهتانا : البهتان: أفحش الكذب .

خطيئة : صغيرة .

إثما : كبيرة .

التفسير:

١١٠ - وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُورًا رَحِيمًا .

فتح الإسلام باب التوبة على مصراعيه، ولم يجعل وساطة بين العبد وربه، ويسّر للمذنب باب التوبة والندم، وأخبر الله بقبول توبة التائبين فى كل وقت من أوقات الليل والنهار، وبين الإسلام أن خطيئة البشر ليست لعنة أبدية، وإنما هى كبوة يمكن للعبد أن يستقيم بعدها ويطلب المغفرة من الله بالتوبة النصوح، والندم والاستقامة .

وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا. أى: أمرا قبيحا يسوء به غيره، كما فعل طعمة بن أبيرق باليهودى .

أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ. بما يفعله من الذنوب التى يغضب بها الله وقيل: السوء ما دون الشرك، والظلم: الشرك، وقيل: السوء الصغيرة، والظلم: الكبيرة .

ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ. يطلب مغفرة الله بالتوبة الصادقة .

يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا. لما استغفره منه، كائنًا ما كان الإثم المرتكب .

رَحِيمًا . متفضلا على عباده رحيما بهم .

قال تعالى : وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ . (الأعراف: ١٥٦)

وفيه حث لمن نزلت الآية بشأنهم من المذنبين على التوبة والاستغفار .

١١١ – وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ... الآية

ومن يفعل ذنبًا من الذنوب؛ فإنما يعود جزاؤه على نفسه لا يتعداه إلى غيره .

جاء فى ظلال القرآن :

ليست هناك خطيئة موروثة فى الإسلام، كالتى تتحدث عنها تصورات الكنيسة، كما أنه ليست هناك كفارة غير الكفارة التى تؤديها النفس عن نفسها، وعندئذ تنطلق كل نفس حذرة مما تكسب، مطمئنة إلى أنها لا تحاسب إلا على ما تكسب .. توازن عجيب ! فى هذا التصور الفريد، هو إحدى خصائص التصور الإسلامى وأحد مقوماته التى تطمئن الفطرة وتحقق العدل الإلهى المطلق، المطلوب أن يحاكيه بنو الإنسان

وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا . بكل شيء ومنه الكسب .

حَكِيمًا فى كل ما قدّر وقضى، ومن ذلك لا تحمل وازرة وزر أخرى .

١١٢– وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا .

ومن يرتكب خَطِيئَةً صغيرة أَوْ إِثْمًا، أو كبيرة من المعاصى ثم يتهم بها بريئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا. فى رميه البرىء وإِثْمًا فى ارتكابه الذنب الذى رمى به البرىء، وقد احتملهما معه وكأنما البهتان والإثم حملاً يُحمل على طريقة القرآن فى تجسيم المعنى، وإبراز الصورة الآثمة لشخص يذنب ويلقى تبعة الذنب على الأبرياء .

١١٣- وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ... الآية

وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ. أى عصمته وألطافه بك بإعلامك عن طريق الوحى بما دبَّروه وأخفوه.

لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ. من قوم طعمة بن أبيرق .

أَن يُضِلُّوكَ. عن القضاء بالحق، وتوخى طريق العدل، مع علمهم بأن الجانى هو صاحبهم، فقد روى أن ناسًا منهم كانوا يعلمون كنه القصة [٩٣] .

وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ. وما يعود ضرر ذلك إلاَّ على أنفسهم ؛ لوقوعهم فى الضلالة والكذب والافتراء، وتضليل العدالة .

وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ. فقد تكفل الله بحفظك وعصمتك .

وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ .

وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ. وهو القرآن الكريم .

وَالْحِكْمَةَ. بيان ما فى الكتاب، وإلهام الصواب، وإلقاء صحة الجواب فى الروع [٩٤] .

وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ. من أخبار الأولين والآخرين

وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا . بالنبوة والرسالة وجميع الفضائل التى خص الله بها رسوله، فكان خاتم الرسل، وصاحب الشفاعة وأمته آخر الأمم، وكتابه آخر الكُتُب، وملايين المآذن تردد اسمه عند كل أذان .

وضمّ الإله اسم النبى إلى اسمه	إذا قال فى الخمس المؤذن: أشهد
وشق له من اسمه ليجلّه	فذو العرش محمود وهذا محمَّد

وأنزل الله عليك القرآن الجامع بين الحق والحكمة، أو أنزل عليك القرآن والسنة، وعلمك ما لم تعلمه من العلوم والمعارف الربانية .

وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا. لا تحويه عبارة ولا تحيط به إشارة .

ومن ذلك: النبوة والرسالة، وإرشادك إلى أخطاء المخطئين.

★ ★ ★

﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾

المفردات :

نجواهم : النجوى: المسارَّة بالحديث بين اثنين فأكثر . قاله الزجاج . وعرفها بعضهم : بالحديث الذى ينفرد به اثنان فأكثر ، سرًّا أو جهرًا . وعلى كلٍّ ، فضمير نَّجْوَاهُمْ للناس عامة ؛ لأن الحكم عام .

أو معروف : هو ما عرف حسنُه شرعا أو عرفا . فينتظم أصناف البرّ والخير .

ابتغاء مرضاة الله : طلبًا لرضاه.

يُشاقق الرسول : يخالفه فيما أمر به ، أو نهى عنه .

نُوَلِّه ما تَوَلَّى : حقيقة معنى نُوَلِّهِ : نجعله واليا ، يقال : تولاه . بمعنى: تقلده واضطلع به ، وولاه غيره . جعله واليا ، ومضطلعا بالأمر .

والمعنى المقصود : هو أن توفيق الله تعالى - يتخلى عنه .

التفسير :

١١٤- لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ... الآية

لما بين الله تعالى - قبل هذه الآية - أنه أنزل على رسوله ﷺ، الكتاب والحكمة، وعلَّمه ما لم يكن يعلم : أتبعه ذكر بعض ما أنزله عليه من الكتاب والحكمة مما يدعم أواصر المحبة بين الناس، ويقضى على أسباب النزاع بينهم . كما أن فيه ردًا على من كان يحرض رسول الله ﷺ، على أن يقضى لصالح من سرق الدرع وخبأها عند اليهودى، فيبرئه ويقضى على اليهودى !!

والمعنى : لا خير فى أحاديث الناس فيما بينهم، إلا فى حديث من أمر بصدقةٍ - واجبةً كانت أو متطوعا بها، أو أمر بما عرف حسنُه شرعا أو عرفا، ولم يعارض قاعدةً شرعية، وتقبله العقول الخالصة من الهوى بالرضاء، أو أمر بإصلاح بين الناس؛ حتى يُحلَّ الوئام محل الخصام .

فهذه الجهات الثلاث، هى التى تكون النجوى - أى: الحديث الجانبى فيها - خيرا مشروعا مثابا عليه .

أما الأحاديث الجانبية التى يتآمر فيها المتآمرون على الإضرار بعباد الله، أو يتناجى فيها المتناجون بالمعاصى والهذيان؛ فلا خير فيها ولا ثواب عليها، بل يعاقب عليها؛ لأنها كانت فى معصية الله تعالى .

فإنما يثاب الإنسان على المعروف، إذا ترك الامتنان والإعجاب به، ولا يتم المعروف - كما قال ابن عباس - رضى الله عنهما : - «إلا بثلاث : تعجيله، وتصغيره، وستره . فإذا عجّلته هنأته [٩٥] وإذا صغّرته عظمته، وإذا سترته أتممته» .

وقد دعت الآية الكريمة إلى فضيلة الإصلاح بين الناس، وجعلتها خيرا مثابا عليه؛ لما لها من الأثر العظيم فيهم، حيث تُحِلُّ الوئامَ محل الخصام، والراحة النفسية محل القلق، والتفكير فى الخير مكان التفكير فى الشر؛ فيسودُ الأمن والسلام .

وقد أباح الإسلام الكذب الأبيض فى سبيل الإصلاح، مع أن الكذب - بصفة عامة - حرام ؛ لأن هذا غير ضار بأحد . وهو مؤَدٍّ إلى مصلحة مؤكدة، كأن تقول لكلا الخصمين عن صاحبه : سمعته يثنى عليك ويصفك بطيب النية، وحسن الطوية والمروءة، ونحو ذلك مما يلين قلب الخصم نحو أخيه فى حين أنك لم تسمع ذلك منه .

وفى ذلك يروى حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أمه - أم كلثوم بنت عقبة - أنها أخبرته أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ليس الكذاب الذى يصلحُ بين الناس، فينمى خيرا أو يقول خيرا» وقالت : لم أسمعه يرخص فى شىء مما يقوله الناس، إلا فى ثلاث : فى الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها [٩٦] .

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَآءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. أى : ومن يتناج ويتحدث مع غيره - فى خلوة - بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس، ويرشده إليها وينصحه بها؛ فسوف يعطيه الله على ذلك ثوابا جزيلا : يناسب عظمة المنعم .

وإذا كان هذا ثواب التناجى بها، والإرشاد إليها، فثواب فعلها أعظم .

أما أن يأمر بها الإنسان ولا يفعلها، فذلك جرمه عظيم، ووعيده شديد، قال تعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَالاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُون﴾ . (الصف: ٢، ٣)

١١٥- وَمَن يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا .

المعنى : ومن يخالف الرسول فيما أمر به عن الله تعالى أو نهى عنه، ويتبع غير طريق المؤمنين فى عقيدته أو عمله، بأن يكفر أو يترك الواجبات، أو يفعل المنهيات - من بعد ما ظهر له ما يهديه من أدلة اليقين وأحكام الدين - نتركه وما تولاه وانصرف إليه، وقام به من الكفر والمعاصى .. فلا نلطف به لصرف قواه إليه، وعدم مراجعته نفسه فيه، وندخله جهنم فيخلد فيها إن كان كافرا ويعاقب فيها على قدر معصيته إن كان عاصيا .. وقبحت جهنم مصيرا !

فلا ينبغى لعاقل أن يقترف من المعاصى ما يجعلها مصيرا له ومآلا .

الأحكام :

استدل الإمام الشافعى - رضى الله عنه - بهذه الآية، على أن الإجماع من أهل الحق حجة .

جاء فى تفسير روح المعانى للالوسى ٥/١٤٩ .

عن المزنى أنه قال : «كنت عند الشافعى يوما، فجاءه شيخ عليه لباس صوف وبيده عصا، فلما رآه ذا مهابة، استوى جالسا، وكان مستندا إلى الأسطوانة [٩٧] وسوّى ثيابه : فقال الشيخ : ما الحجة فى دين الله تعالى ؟ قال الشافعى : كتابه . قال : وماذا ؟ قال سنة نبيه ﷺ . قال : وماذا ؟ قال: اتفاق الأمة . قال : من أين هذا الأخير ؟ أهو فى كتاب الله تعالى ؟ فتدبر الشافعى ساعة ساكتا فقال له الشيخ: أجّلتك ثلاثة أيام بلياليهن، فإن جئت بآية، وإلا فاعتزل الناس .. فمكث ثلاثة أيام لا يخرج. وخرج فى اليوم الثالث بين الظهر والعصر، وقد تغير لونه، فجاءه الشيخ وسلم عليه وجلس، وقال : حاجتى : فقال : نعم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم . قال الله تعالى: وَمَن يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ...الآية. فدلت الآية على أن اتباع سبيل المؤمنين فيما يذهبون إليه من الأحكام فرض؛ لورود الوعيد فيمن لم يتبع سبيلهم . قال الشيخ : صدقت وقام وانصرف [٩٨] .

والآية لا تفيد الخلود فى النار لمن يرتكب المعاصى، بل تفيد عقوبتهم بالصيرورة إلى النار، وذلك لا يقتضى التأبيد، خلافا لمن زعم ذلك من الخوارج، حيث زعموا أن مرتكب الكبيرة كافر خالد فى النار، ويجسم دعواهم قوله تعالى : إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ...

روى الترمذى عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - أنه قال : ما فى القرآن آية أحبُّ إلى من هذه الآية : إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ...

وفيما يلى نص تفسيرها .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾

المفردات :

ما دون ذلك : ما سوى الشرك من المعاصى .

ضلالا بعيدا : أى: بُعدًا عن الحق عظيما .

إن يدعون : ما ينادون ، أو ما يعبدون .

إلا إناثا : أى: معبودات كالإناث فى الضعف ، وعدم القدرة على الإسعاف بالمطلوب . وفيها معانٍ أخرى، ستأتى فى الشرح بمشيئة الله .

شيطانا مريدا : الشيطان هنا : إبليس – لعنه الله – والمريد: بمعنى: المتمرد على الطاعة . أو المتمرد للشر . من قولهم : شجرة مرداء . وهى التى سقط ورقها .

لعنه الله : طرده من رحمته .

لأتخذنَّ : الاتخاذ: أخذ الشيء على وجه الاختصاص .

نصيبا مفروضا : حظًا مقسومًا . وسيأتى بيانه فى الشرح .

ولأمنينهم : أى: لأعللنهم بالأمانى الكاذبة .

فَلَيُبَتِّكُنَّ آذان الأنعام : الأنعام: الإبل والبقر والغنم والمعز . وغلب استعمالها فى الإبل خاصة . وتبتيك الأنعام : تقطيع آذانها أو شقها . وكانوا يفعلون ذلك فى الجاهلية وسيأتى بيانه.

فليغيرن خلق الله : صورةً أو صفة ، كفَقْإ عين الفحل . وسيأتى بيانه ، وكخصاء العبيد، وإتيان الذكور بدل الإناث .

وليا من دون الله : أى: معبودا وناصرا ، متجاوزا ، وتاركا له .

خسرانا مبينا : أى: خسرانا بينا واضحا .

إلا غرورًا : إلا إيهاما وغشا وخداعا .

مأواهم جهنم : مستقرهم ومرجعهم .

محيصًا : معدلا ومهربا .

التفسير:

١١٦ - إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ ... الآية

سبب النزول :

فى سبب نزول هذه الآية قولان :

أحدهما : أنه نزلت فى حق طعمة بن أبيرق لما هرب من مكة ومات على الشرك وهذا قول الجمهور .

والثانى : أن شيخا من الأعراب جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : إنى منهمك فى الذنوب، إلا أنّى لم أشرك بالله منذ عرفته، وإنى لنادم مستغفر فما حالى فنزلت هذه الآية ..

روى هذا القول عن ابن عباس [٩٩] .

تمهيد :

الشرك بالله كبيرة وإثم وخروج عن مألوف الفطرة فقد خلق الله الإنسان بيده، ونفخ فيه من روحه، وفضّله على كثير من خلقه، ووضع له الدلائل والأمارات على ألوهيته، ونادى الإنسان بقوله: **يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ.** (البقرة: ٢١).

وفى الحديث الصحيح : «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال : الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وقول الزور وشهادة الزور» [١٠٠].

المعنى :

إن الله لا يغفر لطعمة بن أبيرق إذ أشرك ومات على شركه بالله، ولا لغيره من خلقه بشركهم وكفرهم [١٠١].

وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ. ويغفر ما دون الشرك بالله من الذنوب؛ إذا ندم المذنب وتاب إلى الله.

وهذه الآية من أرجى آيات المغفرة فى القرآن الكريم، والمقصود من الشرك بالله: الكفر به مطلقا، فيشمل نسبة الولد أو الصاحبة إليه، وإنكار وجوده - سبحانه وتعالى - وإنما ذكر الشرك فى الآية؛ لأنه كان الاعتقاد السائد فى الجزيرة العربية التى نشأت فيها الدعوة الإسلامية .

وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا. ومن يجعل لله فى عبادته شريكا، أو يكفر به بأى وجه فقد ذهب عن طريق الحق وزال عن قصد السبيل ذهابا بعيدًا، وزوالا شديدًا، وذلك أنه بإشراكه بالله فى

عبادته قد أطاع الشيطان وسلك طريقه وترك طاعة الله ومنهاج دينه فذلك هو الضلال البعيد والخسران المبين [١٠٢].

وجاء فى تفسير ابن كثير : روى الترمذى عن على رضى الله عنه قال : ما فى القرآن آية أحب إلى من هذه الآية إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ... الآية [١٠٣].

١١٧- إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا ...

نقل ابن جرير الطبرى عدة آراء فى معنى الإناث، وقد اختصرها ابن الجوزى فى زاد المسير فقال: وللمفسرين فى معنى الإناث أربعة أقوال :

١ - الإناث بمعنى: الأموال؛ قال الحسن : كل شىء لا روح فيه كالحجر والخشبة فهو إناث .

٢- الإناث : الأوثان، وهو قول عائشة ومجاهد .

٣ - أنها الملائكة، كانوا يزعمون أنها بنات الله، قال تعالى : وَجَعَلُواْ الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمنِ إِنَاثًا. (الزخرف: ١٩) .

٤ - إن الإناث: اللات والعزى ومناة كلهن مؤنث، روى عن الحسن قال : لم يكن حى من أحياء العرب إلا ولهم صنم يسمونه أنثى بنى فلان، فنزلت هذه الآية، قال الزجاج: والمعنى ما يدعون إلاَّ ما يسمونه باسم الإناث .

قال الطبرى : وأولى التأويلات بالصواب قول من قال :

عنى بذلك الآلهة التى كان مشركو العرب يعبدونها من دون الله، ويسمونها الإناث من الأسماء كاللات والعزى ونائلة ومناة وما أشبه ذلك .

وإنما قلنا ذلك أولى بتأويل الآية؛ لأن الأظهر من معانى الإناث فى كلام العرب، ما عرف بالتأنيث دون غيره، فإذا كان ذلك كذلك، فالواجب توجيه تأويله إلى الأشهرمن معانيه .

وإذا كان ذلك كذلك فتأويل الآية :

إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا. ما يدعو الذين يشاقون الرسول، إلا ما سموه بأسماء الإناث، كاللات والعزى وما أشبه ذلك .

وحسب هؤلاء الذين أشركوا بالله، وعبدوا الأوثان والأصنام، حجة عليهم فى ضلالهم وكفرهم، أنهم يعبدون إناثا ويدعونها آلهة وأربابًا، والإناث من كل شىء أخسَّه، فهم يقرون للخسيس من الأشياء بالعبودية، على علم منهم بخساسته، ويمتنعون عن إخلاص العبودية للذى له ملك كل شىء وبيده الخلق والأمر [١٠٤].

وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدا وما يعبدون أو ما ينادون في الواقع إلا شيطانا شريرا عاتيا متمردًا، خارجا عن الطاعة، وهو إبليس؛ فهو الذى زين لهم دعاءها وعبادتها؛ فأطاعوه، فكانت طاعتهم له عبادة.

١١٨ – لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا .

لَّعَنَهُ اللَّهُ . طرده وأبعده عن رحمته؛ لتمرُّده واستكباره عن طاعة ربه، وعدم سجوده لآدم، فأخرجه الله من الجنة مذمومًا مدحورًا مطرودًا من رحمة الله فى عاجله وآجله .

وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا. أى: بعد أن لعنه الله وطرده من جواره، قال يخاطب الله تعالى: لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا. يريد توكيد استيلائه – بالوسوسة – على إرادة أبناء آدم عدوه؛ حتى يسخرها فى سبيل الغواية والفساد عقيدة وعملاً حتى كأنهم نصيب مفروض مقطوع له.

قال الزجاج : الفرض فى اللغة: القطع، والفرض فيما ألزمه الله العباد جعله حتما عليهم قاطعا.

وقال مقاتل : النصيب المفروض : أن من كل ألف إنسان واحد فى الجنة وسائرهم فى النار، وفى تفسير القرطبى ٣٨٨/٥ قلت : وهذا صحيح معنى، يعضده قوله تعالى لآدم يوم القيامة : «ابعث بعث النار، فيقول : وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين»[١٠٥] أخرجه مسلم، وبعث النار : هو نصيب الشيطان .

وفى تفسير ابن كثير : وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا. أى: معينا مقدرا معلوما. قال قتادة: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة[١٠٦] .

وقال ابن قتيبة : أى: حظا أفترضه لنفسى منهم فأضلهم[١٠٧] .

١١٩ – وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الأَنْعَامِ ...

يؤكد الشيطان اللعين توكيدًا بعد توكيد، أنه سيضل عباد الله عن الحق .

قال الألوسى: وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ. الأمانى الباطلة، وأقوالهم : ليس وراءكم بعث، ولا نشر، ولا جنة، ولا نار، ولا ثواب ولا عقاب، فافعلوا ما شئتم، وقيل: أمنِّيهم بطول البقاء فى الدنيا فيسوِّفون فى العمل. وقيل: أمنيهم بالأهواء الباطلة، الداعية إلى المعصية، وأزيِّن لهم شهوات الدنيا وزهراتها، وأدعو كلا منهم إلى ما يميل إليه طبعه فأصدُّه بذلك عن الطاعة .

وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الأَنْعَامِ . يؤكد الشيطان أنه سيأمرهم بتبكيت آذان الأنعام؛ فيطيعون أمره . . وتبكيت آذان الأنعام : تقطيعها أو شقّها .

وهذا إشارة إلى ما كانت الجاهلية تفعله ؛ من شق أو قطع أذن الناقة إذا ولدت خمسة أبطن، وجاء الخامس ذكرا ؛ وتحريم ركوبها، وسائر وجوه الانتفاع بها[١٠٨] .

وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ. إن الشيطان يوسوس للإنسان؛ ليخرجه عن فطرة الله، ويزحزحه عن منهج الله، ويدعوه إلى تغيير خلق الله؛ لتحقيق شهواته وأوهامه ولذائذه، كما يزين الشيطان لأتباعه تغيير فطرة الله تعالى وهى الإسلام .

ومن تغيير خلق الله: ترجُل النساء، وتخنث الرجال، واللواط والسحاق، وعبادة الشمس والقمر والنار والحجارة مثلا، واستعمال الجوارح والقوى فيما لا يعود على النفس كمالاً، ولا يوجب لها من الله سبحانه زلفى [١٠٩] .

ويلحق بذلك خصاء العبيد وهو حرام منهى عنه .

وهناك تغيير أمرت به السنّه، كالختان ووسم البهائم لحاجة تعريفها حتى لا تختلط بغيرها، والوسم: كىّ البهائم بمكواة يسمونها: الميسم .

جاء فى صحيح مسلم عن أنس قال : «رأيت فى يد رسول الله ﷺ الميسم وهو يسم إبل الصدقة والفىء، وغير ذلك؛ حتى يعرف كلّ مال فيؤدى فيه حقّه ولا يتجاوز به إلى غيره» [١١٠] .

كما يستثنى من تغير خلق الله الخضاب بالحناء .

وبالكتم – وهو السواد – لإرهاب العدو، والوشم لحاجة، وخضب اللحية وقص ما زاد منها على السنة ونحو ذلك [١١١] .

وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا. فى المراد بالولى قولان :

أحدهما : أنه بمعنى: الربّ .

والثانى : من الموالاة : أى: ومن يجعل الشيطان صاحبا يتبعه وينقاد له، متجاوزا أوامر الله تعالى، بإيثار ما يدعو إليه الشيطان على ما يأمر به الله .

فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا. أى: فقد خسر الدنيا والآخرة وتلك خسارة لا جبر لها، ولا استدراك لفائتها.

١٢٠– يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا .

يعد الشيطان عباد الله على معصيته أحلى الوعود المكذوبة، ويمنِّيهم بأحلى الأمانى الباطلة .

وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا. وهو إيهام النفع فيما فيه الضرر، وهذا الوعد والأمر إما بالخواطر الفاسدة، وإما بلسان أوليائه .

والغرور : الأمانى الكاذبة والباطل، أو يقول له : سيطول عمرك وتنال من الدنيا مرادك.

حتى إذا حصحص الحق، واحتاج المغرورون إلى الشيطان، قال لهم عدو الله : ما جاء فى الآية ٢٢ من سورة إبراهيم:

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُمْ.

١٢١ – أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا .

أولئك الذين يتخذون الشيطان وليا من دون مستقرهم جميعا فى جهنم ولا يجدون عنها معدلا يعدلون إليه ولا مهربًا ينجيهم من عذابها .

يقال: وقع فى حيص بيص، وحاص باص : إذا وقع فيما لا يقدر على التخلص منه، قال ابن يعيش شارح المفصل ١١٤/٤ تقول العرب: وقع الناس فى حيص بيص؛ إذا وقعوا فى فتنة واختلاط من أمرهم لا مخرج لهم منها .

★ ★ ★

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢) ﴾

المفردات :

خالدين فيها أبدًا : مقيمين فى الجنة دائما لا يبرحونها .

قيلا : أى: قولا .

التفسير:

١٢٢ – وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً .

قال الطبرى :

الذين صدّقوا الله ورسوله، وأقرُّوا لله بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالرسالة وأدُّوا الفرائض التى فرضها الله عليهم؛ سوف يدخلهم الله يوم القيامة ؛ بساتين تجرى من تحتها الأنهار باقين فى هذه الجنات دائمًا [١١٢] .

وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا. أى: عدة الله لهم يقينا صادقًا ؛ وذلك على العكس من وعود الشيطان الكاذبة وأمانيه الفارغة، فكلها غرور وأباطيل، وغش وخداع .

وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً . ومن أحد أصدق من الله قولاً ووعداً ؟! فهو الذى إذا قال صدق، وإذا وعد وفى، وكان رسول الله ﷺ يقول فى خطبته : «إن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار» (١١٣) .

★ ★ ★

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ ﴾

المفردات :

بأمانيكم : الأمانى: جمع أمنية. وخلاصة ما قاله الراغب فى معناه : أنها هى الصورة الحاصلة فى النفس ، المترتبة على التمنى . أما التمنى : فهو الرغبة الشديدة فى شىء يقدره الشخص فى نفسه .

وليا : أحدا يلى أمر الدفاع عنه بالقول .

ولا نصيرا : ينصره ويمنعه بالقوة من العقاب .

نقيرا : النقير هو النقرة فى ظهر النواة . وهو مثل يضرب للقلة والحقارة .

أسلم وجهه : الوجه هنا مجاز عن الذات أى : أخلص ذاته ونفسه لله .

حنيفا : مائلا عن الأديان الباطلة .

واتخذ الله ابراهيم خليلا : الخليل – كما قال الزجاج – : هو من ليس فى محبته خلل .. ا هـ . فمعنى اتخذ إبراهيم خليلا : أنه تعالى ، أحبه حبًّا لا نقص فيه ، واصطفاه اصطفاء كاملا .

محيطا : عليما شامل العلم .

التفسير:

١٢٣– لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلآ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ... الآية.

لما بيَّن الله سوء مصير من اغتر بوعود الشيطان وأمانيه الكاذبة، وعقبه بذكر حسن مصير المؤمنين الصالحين، أتبع ذلك بيان أن الأمر – بعد الموت – لا يكون بالتمنى من هؤلاء وأولئك، بل

يكون بالعمل الصالح، فإن الآخرة هى دار الجزاء .. والجزاء من جنس العمل . فمن يعمل سوءاً يجز به سوءًا ومن يعمل خيرا يجز به خيرا . ولا يظلم ربك أحدا .

سبب النزول :

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم: عن السدى، قال : التقى ناس من المسلمين واليهود والنصارى، فقال اليهود للمسلمين : نحن خير منكم، ديننا قبل دينكم، وكتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن على دين إبراهيم، ولن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وقالت النصارى : مثل ذلك. فقال المسلمون : كتابنا بعد كتابكم، ونبينا ﷺ بعد نبيكم، وديننا بعد دينكم، وقد أمرتم أن تتبعونا وتتركوا أمركم، فنحن خير منكم، ونحن على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحق . ولن يدخل الجنة إلا من كان على ديننا؛ فأنزل الله: **لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ** ... الآية .

وقال القرطبى : من أحسن ما قيل فى سبب نزولها، ما رواه الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس . قال : قال اليهود والنصارى لن يدخل الجنة إلا من كان منا، وقالت قريش : ليس نبعث فأنزل الله : **لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ** ... الآية .

وليس هناك ما يمنع نزول الآية للسببين، فحكمهما عام : للمسلمين وأهل الكتاب والمشركين ومن فى حكمهم من سائر الكافرين، كما سيتضح فى الكلام على المعنى .

والمعنى : ليس الفوز بدخول الجنة والتقلب فى نعيمها الذى وعده الله الصالحين، حاصلا بأمانيكم – أيها المسلمون – ولا بأمانى أهل الكتاب، فإن الأمانى – وحدها – لا تحقق هذه الغاية العظيمة، وإنما يحققها – مع الإيمان – العمل الصالح . أما العمل النافع وحده فلا يحققها ؛ لخلوه من قصد وجه الله تعالى، وهذا يستلزم الإيمان . كما أن عدم البعث ليس بأمانى من أنكروا البعث، فإنه حاصل، وسيجزى بعده الناس على أعمالهم : **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** . (الزلزلة: ٧، ٨) ولذا قال الله بعده :

مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا . من يعمل عملا سيئًا، سواء أكان من كسب القلوب: كالكفر، والحقد، والحسد، وسوء الظن بالمسلمين، أم كان من كسب الجوارح: كالقتل، والسرقة، وأكل مال اليتيم، والتطفيف فى الكيل والميزان – يعاقبه الله عليه بما يسوءه، ولا يجد له أحدا ينقذه منه، من ولِىٍّ يدافع عنه بالقول والشفاعة، أو نصير ينصره بالقوة ... فالكل مقهور لله الواحد القهار.

ولما نزلت هذه الآية، كان لها أثر شديد فى نفوس المؤمنين .

يصوره ما أخرجه الترمذى وغيره عن أبى بكر رضى الله عنه – أنه قال للرسول – ﷺ – بعد أن سمعها : «بأبى أنت وأمى يا رسول الله ! وأينا لم يعمل سوءًا، وإنا لمجزيون بكل سوء عملناه!» [١١٤]

وما أخرجه الإمام مسلم وغيره عن أبى هريرة قال : «لما نزلت هذه الآية، شق ذلك على المسلمين، وبلغت منهم ما شاء الله تعالى – فشكوا ذلك إلى رسول الله – ﷺ – فقال : سدِّدوا وقاربوا، فإنَّ كلَّ ما أصاب المسلم كفارة، حتى الشوكة يشاكها، والنكبة ينكبها» (١١٥).

ومن هذا الحديث، نفهم أن الله تعالى، يكفر الخطايا بالبلايا – صغرت أم كبرت – والأحاديث الواردة فى هذا كثيرة .

ولهذا أجمع العلماء أن مصائب الدنيا وهمومها – وإن قلت مشقتها – تكفِّر بها الخطايا؛ إذا صبر صاحبها .

والأكثرون على أنها ترفع بها الدرجات، وتكفر بها السيئات .

وهو الصحيح المعول عليه .

ومما صح فى ذلك عن رسول الله – ﷺ – أنه قال : «ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة، ومحيت عنه بها سيئة» (١١٦) أورده الألوسى .

١٢٤– وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا.

إنها العدالة الإلهية فى عقاب المسيء ومكافأة المحسن ؛ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ .

وكان أهل الجاهلية يحجبون البنت من الميراث ويقولون: إنما يرث من يركب الفرس ويمسك السيف، ويحمى القبيلة، فسما الإسلام بالبنت وليدة وناشئة وزوجة وأما، وجعلها شريكة للرجل فى الإيمان والعمل الصالح والولاء، وجعل لها الحق فى البيع والشراء، وتملك الأموال والعقار .

وفى هذه الآية يضع قاعدة عامة هى :

من يعمل شيئًا من الأعمال الصالحة – من الذكور والإناث – فى حال إيمانه؛ فأولئك المؤمنون الصالحون يدخلون الجنة، ولا ينقصون شيئا من الثواب على أى عمل، ولو كان مشبها للنقير: فى القلة، والنقير: نقرة فى ظهر النواة، يضرب بها المثل فى أدنى الأمور .

قال الأستاذ سيد قطب: وهذه الآية نص صريح على وحدة القاعدة فى معاملة الذكر والأنثى، وفى اشتراط الإيمان لقبول العمل .

وهذه الألفاظ الصريحة تخالف ما ذهب إليه الأستاذ، الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله فى تفسير جزء عم عند قوله تعالى: فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. إذ رأى النص لعمومه هذا يشمل المسلم وغير المسلم بينما النصوص الصريحة الأخرى تنفى هذا تمامًا، وكذلك ما رآه الأستاذ، الشيخ: المراغى رحمه الله، وقد أشرنا إلى هذه القصة فى جزء عم «الجزء الثلاثين من الظلال» (١١٧) .

١٢٥ – وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ..

يحتاج العمل المقبول إلى ركنين أساسيين:

الأول : الإخلاص لله تعالى بهذا العمل، وأن يقصد به وجه الله، وأن يبعد به صاحبه عن الرياء والسمعة.

الثانى : أن يكون العمل موافقا للشرع، فقد حسنَّه الشرع فلا حسَن إلا ما حسنه الشرع .

ومتى فقد العمل واحدًا من هذين الركنين فسد، فمن عمل عملاً لغير الله لم يقبله الله، ومن عمل عملاً غير موافق لأصول الدين وقواعده وأحكامه كان مردودًا عليه، والآية تثبت ذلك والاستفهام منها بمعنى: النفى الإنكارى، والمعنى: لا يوجد أحسن – فى الدين – ممن أخلص نفسه وذاته لله، فلم يعرف لها ربا سواه، ولم يتوجه بوجهه لغيره سبحانه، يفعل ذلك وهو محسن فى عمله بألا يترك واجبا، ولا يفعل محرما .

وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا. قال ابن كثير : (وهم محمد وأتباعه إلى يوم القيامة) فمن آمن بالله ربًا وبمحمد رسولا، واختار الإسلام دينا؛ صار متبعًا ملة إبراهيم عليه السلام فى العقائد وأصول الأحكام.

ومعنى حَنِيفًا: أى: مائلا عن الأديان الزائفة؛ حال من إبراهيم عليه السلام ويجوز أن يكون حالا من فاعل وَاتَّبَعَ. أى: سار على الإسلام ملة ابراهيم حال كونه مائلا عن الأديان التى تشرك بالله سبحانه وتعالى.

وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً .. تذييل جىء به؛ للترغيب فى اتباع ملته عليه السلام والمعنى: أحبَّ الله إبراهيم حبا كاملا، لا خلل فيه ينقصه عن الكمال .

قال الالوسى : واتخذه الله خليلا؛ لإظهاره الفقر والحاجة إلى الله تعالى، وانقطاعه إليه، وعدم الالتفات إلى من سواه، كما يدل على ذلك قوله لجبريل عليه السلام حين قال له يوم ألقى فى النار : ألك حاجة ؟: أما إليك فلا، ثم قال: حسبى الله تعالى ونعم الوكيل، والمشهور أن الخليل دون الحبيب [١١٨].

وليس فى الآية ما يفيد قصر الخلة على إبراهيم؛ فقد اتخذ الله نبينا محمد – ﷺ – خليلا أيضا.

وروى مسلم: أن رسول الله ﷺ قال : «لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكنه أخى وصاحبى وقد اتخذ الله صاحبكم خليلا» [١١٩] .

وروى الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه: أن رسول الله ﷺ قال : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدى لواء الحمد ولا فخر، وما من نبى يومئذ – آدم فمن سواه – إلا تحت لوائى، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر ! » [١٢٠] .

١٢٦- وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ...

إنه سبحانه غنى عن الخليل أو المعين، فهو سبحانه مالك السماوات والأرض؛ متصف بالهيمنة والقهر والعلم والسلطان . وهذه الألوهية الحقة، تستدعى إخلاص العبادة والتوجه والعمل له سبحانه.

فهو مالك كل شيء، وهو بكل شيء محيط، وهو مهيمن على كل شيء، وفى ظل هذا التصور الإسلامى يصلح الضمير ويصلح السلوك وتصلح الحياة .

★ ★ ★

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾

المفردات :

الكتاب : القرآن .

يتامى النساء : اللائى لا حول لهن .

وترغبون أن تنكحوهن : تطمعون فى مالهن من الميراث والصداق ، فتتزوجونهن لذلك ، أو تمنعونهن من الزواج، وتعضلونهن لذلك .

والمستضعفين من الولدان : الأطفال اليتامى .

بالقسط : بالعدل .

التفسير :

١٢٧- وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ... الآية

الربط : فى هذه الآية - وما تلاها - رجوع إلى ما افتتحت به السورة من أمر النساء واليتامى.

وكان المسلمون قد بقيت لهم أحكام، سبق لهم السؤال عنها، فلم يجبهم الرسول - ﷺ - انتظارا للوحى .

روى أشهب عن مالك رضى الله عنهما، قال: كان النبى - ﷺ - يسأل فلا يجيب، حتى ينزل عليه الوحى، وذلك فى كتاب الله: وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَآءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فيهنَّ، وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ . (البقرة: ٢٢٠) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ . (البقرة: ٢١٩) وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ. (طه:١٠٥).

سبب النزول :

أخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جبير، قال: كان لا يرث إلا الرجل الذى قد بلغ أن يقوم فى المال ويعمل فيه، ولا يرث الصغير ولا المرأة شيئًا، فلما نزلت المواريث فى سورة النساء؛ شق ذلك على الناس، وقالوا: أيرث الصغير الذى لا يقوم فى المال، والمرأة التى هى كذلك، فيرثان كما يرث الرجل ؟! فرجوا أن يأتى فى ذلك حدث من السماء . فانتظروا، فلما رأوا أنه لا يأتى حدث قالوا: لئن تم هذا، إنه لواجب ما عنه بدٌّ ثم قالوا: سلوا .. فسألوا رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وروى غير ذلك فى سبب النزول ورجح هذا شيخ الإسلام: أبو السعود، كما قاله الالوسى .

ونحن نقول: إن سبب النزول لا يقتضى أنهم لم يسألوا إلا عما جاء فيه، بل سألوا عن غيره أيضا، ولهذا تضمنت الفتوى جواب سؤالهم الوارد فى سبب النزول، كما تضمنت عدة أحكام، ستأتى فى الآيات التالية، تتعلق بأمر النساء .

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَآءِ .

المعنى: ويستفتيك المسلمون - يا محمد - فى أحكام الإناث، فيطلبون منك بيان ما يشكل عليهم من أحكامهن، مما يجب لهن أو عليهن .

قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ .

المعنى: قل الله يفتيكم فى حكمهن ويبينه لكم . وكذا ما يتلى فى أمرهن، مما سبق نزوله قبل هذه الآية، فهو أيضا يفتيكم . ويبين لكم الحكم الشرعى الذى تسألون عنه .

والمقصود من الآية الكريمة: أن الله سيفتيكم - مستقبلا - فيما لم ينزل حكمه من شأن النساء، وأن ما سبق نزوله فيهن ويتلى عليكم . تظل الفتيا أيضًا فى أمرهن، فيكتمل بالفتاوى - السابقة واللاحقة - أحكامهن المشروعة .

وقد أشار المولى سبحانه بقوله :

وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَآءِ ... الآية . إلى ما سبق فى صدر هذه السورة عنهن وعن المستضعفين من الولدان ابتداء من قوله: وَءَاتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ... إلى آخر آيتى المواريث .

فِي يَتَامَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّلاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ... أى : ويفتيكم أيضا فيما يتلى عليكم فى شأن يتامى الإناث، اللاتى لا تؤتونهن - أيها الأولياء - ما كتب لهن من الميراث والصداق، وقد رغبتم فى الزواج بهن؛ طمعا فى الميراث والصداق فقد أوجب عليكم فيما نزل بشأنهن أول السورة - أن تقسطوا فى شأنهن، بألا تطمعوا فى أموالهن الموروثة، وأن تعطوهن من الصداق أعلى سنتهن، وتعدلوا بينهن وبين ضراتهن : فى القسم والنفقة وحسن العشرة ..

أو يكون المعنى: وإن أنتم رغبتم عن الزواج بهن، فلا تعضلوهن عن الزواج بغيركم ؛ طمعًا فى أموالهن.

وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ. أى : ويفتيكم فيما يتلى عليكم فى شأن المستضعفين من الأولاد والصغار اليتامى : ذكورا وإناثًا . فقد أوجب عليكم - فيما سبق - أن تحافظوا على أموالهم، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم، وأفهمكم أن أكل أموالهم ذنب كبير، وأوجب عليكم أن تؤدوا أموالهم إليهم عند بلوغهم رشدهم دون مماطلة .

وبالجملة: فقد أوجب عليكم - هنا، وفيما مر فى صدر هذه السورة - أن تقوموا لليتامى بالقسط والعدل، فى أمرهم كله. فلا تحاولوا أن تعودوا لما كنتم عليه فى الجاهلية، من توريث الرجال الذين يدافعون عن القبيلة وحرمان الصغار والنساء، فذلك جَوْرٌ لا يوافق عليه الإسلام ولا يقره.

وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ... أى : وما تفعلوا - أيها الأولياء - من خير فى حقوق من تقدم ذكرهم، فإن الله كان به عليما قبل أن يخلقكم، كما هو عليم به عند فعلكم له فيجزيكم عليه خير الجزاء .

وإنما اقتصرت الآية على ما يفعلونه من الخير، مع أنه يعلم ما يفعلونه من شر أيضا، ويجازى عليه بمثله ؛ للإيذان بأن الشر لا ينبغى أن يقع منهم وتحريضا على فعل الخير والاستدامة عليه .

وتكرار هذه الوصية باليتامى والنساء الضعاف - مع ما سبق فى أول السورة - لاجتثاث ما عسى أن يكون عالقا بالرجال من أطماع فى أموال الضعاف من يتامى النساء والولدان .

★ ★ ★

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾

المفردات :

خـــــــافت : علمت أو توقعت .

بـعـلـهـا : زوجها .

نشـــــوزا : أي: ترفعا [١٢١] .

أو إعـــراضـــا : أي: ميلا وعدم اهتمام .

فـــلا جـنـــاح : فلا حرج ولا إثم .

وأحضرت الأنفس الشحّ : أي: جعل الشح حاضرا فى الأنفس ملازما لها ، والشح : البخل الشديد .

كـــالمعـــلـــقـــة : المرأة المعلقة ؛ هى التى ليست مطلقة ولا صاحبة زوج ، كما قال ابن عباس رضى الله عنه . أو هى المسجونة . كما قال قتادة رضى الله عنه .

يغن الله كلاً من سعته: أي: يغن الله كليهما من غناه الواسع .

التفسير :

١٢٨ – وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ... الآية

رسم القرآن الكريم سبيل الحياة الزوجية، وآداب العشرة بين الزوجين فى الخلاف والوفاق .

وقد رعى القرآن فطرة الإنسان فالله خالق الإنسان وهو أعلم به، وقد تكبر الزوجة، أو يزهد الرجل فيها، أو يعزم على طلاقها، وترى الزوجة أنها فى حاجة إلى بقائها فى عصمة الزوج وجواره؛ فتتنازل له عن شيء من مهرها أو عن بعض حقوقها فى المبيت، فإذا فعلت ذلك جاز للزوج أن يقبل ذلك . ويجب ألا يتمادى فى الظلم بل يكون عادلاً مع تنازل الزوج.

وفى الصحيحين من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: قالت: لما كبرت سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة فكان النبى ﷺ يقسم لها بيوم سودة [١٢٢] .

وفى صحيح البخارى : عن هشام عن أبيه عروة قال : «لما أنزل الله فى سودة وأشباهها: وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا. وذلك أن سودة كانت امرأة قد أسنَّت ففرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ، وضنت بمكانها منه، وعرفت من حب رسول الله ﷺ عائشة ومنزلتها منه؛ فوهبت يومها من رسول الله ﷺ لعائشة فقبل ذلك رسول الله ﷺ [١٢٣] وكذلك رواه أبو داود، والحاكم فى مستدركه .

وقال البخارى : حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة :

وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ... قالت : الرجل تكون عنده المرأة المسنة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها فتقول : أجعلك من شأنى فى حل فنزلت هذه الآية .

وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا [١٢٤] .

معنى الآية : إذا رأت الزوجة من زوجها تغييرًا فى معاملته أو انصرافا عنها وإعراضًا .

وأمارات النشوز : الغلظة والجفاء .

وأمارات الإعراض : أن يقلل من محادثتها ومؤانستها، وأن يتساهل فى تحقيق رغباتها ؛ إما لدمامتها، أو لكبر سنّها، أو لغير ذلك .

فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ... أى: فلا إثم على الزوجة فيما تفعله؛ لإصلاح ما بينها وبين زوجها، من إعفائه من صداقها أو نفقتها أو بعضهما، أو من مسكن أو كسوة، أو فيما تعطيه من مالها، أو فيما تنزل له عنه من نصيبها فى القسم، تستعطفه بذلك، وتستديم المقام فى عصمته والتمسك بالعقد الذى بينه وبينها من النكاح، ولا إثم على الزوج فى قبول ذلك منها، فإن ذلك لا يعتبر رشوة حتى يتحرجا منها، بل يعتبر سبيلا إلى عودة المودة واستمرار الزوجية بينهما، وذلك أسمى فى نظر الدين من تلك الماديات اليسيرة التى تعينت لعودة المودة بينهما .

روى أبو داود والطيالسى عن ابن عباس :

«فما اصطلحا عليه من شىء فهو جائز»

وَالْصُّلْحُ خَيْرٌ ...

قال الطبرى : يعنى : والصلح يترك بعض الحق؛ استدامة للحرمة وتمسكا بعقد النكاح، خير من طلب الفرقة والطلاق [١٢٥] .

وروى أبو داود وابن ماجه عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ «أبغض الحلال إلى الله الطلاق» [١٢٦] .

سأل رجل الإمام عليا عن قول الله عز وجل .

وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ... فقال : يكون الرجل عنده المرأة فتنبو عيناه عنها . من دمامتها، أو كبرها، أو سوء خلقها، أو قذرها، فتكره فراقه، فإن وضعت له شيئًا من مهرها حلٌ له وإن جعلت له من أيامها فلا حرج [١٢٧] .

وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ...

قال الطبرى : أحضرت أنفس النساء الشح بأنصبائهن من أزواجهن فى الأيام والنفقة، فتأويل الكلام: وأحضرت أنفس النساء أهواءهنَّ؛ من فرط الحرص على حقوقهن من أزواجهن، والشح بذلك على ضرائرهن .

من المفسرين من قال : عنى بذلك .

«وأحضرت أنفس الرجال والنساء الشح» .

المعنى :

وجعل البخل والحرص على النفع الذاتى، حاضرًا فى الأنفس ملازمًا لها، لا يغيب عنها؛ لأنَّه من طبعها، فلذا لا تكاد الزوجة تفرِّط فى حقوقها عند الزوج، ولا يكاد الزوج يجود بالإنفاق وحسن المعاشرة لمن لا يريدها .

وإذا كان ذلك هو ما فطرت عليه النفوس، فينبغى – لكل من الزوجين – أن يقدِّر حرص الآخر على مصلحته، فلا يهدرها تمامًا، فتُرضى الزوجة حرص الزوج بالبذل والتضحية، ويرضى الزوج حرص الزوجة فلا يقسو عليها فى مطالبه [١٢٨] .

وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ... وإن تحسنوا – أيها الرجال – فى أفعالكم إلى نسائكم إذا كرهتم منهن دمامة أو خُلقًا، أو بعض ما تكرهون منهن بالصبر عليهن، وإيفائهن حقوقهن وعشرتهن بالمعروف [١٢٩]

وَتَتَّقُوا. الله فيهن بترك الجور منكم عليهن وعدم إكراههن على ترك شىء من حقوقهن .

قال ابن كثير : وإن تتجشموا مشقة الصبر على ما تكرهون منهن، وتقسموا لهن أسوة بأمثالهن فإن الله عالم بذلك وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء .

١٢٩ - وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُم .

العدل بين النساء مطلوب فى الأمور المادية وهى النفقة والكسوة والمبيت وما يتصل بذلك من حقوق الزوجة، أما العدل فى الأمور القلبية من الحب وما يتصل به فغير مستطاع. وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه ويعدل ثم يقول: «اللهم، هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك» يعنى: القلب .

وهناك آيتان فى سورة النساء تتحدثان عن هذا الموضوع: الآية الثالثة من سورة النساء حيث قال سبحانه :

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ .

والآية ١٢٩ من سورة النساء - التى نتكلم عن تفسيرها - وهى:

وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُم فَلاَ تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا .

وقد فهم بعض الناس فهما خاطئًا مؤداه: أن الإسلام نهى عن تعدد الزوجات؛ لأنه قال فى الآية الثالثة من سورة النساء. فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً .

وقال فى الآية ١٢٩ من سورة النساء: وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُم. أى: ومادام العدل غير مستطاع؛ فقد وجب الاقتصار على زوجة واحدة .

وهذا فهم خاطئ .

لأن قوله تعالى: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً. يتكلم عن العدل المادىّ فى المأكل والمسكن والمبيت.

وقوله سبحانه: وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُم. يتكلم عن العدل فى الحب وميل القلب.

فالله خالق الإنسان وهو أعلم به .

وإذا كان العدل فى أمور الحب غير مستطاع . فإن على الإنسان ألاّ ينساق وراء الأسباب الداعية إلى الميل بقدر طاقته ويعفى عما خرج عن الطوق .

أى: إذا عجزتم عن تحقيق العدل فى الحب وميل القلب؛ فلا تميلوا إلى من تحبونها كل الميل

بحيث تتركون الضرَّة الأخرى أشبه بالمرأة المعلَّقة التى تركها زوجها فلا هى متزوجة تتمتع بحب الزوج ورعايته وعطفه ولا هى مطلقة تلتمس الأزواج ويتقدم لها الخُطَّاب .

قال تعالى : فَلاَ تَمِيلوا كُلَّ الْمَيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ...

قال الطبرى : وإنما أمر الله جل ثناؤه بقوله : فَلاَ تَمِيلوا كُلَّ الْمَيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ. الرجال بالعدل بين أزواجهن فيما استطاعوا فيه العدل بينهن، من القسمة بينهن، والنفقة وترك الجور .. فى ذلك بتفضيل إحداهن على الأخرى فيما فرض عليهم العدل بينهن فيه، إذ كان قد صفح لهم عما لا يطيقون العدل فيه بينهن مما فى القلوب من المحبة والهوى [١٣٠] .

وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا .

قال الطبرى : وإن تصلحوا أعمالكم – أيها الناس – فتعدلوا فى قسمكم بين أزواجكم، وما فرض الله لهن عليكم من النفقة والعشرة بالمعروف .

وَتَتَّقُوا الله فى الميل الزائد لإحداهن .

فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا . يغفر لكم ما سبق من التقصير فى حق بعض الزوجات ويتوب عليكم من الميل إلى بعض الزوجات دون بعض .

١٣٠– وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ ... الآية

فإن قبلت المرأة التى قد نشز عليها زوجها، الصلح بصفحها لزوجها عن يومها وليلتها، وطلبت حقها منه من القسم والنفقة وما أوجب الله لها عليه، وأبى الزوج عليها ذلك فتفرقا بطلاق الزوج لها؛ فإن الله يغنه عنها ويغنها عنه، بأن يعوضه الله من هو خير له منها، ويعوضها عنه بمن هو خير لها منه .

وَكَانَ اللَّهُ واسعًا حَكِيمًا ... أى: كان الله ولا يزال واسع الغنى كافيًا، حَكِيمًا. فى جميع أفعاله وأقداره وشرعه .

★ ★ ★

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾

المفردات :

ولقد وصينا : ولقد أمرنا أمرا مؤكدًا .

الذين أوتوا الكتاب من قبلكم : المراد بهم: أهل الكتب السماوية السابقون جميعًا: اليهود، والنصارى، وغيرهم .

حميدًا : مستحقًا للحمد ، وإن لم يحمده الحامدون .

وكفى بالله وكيلا : وكفى به قيما وكفيلا ؛ تُوكل إليه الأمور .

التفسير :

١٣١ - وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ... الآية

ولله جميع ملك ما حوته السماوات السبع والأرضون السبع من الأشياء كلها .

وإنما ذكر جل ثناؤه ذلك بعقب قوله : وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ. تذكيرًا منه لخلقه باللجوء إلى ذلك الباب عند الشدائد والخطوب، فمن كان له ملك السماوات والأرض خلقا وملكا وتصرفًا لا يتعذر عليه إغناء الزوجين بعد فرقتهما، ولا إيناسهما بعد وحشتهما .

وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللَّهَ ...

قال الطبري : رجع جلّ ثناؤه إلى عذْل من سعى في أمر بني أبيرق وتوبيخهم، ووعيد من فعل فعل المرتد منهم فقال : وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ .. يقول :

ولقد أمرنا أهل الكتاب، وهم أهل التوراة والإنجيل وَإِيَّاكُمْ وأمرناكم وقلنا لكم ولهم: اتَّقُواْ اللَّهَ يقول : احذروا الله أن تعصوه و تخالفوا أمره ونهيه [١٣١] .

وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ... وقلنا لهم ولكم : إن تكفروا وتجحدوا وصيته إياكم فتخالفوها؛ فإنكم لا تضرون غير أنفسكم؛ فالله غني حميد لا يضره كفركم ومعاصيكم،

ولا ينفعه إيمانكم وتقواكم وفى الآية الثامنة من سورة إبراهيم: وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ .

وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا . أى: كان قبل أن تكونوا، ولا يزال بعد ما كنتم .

غَنِيًّا . عن عباده غير محتاج إلى سواه .

حَمِيدًا . أى: محمودا فى جميع ما يقدره ويشرعه .

١٣٢- وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً .

ولله ملك جميع ما حوته السماوات والأرض، وهو القيّم بجميعه، والحافظ لذلك كله، لا يعزب عنه علم شيء منه، ولا يؤوده حفظه وتدبيره؛ فهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب الشهيد على كل شيء .

١٣٣- إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ... أى: هو قادر على إهلاككم وإفنائكم وتبديلكم بناس آخرين غيركم؛ لمؤازرة نبيه محمد ﷺ ونصرته .

وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ...

قال الطبرى : وكان الله على إهلاككم وإفنائكم، واستبدال آخرين غيركم قديرًا يعنى: ذا قدرة على ذلك [١٣٢] .

كما قال تعالى : وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ... (محمد: ٣٨).

قال بعض السلف:

ما أهون العباد على الله؛ إذا أضاعوا أمره .

وقال عز شأنه : إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ . (فاطر: ١٦، ١٧).

١٣٤- مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ... من كان قاصر الهمة على السعى للدنيا فقط؛ فقد ضيّع على نفسه خيرًا أكثر فإنه لو قصد وجه الله بعمله؛ لحصل على ثواب الدنيا والآخرة، فعند الله من هذه وهذه، وإذا سألته أعطاك وأغناك كما قال تعالى : فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ * وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ . (البقرة: ٢٠٠ - ٢٠٢) .

وقال تعالى : مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَما لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ... (الشورى: ٢٠).

وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ... أي: وكان الله سميعًا لما يقول العباد، بصيرا بأعمالهم ونياتهم فيجازي كلا على حسب حاله .

وذهب الطبري إلى أن معنى الآية :

وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا . أي: من المنافقين الذين أظهروا الإيمان لأجل ذلك .

فإن الله مجازيه به جزاءه في الدنيا .

وجزاؤه في الآخرة العقاب والنكال .

كما قال في الآية الأخرى :

مَن كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ... (هود : ١٥، ١٦) .

والإمام ابن كثير نقل رأى الطبري وقال: إن هذا التفسير للطبري فيه نظر : فإن قوله تعالى : فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. ظاهر في حصول الخير في الدنيا والآخرة .

أي بيده هذا وهذا فلا يقتصر قاصر الهمة على السعي للدنيا فقط بل لتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة؛ فإن مرجع ذلك إلى الذي بيده الضر والنفع وهو الله الذي لا إله إلا هو .

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾

المفردات :

قوامين بالقسط : قائمين بالعدل مع المواظبة عليه ، والمبالغة فيه .

وإن تلووا : وإن تميلوا ألسنتكم بالشهادة ، بالإتيان بها على غير وجهها .

أو تعرضوا : أي: تتركوا إقامتها أو تقيموها على غير وجهها .

التفسير :

١٣٥ - **يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ** ... الآية .

هذه الآية - والتى بعدها - فيهما امتداد للحديث عن العدل، الذى سبق طرف منه فى الآيات السابقة.
وبين الإيمان والعدل رباط وثيق ؛ لأن الإيمان الصحيح، يقتضى إقامة العدل والقسط بين الناس .

والمعنى : يأيها الذين آمنوا، كونوا مواظبين على العدل فى جميع الأمور، مجتهدين فى إقامته كل الاجتهاد ؛ لا يصرفكم عنه صارف . وكونوا شهداء ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين . وذلك بأن تقيموا شهاداتكم بالحق خالصة لوجه الله، لا لغرض من الأغراض الدنيوية، مهما يكن أجره، ولو عادت الشهادة بالضرر عليكم، أو على الوالدين والأقربين . فإن الحق أحق أن يتبع، وأولى بالمراعاة من كل عاطفة وغرض .

إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ... أى : إن يكن المشهود عليه غنيًا يُرجى نفعه . أو فقيرا يثير فقره الرحمة، فلا تتأثروا بذلك كله فى شهاداتكم . فالله أولى بالأغنياء والفقراء، وأحق منكم برعاية ما يناسب كلا منهما . ولولا أن أداء الشهادة على وجهها فيه مصلحة لهما، لما شرعه الله . فراعوا أمره - تعالى - فإنه أعلم بمصالح العباد منكم .

فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا ... أى : فلا تتبعوا فى شهاداتكم - على هذا أو ذاك - هواكم : كارهين إقامة العدل فى شهاداتكم من أجل الرغبة فى مصلحتهما ؛ لأن اتباع الهوى والميل، ضلال لا يليق بالمؤمنين . وإقامة العدل حقّ وهدى: يجب على المؤمنين - وجوبا مؤكدًا - أن يتصفوا به .

وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ... أى: وإن تميلوا ألسنتكم عن الشهادة بالإتيان بها على غير وجهها الذى تستحقه أو تعرضوا عنها وتتركوا إقامتها وتهربوا من أدائها - **فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ** . من التحريف، أو الكذب، أو ترك الشهادة وكتمانها **خَبِيرًا** . وعليما .

قال تعالى : **وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** ... (البقرة: ٢٨٣).

قال الطبرى : وهذه الآية عندى تأديب من الله جل ثناؤه عباده المؤمنين أن يفعلوا ما فعله الذين عذروا بنى أبيرق - فى سرقتهم ما سرقوا وخيانتهم ما خانوا - عند رسول الله ﷺ لهم عنده بالصلاح فقال لهم : إذا قمتم بالشهادة لإنسان أو عليه؛ فقولوا فيها بالعدل . ولو كانت شهادتكم على أنفسكم وآبائكم وأمهاتكم وأقربائكم، ولا يحملنكم غِنى من شهدتم له، أو فقره أو قرابته ورحمة منكم على الشهادة له بالزور، ولا على ترك الشهادة عليه بالحق وكتمانها [١٣٣] .

والآية بعد كل هذا تظل معلما رفيعًا، ومنارة هادية إلى الشهادة بالحق ولو كان ذلك على الإنسان أو قرابته أو من يهمه أمرهم لأى سبب كان كرعاية الجار، أو الطمع فى جاره، أو منصب عند حاكم، أو انتصار لطائفة أو مذهب، أو نحو ذلك وما جاء فى الآية إنما هو من باب ضرب المثل .

جاء فى تفسير ابن كثير :

ومن هذا قول عبد الله بن رواحة لما بعثه النبى ﷺ يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزرعهم فأرادوا أن يرشوه؛ ليرفق بهم؛ فقال : والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلى، ولأنتم أبغض إلى من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملنى حبّى إياه وبغضى لكم على ألا أعدل فيكم، فقالوا : بهذا قامت السماوات والأرض .

١٣٦- يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ ءَامِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنزَلَ مِن قَبْلُ ... الآية

يخاطب الله تعالى بهذه الآية أهل الكتاب فقد كان لهم نوع من الإيمان والتصديق ولكنه إيمان غير كامل . فقد آمن اليهود بموسى وبالتوراة وكفروا بعيسى وبالإنجيل، كما آمن النصارى بموسى وبعيسى وكفروا بمحمد ﷺ .

قال الطبرى فى تفسير الآية :

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ . بمن قبل محمد من الأنبياء والرسل، وصدقوا بما جاءوهم به من عند الله .

ءَامِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ . صدقوا بالله وبمحمد رسوله، أنه لله رسول، مرسل إليكم وإلى سائر الأمم قبلكم.

والكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ . وصدّقوا بما جاءكم به محمد من الكتاب الذى نزّله الله عليه وهو القرآن الكريم .

وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنزَلَ مِن قَبْلُ . وآمنوا بالكتاب الذى أنزله الله من قبل القرآن وهو التوراة والإنجيل.

وقال ابن كثير : **وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنزَلَ مِن قَبْلُ** .. جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة، وقال فى القرآن نزّل؛ لأنه نزل منجما على الوقائع بحسب ما يحتاج إليه العباد فى معاشهم ومعادهم .

وأما الكتب السابقة فكانت تنزل جملة واحدة؛ لهذا قال تعالى : **وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنزَلَ مِن قَبْلُ** .

وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَومِ الآخِرِ ... ومن يكفر بمحمد ﷺ وبما جاء من عند الله، فقد كفر بجميع ما أمر الله به؛ لأنه فرّق بين الرسل وقال : **نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ**.. وهذا خروج عن دين الله وهديه واتباع للضلال والهلاك .

فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيدًا ... فقد بعد عن الحق بعدًا سحيقا؛ لأن الخروج عن دين الله وهديه يتبعه الهلاك والضلال والبوار.

ومن المفسرين من قال: معنى: يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ ءَامِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ . أى: استمروا واثبتوا على إيمانكم بالله ورسوله وبالقرآن الكريم وبالكتب السماوية السابقة على القرآن وهى: التوارة، والإنجيل، والزبور، وإلى هذا المعنى ذهب الإمام ابن كثير فى تفسيره حيث قال : يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالدخول فى جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيته والاستمرار عليه كما يقول المؤمن فى كل صلاة: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ .

أى: بصِّرنا فيه وزدنا هدى وثبتنا عليه، فأمرهم بالإيمان به وبرسوله كما قال تعالى:

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِ . (الحديد: ٢٨).

★ ★ ★

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾

المفردات :

ازدادوا كفرا : عادوا واستمروا فيه .

بشّر المنافقين : أنذرهم .

أيبتغون : أيطلبون .

العِزّة : الغلبة والقوة .

يخوضوا : يدخلوا .

التفسير:

١٣٧ - إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا ... الآية

هذه الآية، بينت حال بعض الكافرين، وهم المنافقون الذين ترددوا بين الإيمان الظاهر أمام المؤمنين، وبين الكفر، حينما يلتقون بالكافرين أمام المؤمنين .

والمعنى : إن المنافقين الذين أظهروا الإيمان أمام المؤمنين رياء، ثم كفروا أمام أوليائهم الكافرين، ثم عادوا إلى إظهار الإيمان حين لقائهم بالمؤمنين، ثم كفروا عند عودتهم إلى الكافرين، ثم ازدادوا فى دخيلة أنفسهم كفرا وجحودا، واستمروا عليه - إن هؤلاء :

لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً . أى : هؤلاء المنافقون المذكورون، قد حكم الله بأنهم محرومون من أن يغفر الله لهم كفرهم ومعاصيهم، ومحرومون من أن يهديهم الله إلى الحق؛ لإصرارهم على الكفر والنفاق .

وقيل: إن المراد من هؤلاء : قوم تكرر منهم الارتداد، وأصروا على الكفر وتمادوا فى الغَىِّ والضلال.

١٣٨- بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

بعد أن أوصد الله فى وجه هؤلاء المنافقين أبواب الرحمة والهداية، نتيجة تكرر الكفر منهم، أمر الله رسوله أن ينذرهم بأنه أعدَّ لهم فى الآخرة عذابا شديد الإيلام، وعبر عن الإنذار بالتبشير؛ تهكما بهم وسخرية منهم، وإيئاسًا لهم من المبشرات كلها، وأنها - بفرض وقوعها كما هى هنا - فليس لها رصيد إلا العذاب الأليم ؛ لتلاعبهم بالعقيدة وسخريتهم بها .

١٣٩- الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ... الآية

أى: أولئك هم الذين يوالون الكافرين ويتخذونهم أعوانا وأنصارًا لما يتوهمونه فيهم من القوة ويتركون ولاية المؤمنين، ويقولون للكافرين إذا خلوا بهم إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهزِءُونَ .. (البقرة:١٤).

أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ : أى: أيطلبون بموالاة الكفر: القوة والغلبة ؟ والاستفهام إنكارى أى: أيطلبون العزة ممن لا يستطيع أن يمنحها لهم؟!

فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ...

قال الشوكانى : هذه الجملة تعليل لما تقدم من توبيخهم بابتغاء العزة عند الكافرين وجميع أنواع العزة وأفرادها مختص بالله سبحانه، وما كان منها مع غيره فهو من فيضه وتفضله كما فى قوله: وللَّه الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ . (المنافقون: ٨) والعزة : الغلبة، يقال: عزَّه يعزّه عزا : إذا غلبه .

١٤٠ – وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ... الآية

وقد نزل عليكم – يا معشر المؤمنين فى القرآن – أنكم إذا رأيتم أولئك الكافرين يستهزئون بكتاب الله تعالى، وسمعتم منهم ذلك فاتركوا مجالسهم حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ .

قال الشوكانى : أى: لا تقعدوا معهم ماداموا كذلك؛ حتى يخوضوا فى حديث غير حديث الكفر والاستهزاء بها والذى أنزله الله عليهم فى الكتاب هو قوله تعالى :

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ .. (الأنعام: ٦٨).

وقد كان جماعة من الداخلين فى الإسلام يقعدون مع المشركين واليهود حال سخريتهم بالقرآن واستهزائهم به فنهوا عن ذلك [١٣٤] .

إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ .. أى: إنكم إن فعلتم ذلك ولم تنتهوا فأنتم مثلهم فى الكفر، ولستم بمؤمنين كما تزعمون فإن المرء بجليسه .

إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالكَافِرِينَ فِي جَهَنَّم جَمِيعًا .. أى: يجمع الفريقين : الكافرين والمنافقين فى الآخرة فى نار جهنم؛ لأن المرء مع من أحب .

قال ابن كثير : أى: كما أشركوهم فى الكفر، كذلك يشارك الله بينهم فى الخلود فى نار جهنم أبدًا، ويجمع بينهم فى دار العقوبة والنكال والقيود والأغلال وشراب الحميم والغسلين .

★ ★ ★

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾

المفردات :

يتربصون بكم : ينتظرون وقوع أمر بكم .

فتح من الله : نصر منه .

ألم نستحوذ عليكم : ألم نحطكم بعوننا ومساعدتنا .

يخادعون الله : يفعلون مع الله ما يفعل المخادع . وهو إظهار ما لا يبطن .

يراءون الناس : يظهرون للناس غير ما انطوت عليه صدورهم .

مذبذبين : مترددين بين المؤمنين والكافرين .

التفسير:

١٤١ – الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ... الآية

هذه الآية – وما بعدها – تبين لنا بعض سمات المنافقين وصفاتهم، التى كانوا عليها . وأول صفة ذكرت لهم، هى التربص والانتظار ؛ لاستغلال المواقف استغلالا دنيئًا لمصلحتهم . وهو ما بيَّنه الله بقوله :

فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوآ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ . أى: فإن كان لكم نصر على أعدائكم – بمعونة الله – تزلَّفوا لك، وراحوا يطالبون بالمغانم قائلين : أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ . بالعون حتى نصرتم على الأعداء؟

وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ . من الغلبة فى الحرب على المؤمنين .

قَالُوآ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُم ... أى: قال المنافقون للكافرين: ألم نحطكم بعوننا ومساعدتنا، وإطلاعكم على أسرار المؤمنين؛ حتى صارت لكم الغلبة عليهم .

وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ . أى : ندفع عنكم صولة المؤمنين بتثبيطنا إياهم، وتباطئنا فى معاونتهم، وإشاعة الأخبار التى توهن قلوبهم، وتضعف عزائمهم . فاعرفوا حقنا عليكم، وهاتوا نصيبنا مما غنمتم .

فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : فهو مطلع على دخائل الجميع محقين ومبطلين، فيثبت أولياءه المؤمنين المخلصين، ويعاقب أعداءه المنافقين يوم الجزاء .

وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً .

قال ابن كثير : أى: لن يسلَّطوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية، وإن حصل لهم ظفر فى بعض الأحيان على بعض الناس، فإن العاقبة للمتقين فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى :

إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ .. (غافر: ٥١) .

وعلى هذا يكون ردًا على المنافقين فيما أملّوه ورجوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين؛ خوفا على أنفسهم منهم، إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم كما قال تعالى : فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ... (المائدة: ٥٢) .

وفسر بعض العلماء هذه الفقرة على أنها ستكون يوم القيامة؛ قال الإمام على : «ذاك يوم القيامة».

وقيل: إنه سبحانه لا يجعل للكافرين سبيلا على المؤمنين ما داموا عاملين بالحق غير راضين بالباطل، ولا تاركين للنهى عن المنكر كما قال تعالى: وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ. (الشورى: ٣٠) .

قال ابن العربى: وهذا نفيس جدًا [١٣٥] .

١٤٢- إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ... الآية

هذا كلام مبتدأ يتضمن بعض قبائح المنافقين وفضائحهم. ولا شك أن الله لا يخادع؛ فإنه عالم بالسرائر والضمائر.

ولكن المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم؛ يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس، وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهرا – فكذلك يكون حكمهم عند الله يوم القيامة، وأن أمرهم يروج عنده .. وَهُوَ خَادِعُهُمْ. أى: هو الذى يستدرجهم فى طغيانهم وضلالهم ويخذلهم عن الحق، وعن الوصول إليه فى الدنيا، وكذلك يوم القيامة [١٣٦] .

وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى ... الآية. أى: يصلون وهم متثاقلون، لايرجون ثوابا ولا يخافون عقابًا، وما قيامهم للصلاة مع المصلين، إلا مظهر من مظاهر خداعهم .

يُرَاءُونَ النَّاسَ .. أى: يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة ولا يقصدون وجه الله.

قال ابن كثير : أى لا إخلاص لهم، ولا معاملة مع الله، بل إنما يشهدون الناس تقية لهم ومصانعة، ولهذا يتخلفون كثيرا عن الصلاة التى لا يرون فيها غالبا كصلاة العشاء وصلاة الصبح، كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال :

«أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر»[١٣٧].

وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ... هذه الجملة معطوفة على يُرَاءُون . أى: لا يذكرونه سبحانه إلا ذكرا

قليلا، أو لا يصلُون إلا صلاة قليلة ووصف الذكر بالقلة؛ لعدم الإخلاص، أو لكونه غير مقبول أو لكونه قليلا في نفسه .

أو يراد بالقلة: العدم؛ لأن ذكرهم غير مقبول، فلا فائدة فيه .

١٤٣- مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ ... الآية

المذبذب: المتردد بين أمرين، والذبذبة الاضطراب قال ابن جني : المذبذب: القلق الذي لا يثبت على حال .

لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ... أي: ليسوا منسوبين إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين فظواهرهم مع المؤمنين وبواطنهم مع الكافرين: ومنهم من يعتريه الشك فتارة يميل إلى هؤلاء وتارة يميل إلى أولئك.

قال ابن جرير عن قتادة يقول : ليسوا بمؤمنين مخلصين ولا مشركين مصرحين بالشرك .

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ ... أي: يخذله ويسلبه التوفيق ويصرفه عن طريق الهدى .

فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ... أي: طريقا يوصله إلى الحق .

فإنه: مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلاَ هَادِىَ لَه . (الأعراف: ١٨٦)

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾

المفردات :

سلطانا مبينا : حجة ظاهرة .

أولياء : نُصراء .

الدرك الأسفل : الطبقة السفلى .

واعتصموا بالله : اتخذوه ملجأ وملاذا .

وكان الله شاكرا : أي: كان – ولا يزال – مثيبا على الشكر .

التفسير:

١٤٤ - يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ... الآية

بعد أن بين الله صفات المنافقين، الناطقة: بأنهم كفار فى حقيقة أمرهم، نهى الله المؤمنين أن يتخذوا الكافرين – جميعا – أولياء، فإنهم لا يضمرون الخير لهم . فقال : يا أيها الذين آمنوا، لا تتخذوا الكفار أولياء وأحبَّاء ونصراء من دون المؤمنين ؛ لأنهم لا يؤمن جانبهم .

أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ... أى : أترغبون – بموالاة الكفار – أن تكون لله عليكم حجة واضحة فى عذابه إياكم ؛ إذ إنكم اتخذتم أعداءه أولياء لكم . وهم يبغون لكم الهزيمة، ولدينكم الزوال. كما قال تعالى : يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَآءَكُم مِّنَ الْحَقِّ... (الممتحنة: ١) .

وهذا لا يمنع من عقد معاهدات السلام معهم إذا كان فى ذلك مصلحة الإسلام والمسلمين .

قال الإمام ابن كثير فى تفسيره : ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يعنى: مصاحبتهم ومصادقتهم، ومناصحتهم، وإسرار المودة إليهم، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم .

وقال الإمام الشوكانى: أى: لا تجعلوهم خاصة لكم وبطانة توالونهم من دون إخوانكم من المؤمنين كما فعل المنافقون من موالاتهم للكافرين .

١٤٥ – إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ... الآية

أى: فى الطبقة التى فى قعر جهنم وهى سبع طبقات .

قال ابن عباس : أى: فى أسفل النار، وذلك لأنهم جمعوا مع الكفر الاستهزاء بالإسلام وأهله .

وتفيد الآية: أن النار دركات، كما أن الجنة درجات .

وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ... أى: ينقذهم مما هم فيه ويخرجهم من أليم العذاب .

١٤٦ – إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ ...

تستثنى هذه الآية من تاب عن النفاق قبل أن يموتوا، وأصلحوا أعمالهم ونياتهم، وبدلوا الرياء بالإخلاص وَاعْتَصَمُواْ بِاللَّهِ. أى: تمسكوا بكتاب الله ودينه.

وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ ... أى: جعلوا قلوبهم نقية خالية من الشرك خالصة للإيمان وقصدوا بعملهم وجه الله.

قال ابن أبى حاتم: عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال : «أخلص دينك؛ يكفك القليل من العمل» [١٣٨].

إن الإخلاص إكسير العبادة وروحها وسرّ قبولها قال تعالى :

وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُواْ الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ... (البينة: ٥) .

فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ... أى: هؤلاء الذين تابوا إلى الله وأصلحوا أعمالهم ونياتهم يدخلون فى عداد المؤمنين إيمانًا حقيقيا وإنه لشرف عظيم أن يدخل الإنسان فى عداد المؤمنين .

وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ... أى: يعطيهم الأجر الكبير فى الآخرة وهو الجنة .

١٤٧ – مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ...

أىُّ منفعة له سبحانه فى عذابكم ؟ إن شكرتم وآمنتم أيتشفى من الغيظ – حاشا لله –؟ وأم يدرك به الثأر، أم يدفع به الضر، ويستجلب النفع ؟ وهو الغنى عنكم ؟ !

قال الإمام الشوكانى فى تفسيره : فتح القدير :

هذه الجملة متضمنة لبيان أنه لا غرض له سبحانه فى التعذيب إلاّ مجرد المجازاة للعصاة .

والمعنى : أى منفعة له فى عذابكم إن شكرتم وآمنتم، فإن ذلك لا يزيد فى ملكه، كما أن ترك عذابكم لا ينقص من سلطانه ؟ !

وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا . أى: يشكر عباده على طاعته؛ فيثيبهم عليها ويتقبلها منهم .

والشكر فى اللغة: الظهور يقال: دابة شكور؛ إذا ظهر من سمنها فوق ما تُعطى من العلف .

فالله سبحانه وتعالى يعطى على العمل القليل الثواب الجزيل وهو واسع العلم لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض .

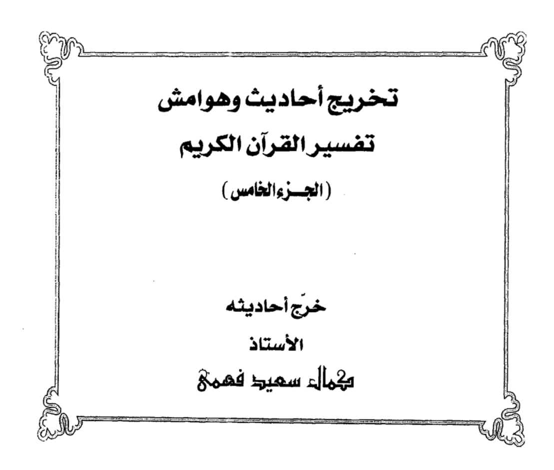
فما أعظم فضله، وما أجزل نعمه، وما أكثر عطاءه. وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا .

وكان من دعاء رسول الله ﷺ إذا قام من الليل : «اللهم، لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد. أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ضياء السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد . لا إله إلا أنت وعدك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق» [١٣٩].

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، تمت كتابة تفسير القرآن الكريم (الجزء الخامس) ضحى يوم الأربعاء ٢٨ شوال ١٤٠٧ هـ الموافق ٢٤ يونيو ١٩٨٧ م بمنيل الروضة القاهرة، والحمد لله رب العالمين .

اللهم لك الحمد والشكر كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

★ ★ ★



تخريج أحاديث وهوامش تفسير القرآن الكريم

(الجـزء الخامس)

خرّج أحاديثه
الأستاذ
كمال سعيد فهمي

(١) احتلمت فى ليلة باردة:

رواه أبو داود فى الطهارة (٣٣٤) وأحمد فى مسنده (١٧٣٥٦) عن عمرو بن العاص، قال: احتلمت فى ليلة باردة فى غزوة ذات السلاسل فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيممت ثم صليت بأصحابى الصبح فذكروا ذلك للنبى ﷺ فقال: يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب؟! فأخبرته بالذى منعنى من الاغتسال وقلت: إنى سمعت الله يقول: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ إن الله كان بكم رحيما فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئا !.

(٢) من قتل نفسه بشىء عذب به:

رواه البخارى فى الجنائز (١٣٦٤) فى الأدب (٦٠٧٤، ٦١٠٥) فى الأيمان والنذور (٦٦٥٣) مسلم فى الإيمان (١١٠) وأبو داود فى الأيمان والنذور (٣٢٥٧) والترمذى فى الطب (٢٦٣٦) والنسائى فى الأيمان والنذور (٣٧٧٠) والدارمى فى الديات (٢٣٦١) وأحمد فى مسنده (١٥٩٥٠، ١٥٩٥٦) من حديث ثابت بن الضحاك وكان من أصحاب الشجرة حدثه أن رسول الله ﷺ قال: من حلف على ملة غير الإسلام فهو كما قال وليس على ابن آدم نذر فيما لا يملك ومن قتل نفسه بشىء فى الدنيا عذب به يوم القيامة ومن لعن مؤمنا فهو كقتله ومن قذف مؤمنا بكفر فهو كقتله.

(٣) من تردى من جبل فقتل نفسه:

رواه البخارى فى الطب (٥٧٧٨) ومسلم فى الإيمان (١٠٩) والترمذى فى الطب (٢٠٤٣، ٢٠٤٤) والنسائى فى الجنائز (١٩٦٥) وابن ماجه فى الطب (٣٤٦٠) (٧٣٣٩، ٩٨٣٩، ٩٩٦٤) والدارمى فى الديات (٢٣٦٢) من حديث أبى هريرة مرفوعًا: من تردى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم يتردى فيه خالدا مخلدا فيها أبدا ومن تحسى سما فقتل نفسه فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يجأ بها فى بطنه جهنم خالدا مخلدا فيها أبد.

(٤) اجتنبوا السبع الموبقات:

رواه البخارى فى الوصايا ح ٢٧٦٧، ومسلم فى الإيمان ح ٨٩، والنسائى فى الوصايا ح ٣٦٧١، وأبو داود فى الوصايا ح ٢٨٧٤ من حديث أبى هريرة.

(٥) ألا أنبأكم بأكبر الكبائر:

رواه البخارى فى الشهادات ح ٢٤٦٠، وفى الأدب ح ٥٥١٩، ٥٥٢٠، ومسلم فى الإيمان ح ١٢٦، ١٢٨، وأحمد ح ١١٨٨٦، ١٩٤٩١، ١٩٤٩٩.

(٦) إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه:

رواه البخارى فى الأدب (٥٩٧٣) وأبو داود فى الأدب (٥١٤١) وأحمد فى مسنده (٦٩٩٠) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٧) ما زال جبريل يوصينى بالجار:

رواه البخارى فى الأدب (٦٠١٤) ومسلم فى البر والصلة (٢٦٢٤) وأبو داود فى الأدب (٥١٥١) والترمذى فى البر والصلة (١٩٤٢) وابن ماجه فى الأدب (٣٦٧٣) وأحمد فى مسنده (٢٣٧٣٩، ٢٤٠٧٩، ٢٤٤٢١، ٢٥٠١٢، ٢٥٤٨٢) من حديث عائشة. ورواه البخارى فى الأدب (٦٠١٥) ومسلم فى البر والصلة (٢٦٢٥) من حديث ابن عمر. ورواه أبو داود فى الأدب (٥١٥٢) والترمذى فى البر والصلة (١٩٤٣) وأحمد فى مسنده (٦٤٦٠) من حديث عبد الله بن عمرو. وقال الترمذى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه وقد روى هذا الحديث عن مجاهد عن عائشة وأبى هريرة عن النبى ﷺ أيضا. ورواه أحمد فى مسنده (٥٥٥٢) من حديث عبد الله بن مسعود. ورواه أحمد فى مسنده أيضًا (٧٤٧٠، ٧٩٨٥، ٩٤٥٣، ١٠٢٩٧) من حديث أبى هريرة. ورواه أحمد فى مسنده (١٩٨٣٧، ٢٢٥٨٣) عن رجل من الأنصار.

(٨) اقرأ على؛ أحب أن أسمعه من غيرى:

رواه البخارى فى التفسير (٤٥٨٢) وفى فضائل القرآن (٥٠٥٠، ٥٠٥٥) ومسلم فى صلاة المسافرين (٨٠٠) والترمذى

فى التفسير (٣٠٢٤) وأبو داود فى العلم (٣٦٦٨) وابن ماجه فى الزهد (٤١٩٤) وأحمد فى مسنده (٣٥٤١، ٣٥٩٥، ٤١٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٩) تفسير المراغى ٥ / ٦١ .

(١٠) فتح القدير للشوكانى ١ / ٤٨٠ .

(١١) الحمد لله الذى وفق:

رواه أبو داود فى الأقضية (٣٥٩٢) والترمذى فى الأحكام (١٣٧٢) والدارمى فى المقدمة (١٦٨) وأحمد فى مسنده (٢١٥٠٢، ٢١٥٥٦، ٢١٥٩٥) عن أناس من أهل حمص من أصحاب معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذا إلى اليمن قال: كيف تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ قال: أقضى بكتاب الله قال: فإن لم تجد فى كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ قال فإن لم تجد فى سنة رسول الله ﷺ ولا فى كتاب الله، قال: أجتهد رأيى ولا آلو. فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله. قال أبو عيسى: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده عندى بمتصل. وقال الزيلعى فى نصب الراية: وأخرجاه أيضا عن أناس من أصحاب معاذ: أن رسول الله، مرسلاً، قال الترمذى: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده بمتصل، انتهى. وقال البخارى فى «تاريخه الكبير»: الحارث بن عمرو بن أخى المغيرة بن شعبة الثقفى عن أصحاب معاذ، عن معاذ، روى عنه أبو عون، ولا يصح، ولا يعرف إلا بهذا، مرسل، انتهى. وفيه كتاب، ورواه النسائى فى آداب القضاء (٥٣٩٩) والدارمى فى المقدمة (١٦٧) عن شريح أنه كتب إلى عمر يسأله فكتب إليه أن اقض بما فى كتاب الله فإن لم يكن فى كتاب الله فبسنة رسول الله ﷺ فإن لم يكن فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله ﷺ فاقض بما قضى به الصالحون فإن لم يكن فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله ﷺ ولم يقض به الصالحون فإن شئت فتقدم وإن شئت فتأخر ولا أرى التأخير إلا خيرا لك والسلام عليكم.

(١٢) الشرج: مسيل الماء .

(١٣) اسق يا زبير:

رواه البخارى فى المساقاة أيضًا (٢٣٦١، ٢٣٦٢) وفى الصلح (٢٧٠٨) وفى التفسير (٤٥٨٥) من حديث عروة قال خاصم الزبير رجل من الأنصار فقال النبى ﷺ: يا زبير اسق ثم أرسل فقال الأنصارى: إنه ابن عمتك، فقال عليه السلام: اسق يا زبير ثم يبلغ الماء الجدر ثم أمسك فقال الزبير: فأحسب هذه الآية نزلت فى ذلك ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾.

ورواه البخارى فى المساقاة (٢٣٦٠) ومسلم فى الفضائل (٢٣٧٥) وأبو داود فى الأقضية (٣٦٣٧) والترمذى فى الأحكام (١٣٦٣) وفى التفسير (٣٠٢٧) والنسائى فى آداب القضاة (٥٤٠٤) وابن ماجه فى المقدمة (١٥) وفى الأحكام (٢٤٨٠) وأحمد فى مسنده (١٥٦٨٤) عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما أنه حدثه أن رجلا من الأنصار خاصم الزبير عند النبى ﷺ فى شراج الحرة التى يسقون بها النخل.. الحديث. ورواه أحمد فى مسنده (١٤٢٢) من حديث الزبير ابن العوام.

(١٤) فى ظلال القرآن ٢ / ٧٠٧.

(١٥) تضمن الله لمن خرج فى سبيله

رواه البخارى فى الإيمان (٣٦) وفى فرض الخمس (٣١٢٣) وفى التوحيد (٧٤٦٣، ٧٤٧٥) رواه مسلم فى الإمارة واللفظ له – (١٨٧٦) ومالك فى الموطإ كتاب الجهاد (٩٧٤) والنسائى فى الجهاد (٣١٢٢، ٣١٢٣) وفى الإيمان وشرائعه (٥٠٢٩) وابن ماجه فى الجهاد (٢٧٥٣) والدارمى فى الجهاد (٢٣٩١) وأحمد فى مسنده (٨٧٥٧، ٨٩٢٣) من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : تضمن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا جهادا فى سبيلى .. الحديث. وقد روى الحديث بأكثر من لفظ منها: انتدب الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا إيمان. . الحديث. ومنها: أعد الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا جهاد فى سبيلى وإيمان بى.. وفى إحدى الروايات: تكفل الله لمن جاهد فى سبيله لا يخرجه إلا الجهاد.. الحديث.

(١٦) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب، ٥ / ٧٠٨ ، طبعة دار الشروق الحادية عشرة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

(١٧) كنت أنا وأمي من المستضعفين:

رواه البخارى فى الجنائز (١٣٥٧) وفى تفسير القرآن (٤٥٨٧) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما يقول: كنت أنا وأمى من المستضعفين؛ أنا من الولدان وأمى من النساء.

(١٨) تفسير الكشاف ١ / ٢٨١ .

(١٩) إنى أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم:

رواه النسائى فى الجهاد (٣٠٨٦) من حديث ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبى ﷺ بمكة فقالوا: يا رسول الله إنا كنا فى عز ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة فقال: إنى أمرت بالعفو فلا تقاتلوا فلما حولنا الله إلى المدينة أمرنا بالقتال فكفوا فأنزل الله عز وجل ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيدكم وأقيموا الصلاة﴾. وذكره السيوطى فى الدر ونسبه لابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه.

(٢٠) كانت الزكاة غير محددة المقادير فى مكة - قبل الهجرة - وكان ذلك متروكا لتقدير المسلمين، ثم تم تحديدها بالمدينة.

(٢١) انظر تفسير القرطبى ٥ / ٢٨٢ .

(٢٢) ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب:

رواه البخارى فى المرضى باب: ما جاء فى كفارة المرضى (٥٣١٧) ومسلم فى البر والصلة والآداب، باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن (٢٥٧٢) عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: (ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها). ورواه البخارى فيما تقدم (٥٣١٨) عن أبى سعيد الخدرى، وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: (ما يصيب المسلم، من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن وأذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه). رواه الترمذى فى تفسير القرآن باب ومن سورة النساء (٥٠٢٩) عن أبى هريرة قال: لما نزلت ﴿من يعمل سوءا يجز به﴾، شق ذلك على المسلمين فشكوا ذلك إلى النبى ﷺ، فقال: قاربوا وسددوا. وفى كل ما يصيب المؤمن كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها». هذا حديث حسن غريب.

(٢٣) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجمع البحوث الإسلامية الحزب التاسع، ص ٨٥٩ .

(٢٤) أنتم أعلم بأمر دنياكم:

رواه مسلم فى الفضائل (٢٣٦٣) وأحمد فى مسنده (١٢١٣٥) من حديث أنس أن النبى ﷺ مر بقوم يلقحون فقال: لو لم تفعلوا لصلح قال: فخرج شيصا فمر بهم فقال: ما لنخلكم قالوا: قلت: كذا وكذا قال: أنتم أعلم بأمر دنياكم.

(٢٥) من أطاعنى فقد أطاع الله:

رواه البخارى فى الجهاد (٢٩٥٧) وفى الأحكام (٧١٣٧) ومسلم فى الإمارة (١٨٣٥) والنسائى فى البيعة (٤١٩٣) وفى الاستعاذة (٥٥١٠) وابن ماجه فى المقدمة (٣) وفى الجهاد (٢٨٥٩) (٧٣٨٦، ٨٣٠٠، ٨٧٨٨) من حديث أبى هريرة مرفوعا: من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ومن عصى أميرى فقد عصانى.

(٢٦) إنما هلكلت الأمم قبلكم باختلافهم فى الكتاب:

رواه مسلم فى العلم (٢٦٦٦)، وأحمد ٢/ ١٨٥.

(٢٧) كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع:

رواه مسلم فى المقدمة (٥) وأبو داود فى الأدب (٤٩٩٢) من حديث حفص بن عاصم – عن أبى هريرة – قال: قال رسول الله ﷺ: كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع. قال أبو داود ولم يذكر حفص أبا هريرة قال أبو داود ولم يسنده إلا هذا الشيخ يعنى على بن حفص المدائنى. ورواه مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه: بحسب المرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع. ورواه أيضًا من حديث أبى الأحوص عن عبد الله قال: بحسب المرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع.

(٢٨) إن الله كره لكم قيل وقال:

رواه البخارى فى كتاب الزكاة (١٤٧٧) وفى الاستقراض (٢٤٠٨) وفى الأدب (٥٩٧٥) وفى الرقاق (٦٤٧٣) وفى الاعتصام (٧٢٩٢) ومسلم فى كتاب الأقضية (١٧١٥) من حديث المغيرة بن شعبة.

(٢٩) من حدث عنى بحديث وهو يرى أنه كذب:

رواه أحمد (١٧٧١٩، ١٧٧٤٦، ١٧٧٧٦) من حديث المغيرة بن شعبة. ورواه مسلم فى المقدمة، والترمذى فى العلم (٢٦٦٢) من حديث المغيرة بن شعبة أيضًا إلا أنه بلفظ: من حدث عنى. ورواه مسلم فى المقدمة، وأحمد (١٩٦٥٠، ١٩٧١٢) من حديث سمرة بن جندب. ورواه ابن ماجه فى المقدمة (٤٠) من حديث على، ثم أسنده من حديث سمرة. قال الترمذى: هذا حديث صحيح وروى شعبة عن الحكم عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن سمرة عن النبى ﷺ هذا الحديث وروى الأعمش وابن أبى ليلى عن الحكم عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن على عن النبى ﷺ وكأن حديث عبد الرحمن ابن أبى ليلى عن سمرة عند أهل الحديث أصح قال: سألت أبا محمد عبد الله بن عبد الرحمن عن حديث النبى ﷺ: من حدث عنى حديثا وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين، قلت له : من روى حديثا وهو يعلم أن إسناده خطأ أيخاف أن يكون قد دخل فى حديث النبى ﷺ أو إذا روى الناس حديثا مرسلا فأسنده بعضهم أو قلب إسناده يكون قد دخل فى هذا الحديث فقال: لا إنما معنى هذا الحديث إذا روى الرجل حديث ولا يعرف لذلك الحديث عن النبى ﷺ أصل فحدث به فأخاف أن يكون قد دخل فى هذا الحديث.

(٣٠) لا حينما سأله عمر: أطلقت نساءك ؟ حديث الإيلاء:

هذا اللفظ جزء من حديث الإيلآء: رواه البخارى فى العلم (٨٩) وفى المظالم ح (٢٤٦٨، ٢٤٦٩)، وفى التفسير ح (٤٩١٣، ٤٩١٤، ٤٩١٥) وفى النكاح ح (٥١٩١، ٥٢٠٣)، وفى الطلاق ح (٥٢٦٧)، وفى اللباس ح (٥٨٤٣)، وفى الأدب (٦٢١٨)، وفى أخبار الآحاد ح ٦٧٢١، ومسلم فى الطلاق ح (١٤٧٩)، والترمذى فى التفسير ح (٣٣١٨)، والنسائى فى الطلاق ح (٣٤٥٥)، وأبو داود فى الأدب ح ٤٥٢٥، وأحمد فى مسنده ح ٣٤١.

(٣١) تفسير ابن كثير ١ / ٥٣٠ .

(٣٢) قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض:

رواه مسلم فى الإمارة (١٩٠١) وأحمد فى مسنده (١١٩٩٠) من حديث أنس بن مالك قال: بعث رسول الله ﷺ بسيسة عينا ينظر ما صنعت عير أبى سفيان فجاء وما فى البيت أحد غيرى وغير رسول الله ﷺ قال: لا أدرى ما استثنى بعض نسائه قال: فحدثه الحديث قال: فخرج رسول الله ﷺ فتكلم فقال: إن لنا طلبة فمن كان ظهره حاضرًا فليركب معنا فجعل رجال يستأذنونه فى ظهرانهم فى علو المدنية فقال: لا إلا من كان ظهره حاضرا فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر وجاء المشركون فقال رسول الله ﷺ لا يقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض قال: يقول عمير بن الحمام الأنصارى: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض ؟ ! قال: نعم قال: بخ بخ فقال: رسول الله ﷺ: ما يحملك على قولك: بخ بخ قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها قال: فإنك من أهلها فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة ! قال: فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل.

(٣٣) يا أبا سعيد من رضى الله ربا:

رواه مسلم فى الإمارة (١٨٨٤) والنسائى فى الجهاد (٣١٣١) وأحمد فى مسنده (١٠٧١٨) من حديث أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: يا أبا سعيد من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا وجبت له الجنة فعجب لها أبو سعيد فقال أعدها على يا رسول الله ففعل ثم قال: وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة فى الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض قال: وما هى يا رسول الله قال: الجهاد فى سبيل الله، الجهاد فى سبيل الله.

(٣٤) اشفعوا تؤجروا:

رواه البخارى فى الزكاة (١٤٣٢) وفى الأدب (٦٠٢٧، ٦٠٢٨)، وفى التوحيد (٧٤٧٦) ومسلم فى البر (٢٦٢٧) وأبو داود فى الأدب (٥١٣١) والترمذى فى العلم (٢٦٧٢) والنسائى فى الزكاة (٢٥٥٦) (١٩٠٨٧، ١٩٢٠٧) من حديث أبى موسى قال: كان رسول الله ﷺ إذا جاءه السائل أو طلبت إليه حاجة قال: اشفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان نبيه ﷺ ما شاء. ورواه أبو داود فى الأدب (٥١٣٢) والنسائى فى (٢٥٥٧) من حديث معاوية بن أبى سفيان أن رسول الله ﷺ قال: إن الرجل ليسألنى الشيء فأمنعه حتى تشفعوا فيه فتؤجروا وإن رسول الله ﷺ قال: اشفعوا تؤجرا.

(٣٥) لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا:

رواه مسلم فى الإيمان (٥٤) وأبو داود فى الأدب (٥١٩٣) والترمذى فى الاستئذان (٢٦٨٨) وابن ماجه فى المقدمة (٦٨) وفى الأدب (٣٦٩٢) (٨٨٤١، ٩٤١٦، ٩٨٢١، ١٠٢٧٢) من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم. ورواه الترمذى فى صفة القيامة (٢٥١٠) وأحمد فى مسنده (١٤١٥، ١٤٣٣) من حديث الزبير بن العوام أن النبى ﷺ قال: دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء هى الحالقة لا أقول: تحلق الشعر ولكن تحلق الدين والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أفلا أنبئكم بما يثبت ذاكم لكم أفشوا السلام بينكم. وقال الترمذى: هذا حديث قد اختلفوا فى روايته عن يحيى بن أبى كثير فروى بعضهم عن يحيى بن أبى كثير عن يعيش بن الوليد عن مولى الزبير عن النبى ﷺ ولم يذكروا فيه عن الزبير.

(٣٦) وعليكم السلام:

قال الهيثمى فى المجمع: عن سلمان قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله. قال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. ثم جاء آخر فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله. قال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. ثم جاء آخر فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته. فقال له رسول الله ﷺ. وعليك. فقال الرجل: يا رسول الله أتاك فلان وفلان فحييتهما بأفضل مما حييتنى. فقال رسول الله ﷺ: إنك لن أو لم تدع شيئا، قال الله عز وجل ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ فرددت عليك التحية. وقال: رواه الطبرانى وفيه هشام بن لاحق قواه النسائى وترك أحمد حديثه، وبقية رجاله رجال الصحيح. وذكره السيوطى فى الدر وزاد نسبته لأحمد فى الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه بسند حسن.

(٣٧) عشر فى السلام:

راوه أبو داود فى الأدب (٥١٩٥) والترمذى فى الاستئذان (٢٦٨٩) والدارمى فى الاستئذان (٢٦٤٠) وأحمد فى مسنده (١٩٤٤٦) من حديث عمران بن حصين أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال: السلام عليكم قال: قال النبى ﷺ : عشر ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله فقال النبى ﷺ : عشرون ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فقال النبى ﷺ: ثلاثون. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه. وفى الباب عن أبى هريرة أخرجه البخارى فى الأدب المفرد، وعن سهل بن حنيف رواه البيهقى فى السنن، وعن ابن عمر رواه البيهقى فى شعب الإيمان.

(٣٨) إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم:

رواه مالك فى الموطإ كتاب الجامع (١٧٩٠) وأحمد فى مسنده (٤٥٤٩) من حديث عبد الله بن عمر أنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن اليهود إذا سلم عليكم أحدهم فإنما يقول: السام عليكم فقل: عليك.

(٣٩) لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا:

تقدم ص ٧٩.

(٤٠) ابن الجوزى: زاد المسير فى علم التفسير ٢ /٢٥٤ ، ١٥٥٢ .

(٤١) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٢ / ٧٣١.

(٤٢) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٢ / ٧٣٤ .

(٤٣) الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله القرطبى ٥ / ٣١٠ .

(٤٤) تفسير ابن كثير ١ / ٥٣٣ .

(٤٥) تفسير الطبرى تحقيق محمود محمد شاكر الطبعة الثانية دار المعارف بمصر ٩ / ٢٦.

(٤٦) تفسير الطبرى تحقيق محمود شاكر ٩ / ٢٧ وفيه أيضا والفتنة في كلام العرب: الاختبار. والإركاس: الرجوع: فتأويل الكلام: كلما ردّوا إلى الاختبار؛ ليرجعوا إلى الكفر والشرك؛ رجعوا إليه. تفسير الطبرى ٩ /٢٨ .

(٤٧) الطبرى ٩ / ٢٩ .

(٤٨) تفسير الطبرى ٩ / ٣٠ .

(٤٩) لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى:

رواه البخارى فى الديات ح ٦٣٧٠، ومسلم فى القسامة ٣١٥٧، ٣١٦٧، والترمذى فى الديات ح ١٣٢٢، وفى الحدود ح١٣٦٤، والنسائى فى تحريم الدم ح ٣٩٥١، وفى القسامة ح ٤٦٤٢، وأبو داود فى الحدود ح ٣٧٨٨، وابن ماجه فى الحدود ح ٢٥٢٥، وأحمد ح ٣٤٣٨، ٣٨٥٩، ٤٠٢٤، والدارمى فى الحدود ح ٢١٩٦.

(٥٠) على أهل الإبل مائة بدنة:

رواه أبو داود فى الديات (٤٥٤٢) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كانت قيمة الدية على عهد رسول الله ﷺ ثمانمائة دينار أو ثمانية آلاف درهم ودية أهل الكتاب يومئذ النصف من دية المسلمين قال: فكان ذلك كذلك حتى استخلف عمر رحمه الله فقام خطيبا فقال: ألا إن الإبل قد غلت قال: ففرضها عمر على أهل الذهب ألف دينار وعلى أهل الورق اثنى عشر ألفا وعلى أهل البقر مائتى بقرة وعلى أهل الشاء ألفى شاة وعلي أهل الحلل مائتى حلة قال: وترك دية أهل الذمة لم يرفعها فيما رفع من الدية.

(٥١) تفسير الطبرى تحقيق محمود شاكر ٩ / ٤٠ .

(٥٢) تفسير الطبرى تحقيق محمود شاكر ٩ / ٤٣، ٤٤ باختصار وتصرف.

(٥٣) تفسير ابن كثير ١ / ٥٣٥ .

(٥٤) التفسير الوسيط: مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الحزب العاشر ص ٨٨١ .

(٥٥) تفسير الطبرى تحقيق محمود شاكر ٩ / ٥٦ .

(٥٦) أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء:

رواه البخارى فى الرقاق (٦٥٣٣) وفى الديات (٦٨٦٤) ومسلم فى القسامة (١٦٧٨) والترمذى فى الديات (١٣٩٧) والنسائى فى تحريم الدم (٣٩٩٣) وابن ماجه فى الديات (٢٦١٥، ٢٦١٧) وأحمد فى مسنده (٣٦٦٥، ٤٢٠١) من حديث عبد الله بن مسعود قال: قال النبى ﷺ: أول ما يقضى بين الناس بالدماء.

(٥٧) لزوال الدنيا أهون:

رواه الترمذى فى الديات (١٣٩٥) والنسائى فى تحريم الدم (٣٩٩٧) من حديث عبد الله بن عمر أن النبى ﷺ قال: لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم. ثم رواه الترمذى موقوفا وقال: وهذا أصح من حديث ابن أبى عدى - يعنى الموقوف -.

ورواه ابن ماجه فى الديات (٢٦١٩) من حديث البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق.

(٥٨) لو اجتمع أهل السماوات والأرض على قتل رجل مسلم:

قال السيوطى فى الدر: وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس قال: «قتل بالمدينة قتيل على عهد النبى ﷺ لم يعلم من قتله، فصعد النبى ﷺ المنبر فقال: أيها الناس قتل قتيل وأنا فيكم ولا نعلم من قتله، ولو اجتمع أهل السماء والأرض على قتل امرئ لعذبهم الله إلا أن يفعل ما يشاء».

(٥٩) من أعان على قتل مسلم:

رواه ابن ماجه فى الديات (٢٦٢٠) من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة لقى الله عز وجل مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله. قال البوصيرى فى الزوائد: فى إسناده يزيد بن أبى زياد، بالغوا فى تضعيفه، حتى قيل: كأنه حديث موضوع. وقال الزيلعى فى نصب الراية: وهو حديث ضعيف.

قال السيوطى فى الدر: وأخرج ابن عدى والبيهقى فى البعث عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعان على دم امرئ مسلم بشطر كلمة، كتب بين عينيه يوم القيامة: آيس من رحمة الله». وقال الهيثمى فى المجمع: وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: من شرك فى دم حرام بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله. رواه الطبرانى وفيه عبد الله بن خراش ضعفه البخارى وجماعة ووثقه ابن حبان وقال: ربما أخطأ، وبقية رجاله ثقات.

(٦٠) أظنه قد أحدث حدثا:

قال السيوطى فى الدر: أخرج ابن جريج وابن المنذر من طريق ابن جريج عن عكرمة «أن رجلا من الأنصار قتل أخا مقيس بن ضبابة، فأعطاه النبى ﷺ الدية فقبلها، ثم وثب على قاتل أخيه فقتله. قال ابن جريج، وقال غيره: ضرب النبى ﷺ ديته على بنى النجار، ثم بعث مقيسا، وبعث معه رجلا من بنى فهر فى حاجة للنبى ﷺ، فاحتمل مقيس الفهرى - وكان رجلا شديدا - فضرب به الأرض، ورضخ رأسه بين حجرين، ثم ألقى يتغنى: قتلت به فهرا وحملت عقله سراة بن النجار أرباب قارع فأخبر به النبى ﷺ فقال: أظنه قد أحدث حدثا، أما والله لئن كان فعل لا أومنه فى حل ولا حرم، ولا سلم ولا حرب، فقتل يوم الفتح. قال ابن جريج: وفيه نزلت هذه الآية ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا..﴾ الآية.

(٦١) ثكلته أمه قتل رجلا متعمدا:

رواه أحمد فى مسنده (٢١٤٣، ٢٦٧٨) والترمذى فى تفسير القرآن (٣٠٢٩) والنسائى فى تحرى الدم (٣٩٩٩) وفى القسامة (٤٨٦٦) من حديث ابن عباس أن رجلا أتاه فقال: أرأيت رجلا قتل رجلا متعمدا قال: ﴿جزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما﴾ قال: لقد أنزلت فى آخر ما نزل ما نسخها شىء حتى قبض رسول الله ﷺ وما نزل وحى بعد رسول الله ﷺ قال: أرأيت إن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى؟ قال: وأنى له بالتوبة وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: ثكلته أمه رجل قتل رجلا متعمدا يجىء يوم القيامة آخذا قاتله بيمينه أو بيساره وآخذا رأسه بيمينه أو شماله تشخب أوداجه دما فى قبل العرش يقول: يا رب سل عبدك فيم قتلنى. وقال الترمذى: حديث حسن.

(٦٢) تفسير الطبرى تحقيق محمود شاكر ٩ / ٦٣ قال: رواه أحمد فى المسند برقم ٢١٤٢ بطوله وهو حديث صحيح، وقوله (تشخب أوداجه دما) أى تسيل دما له صوت فى خروجه، مثل صوت الحالب لضرع الشاة (والأوداج) جمع ودج بفتحتين، وهى العروق التى تكتنف الحلقوم وما أحاط بالعنق من العروق التى يقطعها الذابح (قُبل) بضمتين ما يستقبلك من شىء، ويعنى به: ما بين يدى العرش ومعنى (وما نزل بعدها من برهان) أى: ما جاء نبى بعد نبيكم، ولا نزل كتاب بعد كتابكم.

(٦٣) أن رجلا قتل مائة نفس:

رواه البخارى فى الأنبياء باب: ﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم﴾ (٣٢٨٣) مسلم فى التوبة باب قوله تعالى: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ (٢٧٦٦) وابن ماجه فى الديات باب هل لقاتل مؤمن توبة ؟ (٢٦٢٢).

(٦٤) تفسير ابن كثير ١ / ٥٣٧ .

(٦٥) (البَضْعَة) بفتح السكون: القطعة من اللحم.

(٦٦) هلا شققت عن قلبه:

رواه البخارى فى المغازى (٤٢٦٩) وفى الديات (٦٨٧٢) ومسلم فى الإيمان (٩٦) وأبو داود فى الجهاد (٢٦٤٣) وأحمد فى مسنده (٢١٢٣٨) من حديث أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة فصبحنا القوم فهزمناهم ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله فكف الأنصارى فطعنته برمحى حتى قتلته فلما قدمنا بلغ النبى ﷺ فقال: يا أسامة أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله قلت: كان متعوذا فما زال يكررها حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم.

(٦٧) كان رجل مؤمن يخفى إيمانه:

رواه البخارى فى الديات (٦٨٦٥) المقداد بن عمرو الكندى حليف بنى زهرة، وكان شهد بدرا مع النبى ﷺ أنه قال: رسول الله إنى لقيت كافرا فاقتتلنا فضرب يدى بالسيف فقطعها ثم لاذ منى بشجرة وقال: أسلمت لله آقتله بعد أن قالها قال رسول الله ﷺ : لا تقتله قال: يا رسول الله فإنه طرح إحدى يدى ثم قال ذلك بعد ما قطعها آقتله قال: لا تقتله فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله وأنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته التى قال وقال حبيب بن أبى عمرة: عن سعيد عن ابن عباس قال: قال النبى ﷺ للمقداد: إذا كان رجل مؤمن يخفى إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه فقتلته فكذلك كنت أنت تخفى إيمانك بمكة من قبل.

(٦٨) يُملهُّا: بضم أوله، وكسر الميم وتشديد اللام؛ هو مثل يمليها، والرض: الدق، وسرِّى كشف، وروى البخارى عن البراء قال: لما نزلت ﴿لا يستوى القاعدون من المؤمنين﴾ دعا رسول الله ﷺ زيدًا فكتبها، فجاء ابن أم مكتوم، فشكا ضرارته فأنزل الله ﴿غير أولى الضرر﴾. وقد جاء فى المسند ٥ / ١٨٤ والبخارى ٨ / ١٩٥ . وأبو داود ٣ / ١٧ والترمذى ٤ / ٩٢، والنسائى ٦ / ٩ ، نقلا عن زاد المسير لابن الجوزى، المكتب الإسلامى ٢ / ١٧٣ .

(٦٩) البخارى ٨ / ١٩٧ .

(٧٠) تفسير ابن كثير ١ / ٥٤١ .

(٧١) إن فى الجنة مائة درجة:

جزء من حديث، رواه البخارى فى الجهاد والسير ح ٢٧٩٠، وفى التوحيد ح ٧٤٣٢، وأحمد ح ٧٨٦٣، ٨٢١٤، ٨٢٦٩، من حديث أبى هريرة مرفوعا: من آمن بالله وبرسوله ... الحديث. ورواه الترمذى فى صفة الجنة ح ٢٥٢٩، وأحمد ح ٢١٥٨٢، من حديث معاذ بن جبل مرفوعا: من صام رمضان وصلى الصلوات ... الحديث. ورواه الترمذى أيضا فى صفة الجنة ح ٢٥٣٠، وأحمد ح ٢٢١٨٧، ٢٢٢٣٢، من حديث عبادة بن الصامت مرفوعا: فى الجنة مائة درجة ... الحديث. وأشار الترمذى إلى أن حديث معاذ أصح من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنهما.

(٧٢) يا أبا سعيد من رضى بالله ربا:

تقدم ص ٧٦.

(٧٣) زاد المسير فى علم التفسير، لابن الجوزى، المكتب الإسلامى ٢ / ١٧٦ .

(٧٤) كفروا بعد إسلامهم.

(٧٥) تفسير الطبرى تحقيق محمود شاكر، ٩ / ١٠٣ وأفاد أن هذا الأثر خرجه ابن كثير فى تفسير ٢ / ٥٥٢، وخرجه السيوطى فى الدر المنثور ٢ / ٢٠٥، وهو فى السنن الكبرى للبيهقى ٩ / ١٤، وقد رأى المحقق محمود شاكر توثيق رواة هذا الأثر.

(٧٦) تفسير الكشاف ١ / ٢٩٣، وهو دعاء عالم آثر جوار الله فى البيت الحرام؛ حتى سمى جار الله.

(٧٧) تفسير الألوسى: روح المعانى ٥ / ١٢٦.

(٧٨) ابن الجوزى: زاد المسير فى علم التفسير ٢ / ١٧٩، ونسب الرأى الأول إلى ابن عباس وعكرمة ومجاهد، والثانى إلى ابن زيد.

(٧٩) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للعلامة محمود الألوسى ٥ / ١٢٧ .

(٨٠) لا هجرة بعد الفتح:

رواه البخارى فى الجهاد (٢٧٨٣، ٢٨٢٥) والترمذى فى السير (١٥٩٠) والدارمى فى السير (٢٥١٢) (١٩٩٢، ٣٣٢٥) عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا. ورواه البخارى فى المناقب (٣٨٩٩) وفى المغازى (٤٣١١) من حديث عبد الله بن عمر. ورواه مسلم فى الإمارة (١٨٦٤) من حديث عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ عن الهجرة فقال: لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا . وفى الباب: عن أبى سعيد الخدرى، ومجاشع بن مسعود.

(٨١) والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه:

رواه البخارى فى الإيمان (١٠) وفى الرقاق (٦٤٨٤) ومسلم فى الإيمان (٤٠) وأبو داود فى الجهاد (٢٤٨١) والنسائى فى الإيمان (٤٩٩٦) وأحمد فى مسنده (٦٤٧٩، ٦٧٦٧، ٦٩١٤، ٦٩٤٣) من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه. ورواه ابن ماجه فى الفتن (٣٩٣٤) وأحمد فى مسنده (٢٣٤٣٨) من حديث فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ فى حجة الوداع ألا أخبركم بالمؤمن ؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده والمجاهد من جاهد نفسه فى طاعة الله والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب. ورواه البخارى فى الإيمان (١١) ومسلم فى الإيمان (٤٢) والترمذى فى صفة القيامة (٢٥٠٤) عن أبى موسى رضى الله عنه قال: قالوا يا رسول الله أى الإسلام أفضل؟ قال من سلم المسلمون من لسانه ويده. ورواه مسلم فى الإيمان (٤١) والدارمى فى الرقاق (٢٧١٢) وأحمد فى مسنده (١٤٧٨٨) من حديث جابر قال: سمعت النبى ﷺ يقول: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده. ورواه الترمذى فى الإيمان (٢٦٢٧) والنسائى فى الإيمان (٤٩٩٥) وأحمد فى مسنده (٧٨١٢) من حديث أبى هريرة قال: قال رسوله الله ﷺ المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. ورواه أحمد فى مسنده (١٢١٥١) من حديث أنس بن مالك قال: قال النبى ﷺ: المؤمن من أمنه الناس المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر السوء والذى نفسى بيده لا يدخل الجنة عبد لا يأمن جاره بوائقه.

(٨٢) صدقة تصدق الله بها عليكم:

رواه مسلم فى صلاة المسافرين (٦٨٦) وأبو داود فى الصلاة (١١٩٩) والترمذى فى تفسير القرآن (٣٠٣٤) والنسائى فى تقصير الصلاة (١٤٣٣) وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٠٦٥) والدارمى فى الصلاة (١٥٠٥) من حديث يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب قلت: ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا وقد أمن الناس فقال: عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته.

(٨٣) رواه أحمد، وأصحاب السنن، واللفظ لأحمد.

(٨٤) ألا إنما أنا بشر وإنما أقضى:

رواه البخارى فى المظالم (٢٤٥٨) وفى الشهادات (٢٦٨٠) وفى الحيل (٦٩٦٧) وفى الأحكام (٧١٦٩، ٧١٨١، ٧١٨٥) وفى الأقضية (١٧١٣) ومسلم فى الأقضية (١٧١٣) ومالك فى الموطإ كتاب الأقضية (١٤٢٤) وأبو داود فى الأقضية

(٣٥٨٣) والترمذى فى الأحكام (١٣٣٩) والنسائى فى آداب القضاة (٥٤٢٢) وابن ماجه فى الأحكام (٢٣١٧) (٢٥٩٥٢) من حديث أم سلمة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه سمع خصومة بباب حجرته فخرج إليهم فقال: إنما أنا بشر وإنه يأتينى الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو فليتركها.

(٨٥) انظر تفسير ابن الجوزى زاد المسير ١٩٠/٢، وتفسير ابن كثير ٥٥١/١، وكذلك الكشاف وروح المعانى وغيرها.

(٨٦) ابن الجوزى : زاد المسير فى علم التفسير ١٩١/٢ المكتب الإسلامى ونقل فى الهامش عن ابن كثير أنه قال : احتج بهذه الآية من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان ﷺ له أن يحكم بالاجتهاد وبما ثبت فى الصحيحين «ألا إنما أنا بشر، وإنما أقضى بنحو ما أسمع...».

(٨٧) الالوسى : روح المعانى ٥ / ١٤٠ .

(٨٨) تفسير الكشاف للزمخشرى ٢٩٧/١ .

(٨٩) فى ظلال القرآن ٧٥٤/٥.

(٩٠) فى ظلال القرآن ٧٥٤/٥.

(٩١) تفسير الكشاف ٢٩٧/١.

(٩٢) الالوسى : روح المعانى ١٤٢/٥.

(٩٣) تفسير الكشاف ٢٩٨/١.

(٩٤) ابن الجوزى زاد المسير، ونقله عن أبى سليمان الدمشقى .

(٩٥) أى: جعلته هنيئًا لأخذه مسعفا بمطلوبه .

(٩٦) ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس

رواه البخارى فى الصلح (٢٦٩٢) ومسلم فى البر (٢٦٠٥) وأبو داود فى الأدب (٤٩٢٠، ٤٩٢١) وأحمد فى مسنده (٢٦٧٢٨) من حديث أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس فينمى خيرا أو يقول خيرا.

(٩٧) الساريه أو العمود .

(٩٨) روى عنه : أنه قرأ القرآن ثلاث مرات يتفقد هذا الحكم حتى ظفر به .

(٩٩) ابن الجوزى : زاد المسير فى علم التفسير ٢٠٣/٢ .

(١٠٠) ألا أنبأكم بأكبر الكبائر:

تقدم ص ١٣.

(١٠١) تفسير الطبرى ٢٠٦/٩ تحقيق محمود شاكر .

(١٠٢) تفسير الطبرى بتصرف .

(١٠٣) تفسير ابن كثير ٥٥٥/١ وقد علّق الترمذى عليه بقوله: هذا حسن غريب .

(١٠٤) تفسير الطبرى تحقيق محمود شاكر ٢١١/٩ باختصار وتصرف .

(١٠٥) ابعث بعث النار:

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٤٨) وفى تفسير القرآن (٤٧٤١) وفى الرقاق (٦٥٣٠) رواه مسلم فى الإيمان (٢٢٢) (١٠٨٩٢) من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال: يقول الله تعالى: يا آدم فيقول: لبيك وسعديك والخير فى يديك فيقول: أخرج بعث النار قال: وما بعث النار قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين فعنده يشيب الصغير ﴿وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ قالوا: يا رسول الله وأينا ذلك الواحد قال: أبشروا فإن منكم رجلا ومن يأجوج ومأجوج ألف ثم قال: والذى نفسى بيده إنى أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبرنا فقال: أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبرنا فقال: أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبرنا فقال: ما أنتم فى الناس إلا كالشعرة السوداء فى جلد ثور أبيض أو كشعرة بيضاء فى جلد ثور أسود. ورواه مسلم فى الفتن (٢٩٤٠) وأحمد فى مسنده (٦٥١٩) من حديث عبد الله بن عمر وجاءه رجل فقال: ما هذا الحديث الذى تحدث به تقول: إن الساعة تقوم إلى كذا وكذا فقال: سبحان الله أو لا إله إلا الله أو كلمة نحوهما لقد هممت أن لا أحدث أحدا شيئا إنما قلت: إنكم سترون بعد قليل أمرا عظيما يحرق البيت ويكون ويكون ثم قال: قال رسول الله ﷺ يخرج الدجال فى أمتى فيمكث أربعين ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا قال: وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله قال: فيصعق ويصعق الناس ثم يرسل الله أو قال: ينزل الله مطرا كأنه الطل أو الظل نعمان الشاك فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ثم يقال: يا أيها الناس هلم إلى ربكم ﴿وقفوهم إنهم مسئولون﴾ قال: ثم يقال: أخرجوا بعث النار فيقال: من كم فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين.. الحديث. ورواه الترمذى فى تفسير القرآن (٣١٦٨، ٣١٦٩) (١٩٣٨٣، ١٩٤٠٠) من حديث عمران بن حصين أن النبى ﷺ لما نزلت ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم﴾ إلى قوله ﴿ولكن عذاب الله شديد﴾ قال: أنزلت عليه هذه الآية وهو فى سفر فقال: أتدرون أى يوم ذلك فقالوا: الله ورسوله أعلم قال: ذلك يوم يقول الله لآدم: ابعث بعث النار فقال: يا رب وما بعث النار؟ قال تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة... الحديث.

(١٠٦) تفسير ابن كثير ٥٥٦/١ .

(١٠٧) ابن الجوزى : زاد المسير فى علم التفسير ٢٠٤/٢ المكتب الإسلامى .

(١٠٨) تفسير روح المعانى للألوسى ١٤٩/٥ .

(١٠٩) المرجع السابق ١٥٠/٥ كلعب الشطرنج بإسراف وإدمان؛ لتضييع الوقت فإن كان اللعب قليلا؛ جاز .

(١١٠) رأيت فى يد رسول الله ﷺ الميسم:

رواه مسلم فى اللباس (٢١١٩) وفى فضائل الصحابة (٢١٤٤) (١٢٦١٤، ١٦٣٧٤) من حديث أنس بن مالك قال رأيت فى يد رسول الله ﷺ الميسم وهو يسم إبل الصدقة.

(١١١) تفسير روح المعانى ١٥٠/٥.

(١١٢) تفسير الطبرى ٢٢٦/٩.

(١١٣) إن أصدق الحديث كتاب الله:

رواه البخارى فى الأدب (٦٠٩٨) وفى الاعتصام (٧٢٧٧) والدارمى فى المقدمة (٢٠٧) وابن ماجه فى المقدمة (٤٦) من حديث عبد الله: إن أحسن الحديث كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها و﴿إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين﴾. ورواه أحمد فى مسنده (١٣٩٢٤، ١٤٠٢٢، ١٤٥٦٦) والنسائى فى صلاة العيدين (١٥٧٨) والدارمى فى المقدمة (٢٠٦) وابن ماجه فى المقدمة (٤٥) من حديث جابر بن عبد الله قال: خطبنا رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال: أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله وإن أفضل الهدى هدى محمد وشر الأمور

محدثاتها وكل بدعة ضلالة ثم يرفع صوته وتحمر وجنتاه ويشتد غضبه إذا ذكر الساعة كأنه منذر جيش قال ثم يقول أتتكم الساعة بعثت أنا والساعة هكذا - وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى - صبحتكم الساعة ومستكم من ترك ما لا فلأهله ومن ترك دينا أو ضياعا فإلى وعلى، والضياع يعنى: ولده المسكين.

(١١٤) وأينا لم يعمل سوءًا ؟ ! :

رواه الترمذى فى تفسير القرآن (٣٠٣٩) وأحمد فى مسنده (٢٤) من حديث أبى بكر الصديق قال: كنت عند رسول الله ﷺ فأنزلت عليه هذه الآية ﴿من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا﴾ فقال رسول الله ﷺ: يا أبا بكر ألا أقرئك آية أنزلت على قلت: بلى يا رسول الله قال: فأقرأنيها فلا أعلم إلا أنى قد كنت وجدت انقصاما فى ظهرى فتمطأت لها فقال رسول الله ﷺ : ما شأنك يا أبا بكر قلت: يا رسول الله بأبى أنت وأمى وأينا لم يعمل سوءا وإنا لمجزون بما عملنا؟! فقال رسول الله ﷺ: أما أنت يا أبا بكر والمؤمنين فتجزون بذلك فى الدنيا حتى تلقوا الله وليس لكم ذنوب وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة. قال أبو عيسى: هذا حديث غريب وفى إسناده مقال وموسى ابن عبيدة يضعف فى الحديث ضعفه يحيى بن سعيد وأحمد بن حنبل ومولى بن سباع مجهول وقد روى هذا الحديث من غير هذا الوجه عن أبى بكر وليس له إسناد صحيح أيضا وفى الباب عن عائشة. قال السيوطى فى الدر: وأخرج أحمد وهناد وعبد بن حميد والحكيم الترمذى وابن جرير وأبو يعلى وابن المنذر وابن حبان وابن السنى فى عمل اليوم والليلة والحاكم وصححه والبيهقى فى شعب الإيمان والضياء فى المختارة عن أبى بكر الصديق أنه قال: «يا رسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية ﴿ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به﴾ فكل سوء جزينا به؟ فقال النبى ﷺ: غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تنصب، ألست تمرض، ألست تحزن، ألست تصيبك اللأواء؟ قال: بلى. قال: فهو ما تجزون به».

(١١٥) سددوا وقاربوا :

رواه الترمذى فى تفسير القرآن باب ومن سورة النساء (٥٠٢٩) عن أبى هريرة قال: لما نزلت ﴿من يعمل سوءا يجز به﴾، شق ذلك على المسلمين فشكوا ذلك إلى النبى ﷺ فقال: «قاربوا وسددوا. وفى كل ما يصيب المؤمن كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها» هذا حديث حسن غريب.

(١١٦) ما من مسلم يشاك شوكة:

رواه البخارى فى المرضى باب: ما جاء فى كفارة المرضى (٥٣١٧) ومسلم فى البر والصلة والآداب، باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن (٢٥٧٢) عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: (ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها). ورواه البخارى فيما تقدم (٥٣١٨) عن أبى سعيد الخدرى، وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: (ما يصيب المسلم، من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه).

(١١٧) فى ظلال القرآن ٧٦٢/٥ ومن العلماء من يرى ترك الأمر إلى مشيئة الله وحكمته؛ فهو الحكيم فيما يصنع، الخبير بما يستحق كل إنسان من الجزاء العادل ؛ ولا يظلم ربك أحدا .

(١١٨) روح المعانى ١٥٤/٥ .

(١١٩) لو كنت متخذا خليلا:

رواه البخارى فى الصلاة (٤٦٦) وفى المناقب (٣٦٥٤، ٣٩٠٤) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٣٨٢) والترمذى فى المناقب (٣٦٦٠) (١٠٧٥٠) من حديث أبى سعيد الخدرى قال: خطب النبى ﷺ فقال: إن الله خير عبدا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله» فبكى أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقلت فى نفسى: ما يبكى هذا الشيخ إن يكن الله خير عبدا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله فكان رسول الله ﷺ هو العبد وكان أبو بكر أعلمنا قال: يا أبا بكر لا تبك إن أمن الناس على صحبته وماله أبو بكر ولو كنت متخذا خليلا من أمتى لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الإسلام ومودة لا يبقين فى المسجد باب إلا سد إلا باب أبى بكر». ورواه البخارى فى الصلاة (٤٦٧) وفى المناقب (٣٦٥٦) وفى الفرائض (٦٧٣٨) والدارمى فى الفرائض (٢٩١٠) وأحمد فى مسنده (٢٤٢٨، ٣٣٧٥) من حديث ابن عباس عن النبى

ﷺ قال: لو كنت متخذا من أمتى خليلا لاتخذت أبا بكر ولكن أخى وصاحبى». ورواه البخارى فى المناقب (٣٦٥٨) (١٥٦٧٥، ١٥٦٨٠) عبد الله بن أبى مليكة قال: كتب أهل الكوفة إلى ابن الزبير فى الجد فقال: أما الذى قال رسول الله ﷺ: «لو كنت متخذا فى هذه الأمة خليلا لاتخذته» أنزله يعنى أبا بكر. ورواه مسلم فى المساجد (٥٣٢) من حديث جندب قال: سمعت النبى ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «إنى أبرأ إلى الله أن يكون لى منكم خليل فإن الله تعالى قد اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا ولو كنت متخذا من أمتى خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إنى أنهاكم عن ذلك». ورواه مسلم فى فضائل الصحابة (٢٣٨٣) والترمذى فى المناقب (٣٦٥٥) وابن ماجه فى المقدمة (٩٣) وأحمد فى مسنده (٣٥٧٠، ٣٦٨١، ٤٣٤١، ٤٣٩٩) من حديث عبد الله بن مسعود يحدث عن النبى ﷺ أنه قال: لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكنه أخى وصاحبى وقد اتخذ الله عز وجل صاحبكم خليلا. ورواه أحمد فى مسنده (١٥٤٩٢) والترمذى فى المناقب (٣٦٥٩) من حديث ابن أبى المعلى عن أبيه أن رسول الله ﷺ خطب يوما فقال: «إن رجلا خيره ربه بين أن يعيش فى الدنيا ما شاء أن يعيش ويأكل فى الدنيا ما شاء أن يأكل وبين لقاء ربه فاختار لقاء ربه» قال: فبكى أبو بكر فقال أصحاب النبى ﷺ: «ألا تعجبون من هذا الشيخ إذ ذكر رسول الله ﷺ رجلا صالحا خيره ربه بين الدنيا وبين لقاء ربه فاختار لقاء ربه قال: فكان أبو بكر أعلمهم بما قال رسول الله ﷺ فقال أبو بكر: بل نفديك بآبائنا وأموالنا فقال رسول الله ﷺ ما من الناس أحد أمن إلينا فى صحبته وذات يده من ابن أبى قحافة ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت ابن أبى قحافة خليلا ولكن ود وإخاء إيمان ود وإخاء إيمان مرتين أو ثلاثا وإن صاحبكم خليل الله. وقال الترمذى: هذا حديث حسن غريب. ورواه الترمذى فى المناقب (٣٦٦١) من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يدا يكافيه الله بها يوم القيامة وما نفعنى مال أحد قط ما نفعنى مال أبى بكر ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ألا وإن صاحبكم خليل الله». وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(١٢٠) أنا سيد ولد آدم :

رواه مسلم فى الفضائل (٢٢٨٧) وأبو داود فى السنة (٤٦٧٣) وأحمد (١٠٥٨٩) من حديث أبى هريرة. رواه الترمذى فى تفسير القرآن (٣١٤٨) وفى المناقب (٣٦١٥) وابن ماجه فى الزهد (٤٣٠٨) وأحمد (١٠٦٠٤) من حديث أبى سعيد. رواه أحمد (٢٥٤٢، ٢٦٨٧) من حديث ابن عباس ﷺ.

(١٢١) وفعله : نشز ينشز : بوزن : يمكر، ويعرف .

(١٢٢) لما كبرت سودة :

رواه البخارى فى الهبة (٢٥٩٤) وفى الشهادات (٢٦٨٨) وفى النكاح (٥٢١٢) وأبو داود فى النكاح (٢١٣٨) وابن ماجه فى النكاح (٢١٣٨) وابن ماجه فى النكاح (١٩٧٢) وأحمد فى مسنده (٢٣٨٧٤، ٢٤٣٣٨) عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه وكان يقسم لكل امرأة منهن يومها وليلتها غير سودة بن زمعة وهبت يومها وليلتها لعائشة زوج النبى ﷺ تبتغى بذلك رضا رسول الله ﷺ. ورواه النسائى فى النكاح (٣١٩٧) ابن عباس قال توفى رسول الله ﷺ وعنده تسع نسوة يصيبهن إلا سودة فإنها وهبت يومها وليلتها لعائشة.

(١٢٣) لما أنزل الله فى سودة:

رواه أبو داود فى النكاح (٢١٣٥) من حديث هشام بن عروة عن أبيه قال: قالت عائشة: يا ابن أختى كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض فى القسم من مكثه عندنا وكان قل يوم إلا وهو يطوق علينا جميعا فيدنو من كل امرأة من غير مسيس حتى يبلغ إلى التى هو يومها فيبيت عندها ولقد قالت سودة بنت زمعة حين أسنت وفرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ: يا رسول الله يومى لعائشة فقبل ذلك رسول الله ﷺ منها قالت: نقول: فى ذلك أنزل الله تعالى وفى أشباهها أراه قال: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا﴾. لم أره فى البخارى بهذا اللفظ، وانظر ما قبله، وما بعده.

(١٢٤) الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها:

رواه البخارى فى المظالم (٢٤٥٠) وفى الصلح (٢٦٩٤) وفى تفسير القرآن (٤٦٠١) وفى النكاح (٥٢٠٦) ومسلم فى

التفسير (٣٠٢١) من حديث عائشة رضى الله عنها فى هذه الآية ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا﴾ قالت: الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها فتقول: أجعلك من شأنى فى حل فنزلت هذه الآية فى ذلك.

(١٢٥) تفسير الطبرى ٢٦٨/٩.

(١٢٦) أبغض الحلال إلى الله الطلاق :

رواه أبو داود فى الطلاق (٢١٧٧، ٢١٧٨) وابن ماجه فى الطلاق (٢٠١٨) من حديث ابن عمر رضى الله عنه.

ورواه أبو داود فى الطلاق (٢١٧٧) مرسلا. قال الحافظ فى التلخيص: ورجح أبو حاتم والدارقطنى فى العلل والبيهقى المرسل.

(١٢٧) تفسير ابن كثير ٥٦٣/١.

(١٢٨) التفسير الوسيط مجمع البحوث الإسلامية - الأزهر الحزب العاشر ص ٩٣٠ .

(١٢٩) تفسير الطبرى ٢٨٣/٩.

(١٣٠) تفسير الطبرى ٢٩٢/٩.

(١٣١) تفسير الطبرى ٢٩٥/٩.

(١٣٢) تفسير الطبرى ٢٩٨/٩.

(١٣٣) تفسير الطبرى ٣٠٣/٩.

(١٣٤) فتح القدير تأليف محمد بن على الشوكانى ٥٢٦/١.

(١٣٥) فتح القدير للشوكانى ٥٢٨/١.

(١٣٦) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى ٤٥٠/١.

(١٣٧) أثقل الصلاة على المنافقين :

ذكر البخارى تعليقا فى مواقيت الصلاة باب ذكر العشاء والعتمة، ثم وصله فى الأذان (٦٥٧) ومسلم فى المساجد (٦٥١) وابن ماجه فى المساجد (٧٩٧) (٩٢٠٢، ٩٦٨٧، ٩٧٥٠، ١٠٤٩٦) والدارمى فى الصلاة (١٢٧٣) من حديث أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ: ليس صلاة أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا لقد هممت أن آمر المؤذن فيقيم ثم آمر رجلا يؤم الناس ثم آخذ شعلا من نار فأحرق على من لا يخرج إلى الصلاة بعد. ورواه أحمد فى مسنده (٢٠٧٥٨، ٢٠٧٦٧) وأبو داود فى الصلاة (٥٥٤) والنسائى فى الإمامة (٨٤٣) والدارمى فى الصلاة (١٢٦٩) من حديث أبى بن كعب أنه قال: صلى رسول الله ﷺ الصبح فقال: شاهد فلان فقالوا: لا فقال: شاهد فلان فقالوا: لا فقال شاهد فلان فقالوا: لا فقال إن هاتين الصلاتين من أثقل الصلوات على المنافقين ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا والصف المقدم على مثل صف الملائكة ولو تعلمون فضيلته لابتدرتموه وصلاة الرجل مع الرجلين أزكى من صلاته مع رجل وما كان أكثر فهو أحب إلى الله تبارك وتعالى.

(١٣٨) أخلص دينك يكفك القليل من العمل :

قال السيوطى فى الدر: وأخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب الإخلاص وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عن معاذ بن جبل: أنه قال لرسول الله حين بعثه إلى اليمن: أوصنى. قال: «أخلص دينك يكفك القليل من العمل».

قال المناوى فى الفيض: قال الحاكم: صحيح ورده الذهبى وقال العراقى: رواه الديلمى من حديث معاذ وإسناده منقطع.

(١٣٩) اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض:

رواه البخارى فى التهجد (١١٢٠) ومسلم فى صلاة المسافرين وقصرها ح ١٢٨٨، والترمذى فى الدعوات ح ٣٣٤٠، والنسائى فى قيام الليل ح ١٦٠١، وأبو داود فى الصلاة ح ٦٥٥، وابن ماجه فى إقامة الصلاة ح ١٣٤٥، وأحمد ح ٢٥٧٥، ومالك فى النداء للصلاة ح ٤٥١، والدارمى الصلاة ح ١٤٤٨.

محتويات الكتاب

تم بحمد الله الجزء الخامس . . ويليه الجزء السادس بإذن الله

تفسير القرآن الكريم

الجزء السادس من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾

المفردات :

لا يحب الله الجهر بالسوء من القول؛ أى لا يرضى الله عن إفشاء القبيح من القول فى الناس ؛ بذمهم وذكر معايبهم .

التفسير :

١٤٨ – **لاَّ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا.** حث الإسلام على الالتزام بآداب النطق والخطاب وحذّر من السخرية والاستهزاء والهمز واللمز.

وفى الأثر (إن الله يبغض الفاحش من القول) وفى الآية بيان أن الله سبحانه وتعالى يحب للمؤمنين أن يلتزموا النُّطق بالكلمة الطيبة والأسلوب الهادئ الجميل، ويكره سبحانه للمؤمنين أن يجهروا بالسوء من القول – كالسب والشتم والتجريح والإهانة – إلاَّ فى حالة وقوع ظلم عليهم، ففى هذه الحالة يجوز لهم أن يجهروا بالسوء من القول حتى يرتدع الظالم عن ظلمه. وهذا الحق الذى أعطى للمظلوم يشمل أن يشكو ظالمه أمام القضاء.

وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا... أى أن الله سميع للجهر والسر، عليم بكل شىء، وهو تذييل قصد به التحذير من التعدى فى الجهر المأذون فيه، ووعد للمظلوم بأنه تعالى يسمع شكواه ودعاءه أى: **وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا** لكل ما يُسرُّ به المسرون أو يجهر به المجاهرون.

عَلِيمًا... بما يدور فى النفوس من بواعث وهواجس، وسيجازى كل إنسان بأقواله وأعماله.

قال القرطبى :

والذى يقتضيه ظاهر الآية أن للمظلوم أن ينتصر من ظالمه – ولكن مع اقتصاد – إن كان مؤمنا، فأما أن يقابل القذف بالقذف ونحوه فلا.. وإن كان كافرًا فأرسل لسانك وادع بما شئت من الهلكة وبكل دعاء كما فعل النبى ﷺ حيث قال : «اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين

كسنى يوسف» [١] وروى أبو داود عن عائشة أنها (سُرق لها شيء فجعلت تدعو عليه) أي على السارق فقال ﷺ (لا تَسبِّخي عنه) [٢] أي لا تخففي عنه العقوبة بدعائك عليه [٣].

جاء في التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية:

ومن الجهر بالسوء من القول: إذاعة (التمثيليات والأفلام) المشتملة على القصص الفاجرة، التي تبرز فيها الرذيلة، وتسلط الأضواء على ممثلات الإغراء الجنسي، وتسمع فيها العبارات المخجلة، والأصوات المنكرة المغرية بالإثم، وترى فيها الصُور المُفسدة لأخلاق الذكور والإناث، الكبار منهم والصغار، فذلك يبغضه الله ولا يحبّه، بل إنه تعالى يعاقب عليه أشد العقاب، لخطورته على الأخلاق.

ومن الجهر بالسوء: نشر كتب الجنس وصوره التي تحرّض الشباب على الفسق والانحلال الخلقي، وتستأصل المناعة الخلقية – في شبابنا المسلم – من أصولها [٤].

١٤٩ – إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا. المراد بالخير: ما يعم كل ضروبه من الكلمة الطيبة، والثناء الجميل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصدقة ونحو ذلك من خصال الخير الكثيرة.

والمعنى: إن تظهروا فعل الخير بأنواعه المختلفة، أو تستروه وتجعلوه سرا بينكم وبين ربكم، أو تعفوا عن سوء صدر من سواكم نحوكم، من جهر بكلام يؤذيكم، أو إسرار به، أو ظلم لحق بكم منهم، فقد تخلقتم بأخلاق الله تعالى، فإن الله كان ولم يزل كثير العفو عمَّن عصاه عظيم القدرة على عقوبته، ولكنه يؤثر العفو مع القدرة على العقاب، فاعفوا واصفحوا عمن أساء إليكم وأنتم قادرون على الانتقام منه.

فالآية تدعو الناس إلى فعل الخير سواء أكان سرًّا أمْ جهرًا كما تدعو إلى العفو عن المسيء.

قال تعالى: وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ. (الشورى: ٤٠)

قال ابن كثير: وفي الحديث الصحيح (ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبدًا يعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله) [٥].

وقال الفخر الرازي: اعلم أن معاقد الخير على كثرتها محصورة في أمرين: صدق مع الحق، وخلُق مع الخَلْق، والذي يتعلق بالخَلْق محصور في قسمين: إيصال نفع إليهم، ودفع ضرر عنهم، فقوله تعالى: إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ.. إشارة إلى إيصال النفع إليهم، وقوله: أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوءٍ.. إشارة إلى دفع الضرر عنهم، فدخل في هاتين الكلمتين جميع أنواع الخير وأعمال البر [٦].

★ ★ ★

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾ ﴾

المفردات:

يكفرون بالله ورسله: أى يؤدى مذهبهم إلى الحكم بكفرهم بالله ورسله، على ما سيأتى بيانه .

ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله: بأن يؤمنوا بالله ويكفروا ببعض الرسل ، فيحصل بذلك التفريق بين الله ورسله فى الإيمان ، وهذا التفريق أدى بهم إلى الكفر بالله؛ لعصيانهم أمره، وإلى الكفر برسله، لأنهم يصدق بعضهم بعضا.

التفسير:

١٥٠ - إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ... الآية

بين سبحانه رذائل أهل الكتاب وأباطيلهم وسوء مصيرهم، بعد حديثه القريب عن المنافقين فقال سبحانه :

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِه. والمراد بهؤلاء الكافرين: اليهود والنصارى فاليهود كفروا بالله تعالى فجعلوه جسمًا ينزل إلى الأرض، ويأكل ويشرب، ويغالب غيره، فيغلِبُ تارة ويُغلب أخرى، ويقود جيوشهم فتنتصر تارة وتهزم أخرى، وكفروا بعيسى وبمحمد وآمنوا بغيرهما، وبذلك فرقوا بين الله ورسولَيه اللذين لم يؤمنوا بهما، وأقصوهما عن شرف الرسالة، وبذلك آمنوا ببعض الرسل، وكفروا بالبعض الآخر، وخالفوا بذلك أمر الله، وكانوا به كافرين بجميع الرسل.

وجاء فى تفسير الآية للدكتور محمد طنطاوى:

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِه. بأن يجحدوا وحدانية الله وينكروا صدق رسله عليهم الصلاة والسلام. ويريدن أن يفرقوا بين الله ورسله، أى يريدون أن يفرقوا بين الإيمان بالله تعالى، وبين الإيمان برسله، بأن يعلنوا إيمانهم بوجود الله تعالى وأنه خالق هذا الكون إلا أنهم يكفرون برسله أو ببعضهم [٧].

وإرسال الرسل، وإنزال الكتب أمر لابد من الإيمان به لأن الله تعالى يريد لعباده الهداية والإرشاد إلى طرق الخير، فأرسل الرسل ليكونوا هُداةً للبشرية ودعاة إلى الخير، وحجة على العصاة يوم القيامة، قال تعالى : رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ. (النساء: ١٦٥)

قال القرطبى : نصَّ سبحانه على أن التفريق بين الإيمان بالله والإيمان برسله كفر، وإنما كان كفرا لأنَّ الله سبحانه فرض على الناس أن يعبدوه بما شرع لهم على ألسنة الرسل، فإذا جحدوا رسالة الرسل فقد ردّوا عليهم شرائعهم، ولم يقبلوها منهم، فكانوا ممتنعين من التزام العبودية التى أمروا بالتزامها. فكان كجحد الصانع سبحانه، وجحد الصانع كفر، لما فيه من ترك التزام الطاعة والعبودية، وكذلك التفريق بين رسله فى الإيمان بهم كفر [٨].

وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ. فاليهود آمنوا بموسى وكفروا بعيسى وبمحمد والنصارى آمنوا بعيسى وكفروا بمحمد ﷺ فهم آمنوا ببعض الرسل، وكفروا بالبعض الآخر، وكانوا بذلك كافرين بالرسل جميعا، لأن دين الله واحد، فالكفر برسول من الرسل كفر بما جاء به سائر الرسل، ولأن كل رسول وصى أمته أن يؤمنوا بالرسل الذين يبعثهم الله بعده. فمن كفر بأحدهم فقد كذب الرسل الذين سبقوه وجحد وصيتهم.

وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً. أى: ويريدون أن يتخذوا طريقا وسطا بين الإيمان والكفر مع أنه لا وسط بينهما إذ الحق واحد، لا ينتقص منه، وليس بعد الحق إلا الضلال.

١٥١ – **أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا.** أى: أولئك الموصوفون بتلك الصفات الشائنة، هم الكافرون المبالغون فى الكفر حقا، فلا عبرة بما يزعمونه من الإيمان.

وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا. أى : وأعددنا لهؤلاء الكافرين عذابا يهينهم ويذلهم، جزاء التفريق بين الله ورسله، والإيمان بالبعض والكفر بالبعض الآخر.

١٥٢ – **وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ.** والذين آمنوا بالله حق الإيمان. وبما يجب له من صفات الكمال، وآمنوا بجميع الرسل حق الإيمان ولم يفرقوا فى الإيمان بين رسول ورسول بل آمنوا بهم جميعًا.

أُوْلَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا. أى: أولئك الذين آمنوا بالله ورسله دون التفريق بينهم فى الإيمان سوف يؤتيهم الله تعالى أجورهم التى وعدهم إياها، لأنهم هم المؤمنون حقًا دون من سبقهم ممن يؤمن ببعض الرسل ويكفر ببعض.

وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا. أى: كان وما زال كثير المغفرة والرحمة لمن تلك صفاتهم وهذه نعوتهم.

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد قابلت بين مصير الكافرين، ومصير المؤمنين؛ ليتميز الخبيث من الطيب، وليرتدع الناس عن الكفر وليستجيبوا لداعى الإيمان.

★ ★ ★

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا (١٥٤) ﴾

المفردات:

جهرة: علانية.

الصاعقة: النازلة المهلكة.

سلطانا مبينا: تسلطا ظاهرا على قومه.

الطور: الجبل المعروف.

بميثاقهم: بعهدهم.

ادخلوا الباب: المراد به؛ باب المدينة التى أمروا بدخولها.

سجدا: خاضعين.

لا تعدوا فى السبت: لا تظلموا فيه أنفسكم، بصيد الحيتان التى حُرِّم عليكم صيدها فيه.

ميثاقا غليظا: عهدا وثيقا مؤكدا.

التفسير:

١٥٣ - يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوآ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِم... الآية.

سبب النزول:

روى ابن جرير فى تفسيره عن ابن جريج، قال : إن اليهود قالوا لمحمد ﷺ : (لن نبايعك على ما تدعونا إليه حتى تأتينا بكتاب من عند الله تعالى إلى فلان أنك رسول الله وإلى فلان أنك رسول الله...)

وعن قتادة : إنهم سألوه أن ينزل على رجال منهم بأعيانهم كُتُبًا تأمر بتصديقه واتّباعه [٩].
والمراد بأهل الكتاب هنا: اليهود خاصة.

والمراد بنزول الكتاب : أن تنزل عليهم آيات القرآن مكتوبة كما نزلت التوارة على موسى مكتوبة. أو إنزال كتب على أقوام من كبار اليهود ليصدقوا محمدًا.

والمعنى : يسألك اليهود يا محمد على سبيل التعنت والعناد أن تنزل عليهم كتابا من السماء مكتوبا جملة ؛ كما جاء موسى لآبائهم بالتوراة مكتوبة فى الألواح جملة.

أو يسألونك أن تنزل على رجال منهم بأعيانهم كتبا من السماء تطلب منهم تصديقك.

وسؤال اليهود هذا ؛ مقصدهم من ورائه التعنُّت والجحود، ولو كانوا يريدون الإيمان حقا لما وجهوا إليك هذه الأسئلة المتعنتة، لأن الأدلة القاطعة قد قامت على صدقك، وأن ما ينزل عليك من القرآن هو وحى من عند الله، لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله.

فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوآ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً. أى: لا تحزن من أسئلة اليهود فإن طبعهم فيه العناد والمكابرة، فقد سأل آباؤهم موسى ما هو أكبر من ذلك حيث قالوا له: أرنا الله عيانا بحاسة البصر.

ومعنى جَهْرَةً : من الجهر وهو ضدّ الإخفاء، يقال: جهر البئر واجتهرها إذا أظهر ماءها.

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

وإنما أسند السؤال إليهم وإن وجد من آبائهم فى أيام موسى. وهم النقباء السبعون لأنهم كانوا على مذهبهم، وراضين بسؤالهم ومضاهين لهم فى التعنت.

وقد ورد هذا المعنى فى سورة البقرة فى قوله تعالى :

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ... (البقرة: ٥٥، ٥٦).

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ. أى: أن الله أهلكهم بما شاء من ألوان الإهلاك لتجاوزهم حد الأدب والحق.

ويبدو أن المراد بالصاعقة هنا : (ذلك الصوت الشديد المجلجل المزلزل المصحوب بنار هائلة، والذى كان من آثاره أن صعقوا : أى خرّوا مغشيا عليهم، أو هلكوا بسبب ظلمهم وعنادهم، وفسوقهم عن أمر الله، قال ابن جرير الطبرى : والصاعقة: كل أمر هائل رآه الرائى أو عاينه أو أصابه، حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب وذهاب عقل، صوتا كان ذلك أو نارًا أو زلزلة أو رجفة..)

ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا. أى: ثم اتّخذ بنو إسرائيل العجل معبودًا لهم، من بعد ما جاءتهم الأدلة الواضحة الشاهدة بوحدانية الله، النافية لعبادة آلهة سواه.

فلقد أراهم الله على يد موسى آيات عظيمة، منها : انشقاق البحر يسيرون فيه، وقد مهد الله لهم اثنى عشر طريقا فى البحر، يتخللها الماء كالطود العظيم.

ومن هذه الآيات أن الله فجر لهم اثنتى عشرة عينا، عندما ضرب موسى الحجر بعصاه، وقد علم كل أناس منهم مشربهم.

ومن هذه الآيات التى وقعت أمامهم أنهم رأوا عصا موسى تبتلع ما جاء به السحرة من السحر العظيم، وهم قد شاهدوا الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدّم.

إلى غير ذلك من الآيات.

وقد جاءت هذه الآيات كلها بدعوة موسى ربه.

قال تعالى : فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ. (الأعراف: ١٣٣).

وقال سبحانه : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْئَلْ بَنِى إِسرَاءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّى لأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُورًا. (الإسراء: ١٠١).

فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا. أى: عفونا عن اتخاذهم العجل إلهًا بعد ما تابوا وأقلعوا عن عبادته لأن التوبة تجُبُّ ما قبلها.

وآتينا موسى سلطانا بينا واضحا على قومه، فقوى فيهم أمره وضعفت معارضتهم له، وظهر انكسار نفوسهم فقبلوا أمره أن يقتلوا أنفسهم – بالندم والحزن – على ما صنعوا توبة منهم.

وفيما تقدم بشارة للنبى ﷺ بالانتصار على اليهود فى المدينة، وقد حقق الله له هذه البشارة،

فقد أجلاهم عن المدينة بعد غزوات بنى قينقاع وبنى قريظة وبنى النضير جزاء ما فعلوا مع النبى ﷺ من نكث العهود والخيانة فى أوقات الشدَّة.

١٥٤- وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُوا فِى السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقًا غَلِيظًا.

تشير الآية إلى جانب من عناد اليهود وقسوة قلوبهم، فقد جاءهم موسى بألواح التوراة، فاستثقلوا العمل بما جاء فيها من التكاليف، ولم يأخذوها بعزم وقوة، بل بتثاقل وتراخ وعدم اقتناع، لأن قلوبهم لا تزال مشدودة إلى عبادة العجل، فلذا رفع الله فوقهم الجبل تهديدًا لهم، ليقبلوا العمل بالتوراة، ويأخذوها بقوة وعزم ويعطوا الميثاق والعهد على ذلك.

قال تعالى : وَإِذْ نَتَقْنَا الجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعُ بِهِمْ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. (الأعراف: ١٧١).

وهكذا كان شأن اليهود : عصيان لما يؤمرون به وعقاب أو تهديد بعقاب من الله، حتى يستقيموا على الجادة.

والمعنى : ورفعنا فوقهم الطور بسبب ميثاقهم ليعطوه، ويتعهدوا بالعمل بالتوراة.

قال ابن كثير : (وذلك أنهم حين امتنعوا عن الالتزام بأحكام التوراة وظهر منهم إباء عمّا جاء به موسى - عليه السلام - رفع الله على رءوسهم جبلا ثم ألزموا فالتزموا، وسجدوا، وجعلوا ينظرون إلى ما فوق رءوسهم خشية أن يسقط عليهم).

وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا. أى: وقلنا لهم على لسان أنبيائهم: ادخلوا باب القرية التى أمرناكم بدخولها ساجدين لله، أى: ادخلوها متواضعين خاضعين لله، شاكرين فضله وكرمه، ولكنهم خالفوا ما أمرهم الله به، مخالفة تامة.

واختلف فى هذا الباب الذى أمروا بدخوله سجدًا، فقيل: هو باب بيت المقدس. روى ابن المنذر وغيره عن قتادة : كنا نتحدث أنه باب من أبواب بيت المقدس.

وقيل : باب إيلياء.

وقيل : باب أريحاء.

وقد أمروا أن يسألوه تعالى أن يحط عنهم ذنوبهم فيقولوا حطة.

قال تعالى فى الآيتين ٥٨، ٥٩ من سورة البقرة :

وإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَىَ الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ.

ولكن بنى إسرائيل لما دخلوا منتصرين، تنكروا لما أمرهم الله به من الخضوع والخشوع لله سبحانه.

بل سخروا بالخشوع والاستغفار واستبدلوا بهما عملاً ماجنا، وقولا هازئا.

روى البخارى فى تفسير سورة البقرة عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال :

«قيل لبنى إسرائيل: ادخلوا الباب سجدًا وقولوا: حطة؛ دخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا: حنطة؛ حبة فى شعرة» [١٠].

وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُوا فِي السَّبْتِ. أى: وقلنا لهم كذلك لا تعتدوا فى السبت ولا تتجاوزوا الحدود التى أمركم الله بالتزامها فى يوم السبت، والتى منها ألا تصطادوا فى هذا اليوم، ولكنهم خالفوا أمر الله، وتحايلوا على استحلال محارمه.

وقد تحدث القرآن عن عدوان اليهود فى السبت فى كثير من آيات القرآن الكريم قال تعالى :

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِين. (البقرة ٦٥، ٦٦).

وقال سبحانه : وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُون. (الأعراف: ١٦٣).

وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا. أى: وأخذنا منهم عهدًا مؤكدًا كلَّ التأكيد وموثقا كل التوثيق، بأن يعملوا بما أمرهم الله به، ويتركوا ما نهاهم عنه.

ويجوز أن يكون المراد بالميثاق الغليظ هنا، هو ما أخذه الله منهم بعد رفع الجبل فوقهم كأنه ظلة. تهديدًا لهم؛ فقد أعطوْا موسى عليه السلام عهدًا بالعمل بالتوراة، ولكنهم نقضوا عهودهم. كما تجده فى الآية الآتية.

★ ★ ★

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ ﴾

المفردات :

فبما نقضهم ميثاقهم : أي: فبسبب نقضهم ومخالفتهم للعهد الوثيق المؤكد وما في قوله: فَبِمَا نَقْضِهِم: لتوكيد هذا النقض ، فإنها كثيرا ما توصل بالكلام لهذا الغرض كقوله تعالى: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُم . أي: فبرحمة مؤكدة من الله كنت لينا معهم .

قلوبنا غلف : أي: مغلفة ومغطاة بأغشية تمنعها من قبول ما جاءَ به الرسول. وغلف : جمع أغلف . وهو : ما له غلاف .

طبع الله عليها بكفرهم : أي: تخلى عن هدايتها بسبب إصرارهم على الكفر .

بهتانا عظيما : كذبا فظيعًا ؛ يبهت من يقال فيه ، ويدهشه ، ويحيره .

التفسير :

١٥٥ – فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ... أي : فنقض بنو إسرائيل الميثاق الغليظ الذى أخذناه عليهم، فبسبب هذا النقض لعناهم وعاقبناهم، كما لعناهم وعاقبناهم بسبب كفرهم بآيات الله الكونية العجيبة التى أجراها الله على يد موسى، إذ عبدوا العجل بعدها، وقالوا : أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً.

وكذلك آيات التوراة فقد أخفوا ما جاء فيها من بشارات عن النبى ﷺ، أو أساءوا تأويلها ليبرروا كفرهم.

وكما لعناهم بذلك، لعناهم بقتلهم أنبياءَهم بغيا وحسدًا دون شائبة من الحق كما فعلوا بيحيى وزكريا وشعيب وغيرهم – ولعناهم وعاقبناهم بقولهم :

قُلُوبُنَا غُلْفٌ. أي: مغطاة بأغطية غليظة من الصدود والرفض لدعوتك يا محمد، فلن تصل إليها براهينك فلا تتعب نفسك معنا.

وقريب من هذا قوله تعالى حكاية عن المشركين :

وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُون ... (فصلت: ٥).

وقيل : إن قوله: غُلْفٌ : جمع غلاف – ككُتُب وكتاب وعليه يكون المعنى :

وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ. أي: أوعية للعلم شأنها في ذلك شأن الكتب فلا حاجة بنا إلى علم جديد.

والتأويل الأول أقرب إلى سياق الآية فقد ردَّ الله عليهم بقوله : بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلا.

والمعنى: ليست قلوبهم مغطاة بأغطية تحجب عنها إدراك الحق كما زعموا، بل الحق : أنَّ الله تعالى ختم عليها، وطمس معالم الحق فيها بسبب كفرهم وأعمالهم القبيحة، وإيثارهم الغى على سبيل الرشاد.

فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً.

أي : فلا يؤمنون إلا إيمانا قليلا، ليس له وزن عند الله لفقدانه العناصر الضرورية لصحته، ومن هذه العناصر: صدق اليقين، ومحبة الله، وإخلاص الوجه له، وقريب من ذلك قوله تعالى:

قَالَتِ الأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُواْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُم... (الحجرات: ١٤).

قال الدكتور محمد سيد طنطاوى :

فقوله: إِلاَّ قَلِيلاً : نعت لمصدر محذوف أي: إلا إيمانًا قليلا، كإيمانهم بنبوة موسى عليه السلام، وإنما كان إيمانهم هذا لا قيمة له عند الله، لأن الإيمان ببعض الأنبياء والكفر ببعضهم، يعتبره الإسلام كفرا بالكلّ كما سبق أن بينًا في قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا... (النساء: ١٥٠، ١٥١).

ومنهم من جعل قوله: إِلاَّ قَلِيلاً. صفة لزمان محذوف أي : فلا يؤمنون إلا زمانا قليلا.

ومنهم من جعل الاستثناء في قوله: إِلاَّ قَلِيلاً. من جماعة اليهود المدلول عليهم بالواو في قوله فَلاَ يُؤْمِنُونَ. أي : فلا يؤمنون إلا عددا قليلا منهم: كعبد الله بن سلام وأشباهه. والجملة الكريمة وهي قوله : طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِم. معترضة بين الجمل المتعاطفة، وقد جيء بها للمسارعة إلى ردّ مزاعمهم الفاسدة وأقاويلهم الباطلة [11].

١٥٦ – وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا.

المراد بالكفر هنا : كفرهم بعيسى عليه السلام.

والبهتان : هو الكذب الشديد الذى لا تقبله العقول، بل يحيرها ويدهشها لغرابته وبعده عن الحقيقة.

والمعنى : إن من أسباب لعن اليهود وضرب الذلة والمسكنة عليهم، كفرهم بعيسى عليه السلام، وهو الرسول المبعوث إليهم ليهديهم إلى الحق وإلى الطريق المستقيم.

وافتراؤهم الكذب على مريم أم عيسى، فقد اتهموها فى عرضها لأنها حملت بعيسى وهى غير متزوجة، وقد برأها الله من السفاح على لسان وليدها الذى أنطقه الله عقب الوضع، فبرأ والدته وأخبر المشاهدين بأنه عبد الله، وأنه آتاه الكتاب وجعله نبيا... إلخ.

وقد وردت هذه المعانى فى الصفحة الأولى والثانية من سورة مريم، وتكررت فى عدد من السور مثل سورة آل عمران، والأنبياء والتحريم.

قال تعالى : وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَلَمِينَ * إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ. (الأنبياء ٩١، ٩٢).

★ ★ ★

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾

المفردات :

شبه لهم : أى: ألقى شبهه على غيره لينجو من القتل فاشتبه عليهم .

لفى شك منه : أى: لفى حيرة وتردد ، وليس إلى الجزم – بأنه عيسى – من سبيل .

التفسير :

١٥٧ – وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ...

أى: ولعن الله اليهود. بسبب قولهم على سبيل التَّبجُّح والتفاخر: إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم فنسبوه إلى أمّه تهكما به، وغمزًا له ولأمه، بما هو معروف من رأيهم فيهما إلى يومنا هذا.

وكلمة رسول الله إن كانت من قول اليهود فهى من باب التهكم بدعواه أنه رسول الله. كما قال المشركون فى حق رسولنا ﷺ : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُون﴾. (الحجر: ٦).

فكأنهم يقولون : إنا قتلنا المسيح الذى يزعم أنه رسول الله، ولو كان كذلك، لما استطعنا قتله.

وأما إن كانت من قول الله تعالى وليست من قولهم فهى استئناف من الله تعالى أريد به مدح عيسى عليه السلام ورَفْع منزلته.

قال الدكتور محمد سيد طنطاوى :

(ولا شك أن ما صدر من اليهود فى حق عيسى عليه السلام من محاولة قتله، واتخاذ كل وسيلة لتنفيذ غايتهم ثم تفاخرهم بأنهم قتلوه وصلبوه لا شك أن كل ذلك يعتبر من أكبر الجرائم لأنه من المقرر فى الشرائع والقوانين أن من شرع فى ارتكاب جريمة من الجرائم واتخذ كل الوسائل لتنفيذها، ولكنها لم تتم لأمر خارج عن إرادته فإنه يعدّ من المجرمين الذين يستحقون العقاب الشديد) [١٢].

واليهود قد اتخذوا كافة الطرق لقتل عيسى ولكن حيل بينهم وبين ما يشتهون لأسباب خارجة عن إرادتهم، ومعنى هذا أنه لو بقيت لهم أية وسيلة لإتمام جريمتهم لأسرعوا فى تنفيذها فهم يستحقون عقوبة المجرم فى نيته وفى تفكيره وفى شروعه لارتكاب ما نهى الله عنه.

وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُم .

وذلك أنهم تآمروا على قتله مع الحاكم الرومانى الذى كان يحكم بيت المقدس، بعد أن أفهموه أن دعوته خطر على الحكم الرومانى وعلى الشعب، فظاهرهم الحاكم الرومانى على قتله، واتخذوا من أحد أتباعه جاسوسًا عليه يرصد حركاته وتنقلاته، وكان اسمه يهوذا الإسخريوطى، وقد جعلوا له فى مقابل ذلك ثلاثين درهما.

ثم جاءت قوة من الرومان يتقدمهم يهوذا، ودخلوا على المسيح، فألقى الله شبه المسيح على يهوذا، ورفع عيسى إليه، فقبض الرومان على يهوذا ليصلبوه ويقتلوه، فقال لهم: أنا يهوذا، فقالوا: بل أنت عيسى، فإن كنت يهوذا كما تدعى فأين عيسى ؟ فقال يهوذا لهم: فإن كنت عيسى – كما قلتم – فأين يهوذا ؟

فلم يأبهوا لقوله،وأخذوه وصلبوه، هذه هى إحدى الروايات التى ذكرت فى الرجل الذى ألقى الله شبه عيسى عليه فقتلوه مكانه [١٣].

وفى تفسير ابن كثير ما يُفيد أن الله تعالى ألقى شبه المسيح على أحد تلاميذه المخلصين حينما أجمعت اليهود على قتله، فأخبره الله بأنه سيرفعه إليه؛ فقال لأصحابه :

أيكم يرضى أن يلقى عليه شبهى فيقتل ويصلب وهو رفيقى فى الجنة، فقال رجل منهم: أنا، فألقى الله عليه صورة عيسى عليه السلام، فقتل ذلك الرجل وصلب [١٤].

والذى يجب اعتقاده بنص القرآن الكريم أن عيسى عليه السلام لم يقتل ولم يصلب، وإنما رفعه الله إليه، ونجاه من مكر أعدائه، أما الذى قتل وصلب فهو شخص سواه.

وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ.. أى: وإن الذين اختلفوا فى شأن عيسى من أهل الكتاب لفى شك دائم من حقيقة أمره، أى: فى حيرة وتردد ليس عندهم علم ثابت قطعى فى شأنه أو فى شأن قتله، ولكنهم لا يتبعون فيما يقولونه عنه إلا الظن الذى لا تثبت به حجة ولا يقوم عليه برهان.

ولقد اختلف أهل الكتاب فى شأن عيسى اختلافًا كبيرًا ؛ فمنهم من زعم أنه ابن الله، وادعى أن فى عيسى عنصرا إلهيا مع العنصر الإنسانى، وأن الذى ولدته مريم هو العنصر الإنسانى، ثم أفاض الله عليه بعد ذلك العنصر الإلهى، ومنهم من قال: إن مريم ولدت العنصرين معًا.

ولقد اختلفوا فى أمر قتله، فقال بعض اليهود : إنه كان كاذبا فقتلناه قتلا حقيقيا، وتردد آخرون فقالوا : إن كان المقتول عيسى فأين صاحبنا وإن كان المقتول صاحبنا فأين عيسى.

وقال غيرهم : لا نَظُن أنهم قتلوه، فالوجه وجه عيسى والجسد لغيره.

وبالجملة فإن أمارات القطع – بأنه هو أو غيره – لم تكن متوافرة لديهم فلذلك شكُّوا، واختلفت أقوالهم فى شأنه.

وجاء فى التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر :

(ومن عجب أن تنص أناجيل المسيحيين، على أن المسيح أخبر حوارييه أنهم جميعا سيشكون فيه ليلة الصلب [١٥] فكيف ساغ لهم القطع بقتله وصلبه، حتى ألزموا أنفسهم تأويلات سخيفة، ناشئة عن اعتقادهم ألوهيته وصلبه، إذ زعموا أنه صلب ليَفْتدِى أهل الخطايا جميعا !!

وهذا زعم لا يقبله عاقل، فإن كان إلها أو ابن إله كما زعموا : يستطيع أن يغفر لمن شاء، وألا يحكّم فى جسده أسلحة أعدائه، كما أنه – باستسلامه لهم – تسبب فى زيادة خطاياهم بقتله، وهذا عكس المطلوب.

مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ. بعد أن أثبت الله شك المختلفين فى أمره، وأنهم لا ينزعون – فيما قالوه فى شأنه – عن يقين، بل عن حيرة وتردد فى أمره، أكد ذلك بقوله : **مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ.** أى: ليس

لهم بما قالوه فى قتل عيسى علم نَاشىء عن أدلة يقينية إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ، أى: لكن يتبعون – فيما قالوه– الظن والتخمين.

وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا. أى: وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكين متوهمين.

ويجوز أن تكون يقينًا حالا مؤكدة لنفى القتل أى: انتفى قتلهم إياه انتفاء يقينا. فاليقين منصب على النفى، أى: أن نَفْى كونه قد قتل أمر متيقن مؤكد مجزوم به – كقولك ما قتلوه حقا أى حق انتفاء قتله حقا.

١٥٨– بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا. أى: بل رفعه الله إلى موضع، تولى الله فيه حفظه وحمايته، حتى لا يجرى فيه حكم أعدائه.

وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا. أى: وكان الله ولم يزل عَزِيزًا. أى: منيع الجناب، لا يلجأ إليه أحد إلا أعزه وحماه، حَكِيمًا. فى جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور.

وجمهور العلماء على أن الله تعالى رفع عيسى إليه بجسده وروحه لا بروحه فقط.

قال الشيخ حسنين مخلوف فى تفسيره (صفوة البيان) :

والجمهور على أن عيسى رفع حيًا من غير موت ولا غفوة، بجسده وروحه إلى السماء، والخصوصية له – عليه السلام – هى فى رفعه وبقائه فيها إلى الأمر المقدر له.

وفسر بعضهم الرفع فى قوله تعالى: بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ. بأنه رفع بالروح فقط.

وقد دلت الأحاديث الصحيحة على أن عيسى رفع بجسده وروحه. ومنها ما رواه الشيخان (والذى نفسى بيده ليوشكنّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية) الحديث، وانظر كتاب التصريح بما تواتر فى نزول المسيح للكشميرى تحقيق الأستاذ عبدالفتاح أبو غدة [١٦].

★ ★ ★

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩)﴾

التفسير:

١٥٩ - وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِه... الآية

للمفسرين فى تفسير هذه الآية اتجاهان: الأول أن الضمير فى قوله: قَبْلَ مَوْتِه. يعود إلى عيسى عليه السلام - وعليه أن يكون المعنى: وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى - عند نزوله فى آخر الزمان - قَبْلَ مَوْتِه. أى: قبل موت عيسى.

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا. أى: وفى يوم القيامة يشهد عيسى على أهل الكتاب بأنه قد أمرهم بعبادة الله وحده، وأنَّه قد نهاهم عن الإشراك معه آلهة أخرى.

وقد انتصر لهذا الاتجاه كثير من المفسرين وعلى رأسهم شيخهم ابن جرير فقد قال: وأولى الأقوال بالصحة والصواب قول من قال فى تأويل ذلك:

(وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى).

وقد علق ابن كثير على ما رجحه ابن جرير بقوله:

ولا شك أن الذى قاله ابن جرير هو الصحيح؛ لأن المقصود من سياق الآيات بطلان ما زعمته اليهود من قتل عيسى وصلبه. أما الاتجاه الثانى فيرى أصحابه أن ضمير قَبْلَ مَوْتِه. يعود إلى الكتابى المدلول عليه بقوله: وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ.

وحاصل المعنى على هذا: أن كل يهودى ونصرانى - وهو يحتضر - يؤمن بعيسى قبل أن تزهق روحه فيعتقد أنَّه - أى عيسى - عبد الله ورسوله، لأن حقائق الحق تنكشف للمحتضر، ولكن هذا الإيمان لا ينفعه، لأنه حدث فى وقت انقطع فيه عنه التكليف، لأن وقت الغرغرة من عالم الآخرة. ويؤيد هذا الرأى قراءة أبى: ليؤمُنُنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِم. بضم النون وصيغة الجمع.

وقد جنح إلى هذا الرأى ابن عباس، كما نقله عنه ابن المنذر وغيره، واختاره أبو السعود والكشاف، وتفسير الجلالين.

والإخبار بحالتهم هذه وعيد لهم وتحريض على المسارعة إلى الإيمان بعيسى عليه السلام - قبل أن يضطروا إليه عند الموت - مع عدم فائدته.

★ ★ ★

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾

المفردات:

الذين هادوا: هم اليهود، هادوا: أي: تابوا من عبادة العجل.

أعتدنا: أعددنا لهم قبل قدومهم.

التفسير:

١٦٠ – **فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ...** الآية

الحديث لا يزال موصولا فى شأن أهل الكتاب.

والمعنى: فبسبب ظلم عظيم من الذين هادوا – أى: تابوا من عبادة العجل – حرمنا ما كان حلالاً لهم من الطيبات، ولو أنهم لم يقعوا فى هذا الظلم الشديد لما حرم الله عليهم هذه الطيبات التى هم فى حاجة إليها.

وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا. أى: وبمنعهم كثيرا من الناس عن الدخول فى دين الله.

قال مجاهد: صدُّوا أنفسهم وغيرهم عن الحق.

١٦١– **وَأَخْذِهِمُ الرِّبَاْ وَقَدْ نُهُوا عَنْه.** أى: وحرمنا عليهم الطيبات – أيضا – بسبب أخذهم الربا فى أموالهم التى يقرضونها غيرهم.

وَأَكْلِهِم أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ. أى: بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة.

وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا. أى: وأعددنا فى الآخرة للكافرين منهم خاصة عذابا شديد الإيلام.

وقد استفيد مما تقدم: أن العقوبات الدنيوية يقع أثرها على الكافر والمؤمن والعاصى والطائع، وهى للعصاة عقاب، وللمطيعين ابتلاءٌ، وفى ذلك يقول الله تعالى:

وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً. (الأنفال: ٢٥).

أمَّا العقوبات فى الآخرة فإنها ستختص بالعصاة والكفار، ولذا قال تعالى فى عقوبة الآخرة: وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا.

فخص الكافرين بالعذاب، وقال فى عقوبة الدنيا: فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُم. فعم جميع اليهود بتحريم ألوانٍ من الطيبات.

★ ★ ★

﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (١٦٢) ﴾

التفسير:

١٦٢ - لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ [١٧] فِى الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِك...

بعد أن حكى القرآن مخازى اليهود فى آيات سابقة وسجل عليهم أسئلتهم المتعنتة وسوء أدبهم مع الله وعبادتهم العجل، وعصيانهم لأوامر الله ونواهيه ونقْضهم للعهود والمواثيق وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وقولهم: قلوبنا غلف، وبهتهم لمريم القانتة العابدة الطاهرة، وقولهم: إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله...

تأتى هذه الآية رقم ١٦٢ من سورة النساء؛ لتحق الحق وتمدح الراسخين فى العلم منهم مدحا عظيما، وتبشرهم بالأجر الجزيل.

سبب النزول:

أخرج البيهقى فى الدلائل عن عبد الله بن عباس أن هذه الآية نزلت فيمن آمن مِن أحبار أهل الكتاب إيمانا صادقا: كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد، وثعلبة بن سَعْته، وأسد بن سعيه وغيرهم.

ومعنى الآية:

لقد كفر عامة اليهود بما أنزل عليهم لِجَهْلِهم وعنادهم وكبرهم، لكن الثابتون فى العلم منهم، والصادقون فى الإيمان بكتابهم، كعبد الله بن سَلاَم وغيره من علمائهم، يؤمنون بما أنزل إليك من

القرآن، وبما أنزل من قبلك من الكتب التى جاء بها الأنبياء والمرسلون، وليسوا متعصبين لدينهم بالباطل كسائر بنى قومهم.

وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ(١٨) وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ. هذه بقية أوصاف المؤمنين من علماء أهل الكتاب فقد وصفوا بالصفات الآتية :

١ – الرسوخ فى العلم.

٢ – الإيمان الكامل بما أوحاه الله إلى أنبيائه من كتب وهدايات.

٣ – إقامة الصلاة.

٤ – إيتاء الزكاة.

٥ – الإيمان بالله وباليوم الآخر وبما فيه من حساب وجزاء.

أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا. أى: أولئك العلماء الراسخون فى العلم من أهل الكتاب، الذين حفزهم رسوخهم فى العلم على الإيمان بما أنزل إليك، وما أنزل إلى سائر المرسلين، وحفزهم أيضا على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان بالله واليوم الآخر – هؤلاء العلماء سنؤتيهم فى الآخرة أجرًا عظيمًا، بخلاف من عداهم ممن أصروا على الكفر،واستحقوا أن يُعِدَّ الله لهم عذابا عظيما.

★ ★ ★

﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾

المفردات :

والأسـبـاط: جمع سبط وهو الحفيد والمراد بهم : حفدة يعقوب – عليه السلام – أو أبناؤه الاثنا عشر وذراريهم . فإنهم حفدة إبراهيم وإسحاق .

وقيل : الأسباط - فى ولد إسحاق - كالقبائل فى العرب : ولد إسماعيل . وقد بعث منهم عدة رسل . فالمراد: أوحينا إلى الأنبياء منهم ، إذ ليسوا جميعا أنبياء .

زبــــــــورا: أى: مكتوبا وهو الكتاب المنزل على داود عليه السلام . ويسمى : المزامير فى العهد القديم.

حــــجـــــة: معذرة يعتذر بها .

التفسير :

١٦٣ - إِنَّآ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِه... الآية.

تمهيد :

حكى الله تعالى فى الآيات السابقة جرائم اليهود ومنها: كفرهم بعيسى ومحمد وزعمهم أنهم صلبوا المسيح.

ثم ذكر هنا أن الإيمان بجميع الرسل شرط لصحة الإيمان، وأنه سبحانه أرسل سائر الرسل مبشرين ومنذرين، ثم دعا النصارى إلى عدم الغلوّ فى شأن المسيح باعتقادهم فيه أنه ابن الله، أو ثالث ثلاثة، فليس هو ابن الله كما يزعم النصارى، وليس ابن زنى كما يزعم اليهود، فكلا الفريقين واقع بين الإفراط والتفريط.

وتفيد هذه الآية أن الله أرسل الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وليس محمد ﷺ بدعا من الرسل، فقد أوحى الله إليه كما أوحى إلى الرسل جميعا من عهد نوح إلى عهد محمد، وكلهم رسل أرسلوا للتبشير والإنذار، للإعذار للناس قبل الحساب.

إِنَّآ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِه ...

إنا أوحينا إليك يا محمد بكلامنا وأوامرنا ونواهينا، كما أوحينا إلى نوح وإلى سـ ـ الأنبياء الذين جاءوا من بعده. قال الجمل : (وإنما بدأ الله تعالى - بذكر نوح - لأنه أول نبى بعث بشريعة، وأول نذير على الشرك، وكان أول من عذبته أمته لردهم دعوته... وكان أطول الأنبياء عمرًا..).

والكاف فى قوله: كَمَآ نعت لمصدر محذوف و(ما) مصدرية أى: إنا أوحينا إليك إيحاءً مثل إيحائنا إلى نوح - عليه السلام - وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِه.

أى: أوحينا إليك يا محمد كما أوحينا إلى نوح والأنبياء من بعده.

وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا. وقد خص الله هؤلاء الأنبياء بالذكر تشريفا وتعظيما لهم.

وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا. وخص داود بالذكر ونص على إعطائه الزبور للإشعار بعظمته وعظمة ما فيه ولأن كل ما فيه تسبيح وتقديس وحكم ومواعظ.

١٦٤- وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلَ. أى: وأرسلنا رسلاً منهم من ذكرنا أخبارهم لك يا محمد فى غير هذه السورة. مثل: صالح وهود ولوط وغيرهم من المرسلين. وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْك. أى: وأرسلنا كذلك رسلا كثيرين لم نذكر لك قصصهم فى القرآن الكريم ولم نوح إليك بهم فى غير القرآن.

وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا. أى: وكلم الله موسى – بدون وساطة جبريل – تكريما له عليه السلام – وقوله: تَكْلِيمًا. مصدر مؤكد لقوله تعالى: وَكَلَّمَ. لرفع احتمال المجاز.

قال ابن كثير :

وهذه تسمية الأنبياء الذين نص الله على أسمائهم فى القرآن وهم :

(آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهارون ويونس وداود وسليمان وإلياس واليسع وزكريا ويحيى وعيسى، وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين، وسيدهم محمد ﷺ).

وقال ثعلب :

فى تفسير قوله تعالى : وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا. لولا التأكيد لجار أن تقول : قد كلمت فُلانا بمعنى كتبت إليه رقعة أو بعثت إليه رسولاً فلما قال تَكْلِيمًا لم يكن إلا كلامًا مسموعًا من الله تعالى [١٩].

١٦٥- رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ.

المقصود من هذه الآية بيان مهمة الرسل، فهم يبشرون بالجنة من أطاع، وينذرون بالنار من عصى.

وقد خلق الله هذا الكون وأبدع نظامه حتى صار شاهدًا للعاقل على وجود الله وتفرده وقدرته.

ومع ذلك فقد اقتضت رحمته بعباده أن يرسل الرسل ضمانا لهداية الله الناس؛ لأن العقل قد يعجز عن إدراك حقائق الأمور ونتائجها.

والرسل عليهم الصلاة والسلام : إنما جاءوا لينبهوا إلى النظر فى عجائب الكون وما فيه من دلائل ويبيّنوها، وهم الذين يبلغون رسالات ربهم إلى الناس، ويبينون لهم أحكامه وشرائعه.

وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا. أى: وكان الله ولم يزل عَزِيزًا. وهو القادر الغالب على كل شىء، حَكِيمًا. أى: بالغ الحكمة فى كل ما يدبر من شئون الكون.

ومن ذلك تدبير أمر النبوة، وتخصيص كل نبى بنوع من الوحى والإعجاز، على النحو الذى اقتضت حكمته، مراعاة للزمان والمكان الذى بعث فيه كل رسول.

تذييل :

جاء فى رسالة التوحيد – للشيخ محمد عبده – كلام نفيس عن حاجة البشر إلى إرسال الرسل وعن وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام. حيث قال :

الرسل يرشدون العقل إلى معرفة الله وما يجب أن يعرف من صفاته، ويبينون الحدّ الذى يجب أن يقف عنده فى طلب ذلك العرفان، على وجه لا يشق عليه الاطمئنان إليه، ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من القوة.

الرسل يبينون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم، وتنازعته مصالحهم ولذاتهم، فيفصلون فى تلك المخاصمات بأمر الله الصادع. ويؤيدون بما يبلغون عنه ما تقوم به المصالح العامة، ولا يفوت به المصالح الخاصة.

الرسل يضعون لهم بأمر اللّه حدودًا عامة، يسهل عليهم أن يردّوا إليها أعمالهم، كاحترام الدماء البشرية إلا بحق. مع بيان الحق الذى تُهدر له، وحظر تناول شىء مما كسبه الغير إلا بحق، مع بيان الحق الذى يبيح تناوله، واحترام الأعراض، مع بيان ما يباح وما يحرم من الأبضاع.

يحملونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية إلى طلب الرغائب السامية آخذين فى ذلك كله بطرق من الترغيب والترهيب، والإنذار والتبشير حسبما أمرهم الله – جل شأنه –.

يفصلون فى جميع ذلك ما يؤهلهم لرضا الله عنهم وما يعرضهم لسخطه عليهم، ثم يحيطون بيانهم بنبإ الدار الآخرة وما أعد الله فيها من الثواب وحسن العقبى، لمن وقف عند حدوده وأخذ بأوامره...

وبهذا تطمئن النفوس، وتثلج الصدور، ويعتصم المرْزُوء بالصبر، انتظارًا لجزيل الأجر أو إرضاء لمنْ بيده الأمر، وبهذا ينحل أعظم مشكل فى الاجتماع الإنسانى، لا يزال العقلاء يجهدون أنفسهم فى حله إلى اليوم [٢٠].

١٦٦– لَّكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّه شَهِيدًا. ترد هذه الآية ردًا على جحود اليهود لنبوة محمد ﷺ، فقد أنكروا رسالته وجحدوا نبوته.

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : دخل على رسول الله ﷺ جماعة من اليهود فقال لهم : إنى والله أعلم أنكم لتعلمون أنى رسول الله، فقالوا: ما نْعلم ذلك، فأنزل الله قوله : لَّكِنِ اللَّهُ يَشْهَد. [٢١].

أى: إذا تعنت اليهود ولم يشهدوا لك بالرسالة فإن الله عز وجل يشهد بأن القرآن الكريم الذى أنزله إليك بوساطة جبريل الأمين، قد أنزله بعلمه ومعرفته محتويا على علم الله وتشريعاته من الحلال والحرام والآداب والأحكام، والملائكة تشهد بصدق محمد وبأن ما أنزل عليه حق، وبأنه من عند الله وَكَفَى بِاللَّه شَهِيدًا على صدقك حيث أيدك بالمعجزات الباهرة، والبراهين الساطعة، المغنية عن شهادة هؤلاء المعاندين، وقد عرفت شهادة الملائكة بشهادة الله؛ فإن من شهد الله له، شهدت له ملائكته.

من تفسير ابن كثير :

جاء فى تفسير ابن كثير لقوله تعالى : لَّكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِه. أى: فيه علمه الذى أراد أن يطلع العباد عليه من البينات والهدى والفرقان، وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضى والمستقبل، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة التى لا يعلمها نبى مرسل ولا ملك مقرب إلا أن يُعلمه الله به. كما قال تعالى وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِن عِلْمِهِ إِلاَ بِمَا شَاء. (البقرة: ٢٥٥)، وقال: وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا. (طه: ١١٠).

وقال ابن أبى حاتم عن عطاء بن السائب قال : أقرأنى أبو عبد الرحمن السلمى القرآن، وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال : قد أخذت علم الله، فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل، ثم يقرأ قوله: أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّه شَهِيدًا.

★ ★ ★

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَـٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ ﴾

المفردات :

صـــــــدوا: صد عن الأمر : أعرض عنه . وصدّه عن الأمر : صرفه عنه ومنعه منه .

سـبـيــل الـلــه: السبيل : الطريق ، يذكر ويؤنث قال تعالى: قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي . (يوسف: ١٠٨)

التفسير:

١٦٧ – إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلاَلاً بَعِيدًا. إن الذين كفروا بالحق الذى

جاءهم به محمد ﷺ وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ. وأعرضوا عن طريق الإسلام ولم يكتفوا بذلك بل منعوا غيرهم أيضا من سلوكه قَدْ ضَلُّواْ ضَلاَلا بَعِيدًا. أى: قد ضلوا ضلالاً بلغ الغاية فى الشدة والشناعة.

والمراد بالذين كفروا : اليهود أو ما هو أعم.

١٦٨ - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا. أى: لم يكن من تدبير الله الحكيم العليم، أن يغفر الذنوب لمن اختاروا الضلالة على الهدى، وماتوا وهم كافرون إذ لا غفران للكافرين.

ولم يكن أيضا من الحكمة فى التدبير : أن يهدى الله تعالى إلى الصراط المستقيم قوما أصروا على الكفر، وابتعدوا عن الحق عنادًا، فلا يستمعون نداء الخير والفلاح إذْ أصمُّوا دونه آذانهم، وأغلقوا قلوبهم فهم لا يفقهون.

١٦٩ - إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا.

قال صاحب الظلال :

وما فى هذا ظلم، فلقد اختاروا الضلالة على الهدى، وكل موجبات الإيمان حاضرة، ولقد سلكوا طريق جهنم فأغلق الله عليهم كل طريق سواه، جزاءً وفاقًا على ضلال الاختيار [٢٢].

والأبد : مدة الزمان الذى لا يتجزأ ولا غاية له، وتأكيد الخلود بالأبدية يدل على دوام العذاب بلا نهاية.

والمعنى: أن أجسامهم تبقى فى جهنم، لا تبلى ولا تذهب حساسيتها؛ ليذوقوا العذاب دواما وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا. أى: وكان إيصال العذاب إليهم شيئا فشيئا، ودوام تعذيبهم فى جهنم، أمرًا يسيرًا على الله.

★ ★ ★

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠)﴾

التفسير:

١٧٠ - يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُم... الآية. أى: يأيها المكلفون من الناس جميعا، قد جاءكم الرسول المشهود له بالصدق فى رسالته، بالهدى ودين الحق من ربكم فآمنوا به وصدقوه وأطيعوه؛ يكن إيمانكم خيرًا لكم فى الدنيا والآخرة.

فالخطاب فى هذه الآية الكريمة للإنسان أيًا كان، سواء أكان عربيا أم غير عربى، أبيض أم أسود بعيدا أم قريبا؛ لأن رسالته ﷺ - عامة شاملة للناس جميعا.

وهذه الآية الكريمة تحث الناس جميعا على الإيمان بالرسول ﷺ لأنه لم يجئهم بشىء باطل، وإنما جاءهم بالحق الثابت الموافق لفطرة البشر أجمعين، ولأنه لم يجئهم بما جاءهم به من عند نفسه، وإنما جاءهم به من عند الله تعالى، ولأنه لم يجئهم بما يفضى بهم إلى الشرور والآثام، وإنما جاءهم بما يوصلهم إلى السعادة فى الدنيا وإلى الفوز برضا الله فى الآخرة.

تلك هى عاقبة المؤمنين، أما عاقبة الكافرين فقد حذَّر سبحانه منها بقوله :

وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لله مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا. أى: وإن تكفروا - أيها الناس - فلن يضرَّ الله كفركم، فإنه - سبحانه - له ما فى السموات والأرض خلقًا وملكًا وتصرفًا، وكان الله تعالى عَلِيمًا علما تاما بأحوال خلقه، حَكِيمًا فى جميع أفعاله وتدبيراته.

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ ﴾

المفردات :

لا تغلوا: الغلو : مجاوزة الحد . غُلُوُّ النصارى فى دينهم : إفراطهم فى تعظيم عيسى ، حتى جعلوه إلها أو ابنًا لله ، وغُلُوُّ اليهود : مبالغتهم فى الطعن فى عيسى حتى اتهموه وأُمهُ بما لا يليق .

المسيح: أصل المسيح ؛ الممسوح ، وسمى به عيسى .

كلمته: المراد بها: عيسى - عليه السلام - وأطلقت الكلمة عليه ؛ لأنه جاء بكلمة : كُنْ.. بدون أب .

روح منه: رحمة منه ؛ لأنه رحمة من الله لمن آمن به .

تمهيد:

أنصف القرآن عيسى. فقد اتهم اليهود أمّة بالزنى، كما أنصفه من ادعاء النصارى بأنه إله أو نصف إله. والمسيحية ديانة من ديانات التوحيد.

قال صاحب الظلال :

(والثابت من البحث العلمي في تطور العقائد المسيحية أن عقيدة التثليث لم تصاحب المسيحية الأولى، إنما دخلت إليها بعد فترة، ودخلت إليها في خطوات متدرجة ودخلت إليها مع الوثنيين الذين دخلوا في المسيحية ولم يبرأوا بعد من التصورات الوثنية والآلهة المتعددة، وقد ظل الموحدون المسيحيون يقاومون إلى ما بعد القرن الخامس الميلادي على الرغم من كل ما لقوه من اضطهاد.

وما تزال فكرة التثليث تصدم عقول المثقفين من المسيحيين، فيحاول رجال الكنيسة أن يجعلوها مقبولة لهم بشتى الطرق وبالإحالة إلى مجهودات لا ينكشف سرها للبشر إلا يوم يكشف الحجاب عن كل ما في السماوات وما في الأرض [٢٣].

١٧١- يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ. وأهل الكتاب لفظة تعم اليهود والنصارى، ولكن سياق النص هنا، يخصصها بالنصارى.

وغلوّ النصارى في دينهم : أنهم أفرطوا في تقديس عيسى عليه السلام – حتى أخرجوه من مرتبة البشرية واتخذوه إلها من دون الله وجعلوه ابنا له.

من تفسير ابن كثير :

قوله تعالى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ... ينهى – سبحانه – أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا الحدّ في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النُّبُوة إلى أن اتخذوه إلها من دون الله، يعبدونه كما يعبدون الله.

وفي الصحيح عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال : «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا : عبد الله ورسوله» [٢٤].

وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَق. أي: ولا تفتروا على الله كذبا لا أساس له، ولا دليل يعتمد عليه، وهو قول النصارى: الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ. (التوبة : ٣٠).

وهذا القول يناقض الدليل الواضح والقول الثابت إذ الإله لا يلد، ولا يولد، فإن ذلك أمارة الحدوث، وعلامة الاحتياج.

إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ. أي: إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، أرسله سبحانه لهداية الناس إلى الحق، وليس إلها من دون الله، ولا ابنا لله كما تدعون. **وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ**. أي: وعيسى كلمة الله، أي: أنه تكوّن في بطن أمّه، وجد بسبب كلمة الله وأمره : (كن) كما قال تعالى: **إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُون**. (آل عمران : ٥٩).

وَرُوحٌ مِّنْهُ. أي: ونفخة منه لأن عيسى حدث بسبب نفخة جبريل في درع مريم، فكان عيسى بإذن الله فنسب إلى أنه روح من الله؛ لأنه بأمره كان، وسمى النفخ روحًا؛ لأنه ريح تخرج من الروح.

قال تعالى : **وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ**. (الأنبياء : ٩١).

وقيل: المراد بقوله: **وَرُوحٌ مِّنْهُ**. أي: وذو روح من أمر الله؛ لأنه سبحانه خلقه كما يخلق سائر الأرواح.

وقيل: الروح هنا بمعنى: الرحمة، كما في قوله تعالى : **وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ**. أي: برحمة منه ونعمة.

أي: أن عيسى – عليه السلام – لما كان رحمة من الله لقومه ونعمة عظيمة منه عليهم، من حيث إنه كان يرشدهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، سمى روحا منه – سبحانه وتعالى – وكانت منه تشريفا وتعظيما له عليه السلام.

والمعنى: أن عيسى روح عظيمة، وهبة، جليلة، مبتدأة من الله.

تفسير للشيخ محمد أبو زهرة :

قال الشيخ أبو زهرة رحمة الله عليه : وقوله : **وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَم**. أي: خلقه بكلمة منه وهي كُن كما خلق آدم، وكان عيسى بهذا كلمة الله؛ لأنه خلقه بها، فقد خلق من غير بذر يبذر في رحم أمه، فما كان تكوينه نماء لبذر وجد، وللأسباب التي تجرى بين الناس، بل كان السبب هو إرادة الله وحده وكلمته كُن وبذلك سمى كلمة الله.

وتعلّق النّصارى بأن كون عيسى كلمة الله دليل على ألوهيته – تعلق باطل – فما كانت الكلمة من الله إلها يعبد، وإنما سمى بذلك؛ لأنه أنشأه بروح مرسل منه وهو جبريل الأمين، وقد يقال : إنه نشأ بروح منه سبحانه أي : أنه أفاض بروحه في جسمه كما أفاض بها على كل إنسان كما قال

تعالى: الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (السجدة: ٧ - ٩).

والرأى الأول أولى، وعلى ذلك يكون معنى قوله: وَرُوحٌ مِّنْهُ. أى: أنه نشأ بنفخ الله الروح فيه من غير توسيط سلالة بشرية ونطفة تتشكل إنسانًا وذلك بالملك الذى أرسله وهو جبريل.

وسمى الله تعالى – عيسى – روحا باعتباره نشأ من الروح مباشرة؛ ولأنه غلبت عليه الروحانية.

وبهذا يزول الوهم الذى سيطر على عقول من غالوا فى شأن عيسى فنحلوه ما ليس له، وما ليس من شأنه، إذ جعلوه إلها، أو ابن إله [٢٥].

ويقول الأستاذ سيد قطب :

إن كل مخلوق يوجد بكلمة من الله. إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ. (يس: ٨٢)، فالكلمة هى توجه الإرادة، وليس عيسى بدْعا فى ذلك فهو كلمة الله، وَرُوحٌ مِّنْهُ. هو هذا الروح الذى كان به آدم إنسانا، وجسده لا يزيد عنصرًا واحدًا على عناصر التراب، ولا يتميز إلا بهذا الروح الذى تلقاه من الله، هذا الروح كذلك تلقته مريم – على نحو لا ندركه نحن، ولم تدركه هى، بل عجبت أن يكون لها ولد ولم يمسسها بشر – فكان منه عيسى كما كان منه آدم، كلاهما تلقاه أول مرة فإذا هو إنسان حىّ لا عن ولادة معهودة، ولكن عن طريق مباشر، وكلاهما فيه سواء مع بعض الاختلاف [٢٦].

فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ. أى: إذا كان ذلك هو الحق فى شأن عيسى، فآمنوا بالله إيمانًا حقا بأن تفردوه بالألوهية والعبادة، وآمنوا برسله جميعا بدون تَفْريق بينهم، ولا تغالوا فى أحد منهم بأن تخرجوه عن طبيعته وعن وظيفته.

وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ. ولم يقل: ولا تؤمنوا بثلاثة للإشارة إلى أن أمر الثلاثة قول يقولونه، فإن سألتهم عن معناه تارة يقولون: الأب والابن والروح القدس، أى: إنهم ثلاثة متفرقون، وتارة يقولون: الأقانيم (الصفات) ثلاثة والذات واحدة.

جاء فى تفسير الكشاف للزمخشرى :

والذى يدل عليه القرآن التصريح منهم بأن الله والمسيح ومريم ثلاثة آلهة، وأن المسيح ولد الله من مريم، ألا ترى إلى قوله تعالى : أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ. (المائدة: ١١٦)

وَقَالَت النَّصَارَىَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّه. والمشهور المستفيض عنهم أنهم يقولون فى المسيح لاهوتية وناسوتية من جهة الأب والأم [٢٧].

وقد أفاض بعض العلماء فى الرد على مزاعم أهل الكتاب فى عقائدهم [٢٨].

انتَهُواْ خَيرًا لَّكُم. أى: انتهوا عن الشرك والتثليث يكن الانتهاء عن ذلك خيرًا لكم؛ لأنكم به تخرجون من العقيدة الناشئة عن الضلال والأوهام إلى العقيدة المبْنية على الحجة والبرهان.

إنَّما اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ. أى: إنما الله واحد بالذات منزه عن التعدد بأى وجه من الوجوه، متفرد فى ألوهيته، هو سبحانه الخالق لهذا الكون والمدبر لأمره.

سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَد. تنزه الله تنزيها عظيمًا، لا حدود له، عن أن يكون له ولد؛ لأن اتخاذ الولد دليل الضعف وأمارة الحدوث، وصفة العاجز المحتاج إلى من يعينه فى حياته، ويخلُفه بعد مماته.

قال تعالى : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ. (الشورى: ١١)

لَهُ مَا فِي السَّمَاوات وَمَا فِي الأَرْض. أى: كل ما فى السماوات وما فى الأرض ملك إرادته فما هو محتاج، ونسبة كل شيء إليه سبحانه هى نسبة الخلق إلى الخالق والمملوك إلى المالك، يستوى فى ذلك كل ما فى الكون وكل من فى الكون.

والمتأمل يرى أنه سبحانه – فى كل موضع نزه نفسه عن الولد ذكر كونه مَلكًا ومالكا لما فى السماوات والأرض؛ ليكون دليلاً عليه، إذ المعنى : تنزه الله عن أن يكون له ولد؛ لأن له ما فى السماوات وما فى الأرض.

وَكَفَىَ بِاللَّهِ وَكِيلا. أى: إن الله سبحانه، كاف وحده فى تدبير المخلوقات وفى حفظ هذا الكون فلا يحتاج إلى ولد يعينه ولا إلى إله آخر يدبّر أمر الكون معه.

★ ★ ★

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧٣) ﴾

المفردات:

لن يستنكف: لن يأنف ولن يستكبر، وأصله من النَّكْف. وهو تنحية الدمع عن الخد بالإصبع.

المقربون: الذين قربهم الله تعالى ورفع منازلهم على غيرهم.

يستكبر: أصل الاستكبار: طلب الكبر والترفع عن الناس من غير استحقاق.

التفسير:

١٧٢ - لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّه. المسيح عيسى ابن مريم لن يأنف ولن يمتنع عن أن يكون واحدًا من عباد الله؛ لأنه عليه السلام - وهو نبي الله ورسوله - يوقن أنه من خلق الله. ويعلم أن الكلّ عبيد الله، وأن العبودية لله لا تنقص من قدره، ولا من قدر رسل الله وملائكته. فالعبودية لله مرتبة لا يأباها إلا كافر بنعمة الخلق والإنشاء.

وقد تحدثت آيات القرآن عن هذا المعنى فى أكثر من موضع وأجابت عنه إجابة مقنعة، داحضة للافتراء.

قال تعالى: وَقَالُواْ اتَّخذَ الرَّحمَنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ ءاتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحصَاهُمْ وَعَدَّهُم عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتيه يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْدًا. (مريم: ٨٨ - ٩٥)

وَلا المَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُون. أي: وكذلك الملائكة المقربون لن يأنفوا ولن يمتنعوا عن أن يكونوا عبيدًا لله؛ لأنهم مفطورون على الطاعة.

لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون. (التحريم: ٦)

والمقصود بهذا الاستطراد : تقويةُ الردِّ على النصارى وتأكيده حيث زعموا أن عيسى إله مع الله فلن يكون عبدًا له، ولما كان منشأ ذلك عندهم، أن عيسى خلق من غير أب، بين الله لهم أن الملائكة خلقوا من غير أب ولا أم، ولهم عند الله تلك المكانة العالية، وأنهم أكمل حالاً فى العلم بالمغيبات، وفى القدرة على حمل ما لا يستطيعه البشر، وهم – مع ذلك – لا يأنفون من وصفهم بالعبودية، بل يعتزُّون بأنهم عباد الله... فكيف يأنف عيسى من ذلك ؟ والعبودية لله أعلى مراتب الشرف، وأعظم درجات الكمال، كما قال الشاعر :

وممـا زادنى عجبـا وتيهـا وكدت بأخمصى أطأ الثريًا

دخولى تحت قولك يا عبادى وأن صيرت أحمد لـى نبيا

﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾. أى: ومن يأنف من عبادة الله ويمتنع عنها، ويأبى الخضوع لطاعة الله، ويستكبر عن كل ذلك، فسيجد يوم القيامة ما يستحقه من عقاب بسبب استنكافه واستكباره، فإن مردّ العباد جميعا إليه – سبحانه – وسيجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته.

١٧٣– ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾. أى : فأما الذين حققوا فى نفوسهم هذين الوصفين العظيمين : الإيمان والعمل الصالح فيجزيهم الله على ذلك جزاء وافيا ثابتا لا شك فيه، ويزيدهم الله فى الثواب والجزاء بمنه وفضله فلهم سعادة الدارين، ولهم الحسنى وزيادة.

جاء فى تفسير (فى ظلال القرآن) للأستاذ سيد قطب :

إن الذين أقروا بعبوديتهم لله هم الذين آمنوا فعرفوا حقيقة الصلة بين الخالق والمخلوق، وعملوا الصالحات؛ لأن عمل الصالحات هو الثمرة الطبيعية لتلك المعرفة، وما يريد الله من عباده أن يعبدوه؛ لأنه بحاجة إلى عبادتهم، ولا لأنها تزيد فى ملكه تعالى أو تنقص منه شيئا.

ولكن يريد أن يعبدوه وحده؛ ليستعلوا على كل من سواه، وليرفعوا جباههم أمام المتجبرين والطغاة، معتزين بالله، وليعملوا الخير يبغون بالخير قربه ورضاه، وليتجردُوا من شهواتهم وعصبيَّاتهم وملابساتهم الأرضية متطلعين إلى وجهه فى علاه، وليرتفعوا عن ثقلة الأرض وضروراتها، وهم يطلعون إلى ذلك الأفق الوضىء الكريم : لهذا يوفيهم أجورهم، ويزيدهم من فضله؛ لأنهم عرفُوا، ولأنهم عملوا، ولأنهم أصلحوا فى الأرض، ولأنهم زادوا فى محصول الحياة.

وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا. أى: وأما الذين أنفوا وتعظموا عن عباداته وطاعته فسيعذبهم عذابا موجعا شديدًا.

وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا. أى: ليس لهم من يتولاهم أو ينصرهم من عذاب الله.

★ ★ ★

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (١٧٥)﴾

المفردات:

برهان: البرهان: الحجة والمراد به هنا: محمد ﷺ؛ لأن مهمته إقامة البرهان على إحقاق الحق، وإبطال الباطل. وقيل: المراد به: المعجزات، أو القرآن.

نورًا: المراد به: القرآن الكريم؛ لأنه ينير الطريق للسالكين.

واعتصموا به: عصموا بالإيمان به أنفسهم من المعاصى وحفظوها.

فى رحمة منه: المراد بالرحمة هنا: الجنة.

التفسير:

١٧٤ - يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُم ... الآية

تأتى الآيتان ١٧٤، ١٧٥ من سورة النساء دعوة إلى الناس كافة بالتأمل فى صدق الدعوة المحمدية، وهى آخر رسالات السماء إلى الأرض وقد اشتملت هذه الرسالة على أسباب السعادة الدنيوية والأخروية.

قال صاحب الظلال:

إن الرسالة الأخيرة تحمل برهانها من الله، وهي نور كاشف للظلمات والشبهات، فمن اهتدى بها، واعتصم بالله من الشبهات المهلكة، فسيجد رحمة الله تؤويه، وسيجد فضل الله يشمله، وسيجد فى ذلك النور هدًى إلى الصراط المستقيم[٢٩].

وقال الفخر الرازى: اعلم أنه تعالى - لما أورد الحجة على جميع الفرق من المنافقين والكفار واليهود والنصارى، وأجاب عن جميع شبهاتهم، عمم الخطاب، ودعا جميع الناس إلى الاعتراف برسالة محمد ﷺ، فقال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُم.

والبرهان هو – محمد – ﷺ وإنما سماه برهانًا لأن حرفته إقامة البرهان على تحقيق الحق وإبطال الباطل والنور المبين هو القرآن الكريم وسماه نورًا ، لأنه سبب لوقوع نور الإيمان فى القلب [٣٠] .

وأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا. وأنزلنا إليكم القرآن المجيد، أعظم الكتب التى أنزلناها لهداية البشر، وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

وسمَّاه: نورًا مبينًا، إذ هو كالنور، يضىء الطريق، ويظهر الحق، ويهدى إلى سبيل الخير والرشاد.

وقد تحدثت الآية عن نعمتين عظيمتين:

النعمة الأولى: إرسال محمد ﷺ أعظم نعم الله على الناس.

النعمة الثانية: إنزال القرآن هدًى للمتقين.

والناس – بالنسبة لهاتين – النعمتين الجليلتين – فريقان: فريق المؤمنين وقد بين الله حالهم العظيم في الآية التالية. وفريق الكافرين، ولم تذكر الآيات هنا عقاب الكافرين إهمالا لهم، أو لأن عاقبتهم السيئة معروفة لكل عاقل بسبب كفرهم وفسوقهم عن أمر الله.

١٧٥ – فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ واعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا.

جاء فى تفسير ابن كثير:

فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ واعْتَصَمُواْ بِهِ. أى: جمعوا بين مقامى العبادة والتوكل على الله فى جميع أمورهم.

وقال ابن جريج: آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن.

فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ . أى: يرحمهم فيدخلهم الجنة ويزيدهم ثوابا ومضاعفة ورفعا فى درجاتهم من فضله عليهم وإحسانه إليهم. وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا. أى: طريقا واضحًا قصْدًا قواما لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وهذه صفة المؤمنين فى الدنيا والآخرة، فهم فى الدنيا على منهاج الاستقامة، وطريق السلامة فى جميع الاعتقادات والعمليات، وفى الآخرة على صراط الله المستقيم المفضى إلى روضات الجنات.

وفى حديث الحارث الأعور عن على بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «القرآن صراط الله المستقيم، وحبل الله المتين» [٣١].

★ ★ ★

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦) ﴾

المفردات:

يستفتونك: الاستفتاء، طلب الفُتْيا، والفُتْيا والفتوى: اسم من أَفتى العالِم؛ إذا بين الحكم.

الكلالة: الذى لا ولد له ولا والد. وقيل الكلاَلَة: مصدر من تكلله النسب أَى: تطرفه. كأَنه أَخذ طرفيه من جهة الوالد والولد: فليس له منهما أَحد، فسمى بالمصدر. ومن هنا أُطلقت على الميت الذى لم يترك والدا ولا ولدا «مِنْ كَلَّ» إذا ضعف. وهذا قول على وابن مسعود. وقال سعيد بن جبير: هى الوارث الذى ليس ولدًا ولا والدًا؛ لأن هؤلاء الوارثين يتكللون الميت من جوانبه، وليس فى عمود نسبه. كالإكليل يحيط بالرأس، ووسَطُ الرأس خال منه.

التفسير:

١٧٦ - يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ...

روى الشيخان عن البراء أن هذه الآية هى آخر آية نزلت من الفرائض.

وروى الترمذى عن جابر بن عبد الله، يقول: «مرضت فأتانى رسول الله ﷺ يعودنى».

فقلت: يا رسول الله، كيف أقضى فى مالى؟ أو كيف أصنع فى مالى؟ فلم يجبنى شيئا - وكان له تسع أخوات - حتى نزلت آية المواريث يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ . قال جابر: «فىَّ نزلت».

يَسْتَفْتُونَكَ. أى: طلب الصحابة منك أن تبين لهم الحكم فى ميرات الذى لم يترك ولدا ولا والدًا.

قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ . أى: قل لهم يا محمد: الله يبين لكم حكم ميراث الكلالة.

إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ . من مات وليس له والد أو ولد وهى الكلالة.

وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ . أى: وله أخت شقيقة أو أخت لأب فلها نصف ما ترك أخوها.

أما الإخوة لأم، فقد سبق بيان ميراثهم فى قوله تعالى: وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُواْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ. (النساء: ١٢).

وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ. أى: وأخوها الشقيق أو لأب يرث جميع ما تركت إن لم يكن لها ولد.

فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ. أى: إن كانت الأختان اثنتين فأكثر فلهما الثلثان مما ترك أخوهما المتوفى.

بدليل القصة التى نزلت فيها الآية، فقد كانت لجابر بن عبد الله رضى الله عنه تسع أخوات فى رواية الترمذى، وقياسًا على ميرات البنات.

وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ.

أى: وإن كان الورثة مختلطين إخوة وأخوات فللذكر منهم مثل نصيب الأختين.

يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ.

أى: يوضح الله لكم شرائع دينكم ويفصلها؛ كراهة أن تضلوا عن الطريق السوىّ فتمنعوا مستحقا، وتعطوا غير مستحق.

والآية صريحة فى أن من تعدَّى حدود الله فى أحكام الميراث؛ فقد ضل طريق الحق، وأخطأ سبيل الرشاد.

وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. أى: والله الذى يبين تلك الفرائض لعباده وشرعها لهم، قد أحاط بكل شىء علما، فعلمه تام بما يصلح المجتمع الإسلامى من الشرائع والأحكام.

من الفوائد فى سورة النساء:

لفظة (من) تكون للتبعيض وقد تأتى لابتداء الغاية كما فى قوله تعالى: وَرُوحٌ مِّنْهُ.

يحكى أن طبيبا نصرانيا للرشيد ناظر الإمام الواقدى ذات يوم فقال له: إن فى كتابكم ما يدل على أن عيسى جزء من الله، وتلا هذه الآية: وَرُوحٌ مِّنْهُ. فقال الواقدى: قال تعالى: وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّماوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ. (الجاثية: ١٣)، فيجب إذا كان عيسى جزءًا من الله أن يكون ما فى السموات وما فى الأرض جزءًا منه، فانقطع النصرانى وأسلم. وفرح الرشيد بذلك فرحا شديدا ووصل الواقدى بصلة عظيمة [٣٢].

★ ★ ★

فى ختام السورة

تلك سورة النساء:

★ بينت أحكام النساء ونظمت المجتمع الإسلامى تنظيما دقيقا حكيما.

★ نظمته فيما يتعلق بأوضاعه الداخلية، ونظمته فيما يتعلق بأوضاعه الخارجية. أما فيما يتعلق بأوضاعه الداخلية، فقد ساقت السورة الآداب، والأحكام، والتوجيهات التى تكون مجتمعًا فاضلا.

★ مجتمعا تقوم الأسرة فيه على دعائم ثابتة من الأمان والاطمئنان والمحبة والمودة والوئام.

★ مجتمعا رجاله يكرمون نساءه ويعاشروهن بالمعروف، ونساؤه يحترمن رجاله ويؤدين ما عليهن نحوهم من حقوق بأدب وعفة وإخلاص.

★ مجتمعا حكامه يحكمون بالعدل ويراقبون الله فى أقوالهم وأعمالهم، والمحكومون فيه يطيعون حكامهم فيما يأمرونهم به من حق وخير.

★ مجتمعا يرى أفراده أن خيراته وأمواله.. هى أمانة فى أعناقهم جميعا.

★ وأن ثمارها ومنافعها ستعود عليهم جميعا؛ لذلك فهم يحرصون على استغلال ما يملكونه منها فيما يرضى الله، وفيما يعود عليهم وعلى أمتهم بالخير والصلاح والفلاح.

★ وأما فيما يتعلق بأوضاعه الخارجية، فإن سورة النساء قد كشفت عن رذائل المنافقين، وعن العقائد الفاسدة التى يتشبث بها أهل الكتاب.

★ ولقد ساقت السورة الكريمة جانبا من الآيات المرغبة فى الجهاد والشهادة وطلب الثواب من الله.

★ إنها سورة النساء الكبرى، تحدثت عن النساء وأحكامهن وميراثهن.

★ ويلحق بهذه الأحكام سورة النساء الصغرى وهى سورة الطلاق.

★ ولم يكن للنساء فى الجاهلية كبير شأن، حتى نزل القرآن الكريم. فأمر بإكرامهن، وإحسان معاملتهن، والوفاء بحقوقهن؛ حتى ينشأ المجتمع كريما فى رجاله ونسائه.

والله ولى التوفيق، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

★ ★ ★



تفسير سورة المائدة

أولا: مدخل إلى سورة المائدة

١ - تاريخ النزول:

نزلت سورة المائدة بعد سورة الفتح، وكان نزول سورة الفتح بعد صلح الحديبية فى السنة السادسة من الهجرة، فيكون نزول سورة المائدة فيما بين صلح الحديبية وغزوة تبوك.

ونلحظ أن سورة المائدة من أواخر ما نزل من السور بالمدينة، فقد روى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت: إن المائدة من آخر ما أنزل الله فما وجدتم فيها من حلال؛ فأحلوه وما وجدتم فيها من حرام؛ فحرموه.

والمتأمل يرى أن السورة قد امتد نزول آياتها خلال السنوات الأربع الأخيرة من حياة الرسول ﷺ بالمدينة؛ فقد ابتدأ نزولها فى السنة السابعة للهجرة، وفيها آية نزلت فى حجة الوداع فى العام العاشر من الهجرة قبل وفاة النبى بثمانين يوما وهى قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. (المائدة: ٣).

وفى كتب التفسير: أن سورة المائدة نهارية كلها أى: نزلت جميع آياتها نهارا[٣٣]. مدنية كلها إلا قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُم﴾ فإنها نزلت بعرفة، وعدد آيات سورة المائدة ١٢٠ آية، وعدد كلماتها ٢٨٠٤ كلمة.

٢ - قصة التسمية:

سميت سورة المائدة بهذا الاسم؛ لأنها السورة الوحيدة التى تحدثت عن مائدة طلب الحواريون من عيسى عليه السلام أن يسألها ربه. وذلك فى قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾. (المائدة: ١١٢، ١١٣)

والحواريون هم خلصاء عيسى عليه السلام الذين صفت قلوبهم من الكفر والنفاق وبادروا إلى الإيمان بعيسى وتلقوا عنه التعاليم ثم انتشروا فى القرى؛ لبثها بين الناس.

المائدة

تكلم العلماء عن المائدة التى سألها الحواريون عيسى، هل نزلت أم لا؟ وجمهور المفسرين على أنها نزلت بالفعل. وقد تعددت الروايات بعد ذلك عن أوصافها وما احتوت عليه من ألوان الطعام والشراب، وحسبك أن ترجع إلى أى تفسير من كتب التفاسير المتداولة؛ لتقرأ فى أوصافها وأوصاف ما وضع عليه الشىء الكثير، مما يجعلك ترجح أن كثيرا مما ورد فى أوصاف هذه المائدة من افتراء المفترين أو أساطير الإسرائليين.

وألفاظ القرآن الصريحة تفيد: أن عيسى طلب من ربه أن ينزل مائدة من السماء تكون كافية لقومه جميعا وتكون عيدا وسعادة لأول قومه وآخرهم، والمائدة: طعام ورزق، وكل طعام ورزق إنما هو من عند الله، وقد وعد الله أن ينزلها عليهم. ولم يذكر القرآن إن كانت بمفهومها الضيق كما طلبها الحواريون، أو بمفهومها المطلق كما قد يريده الله ويفهمه عيسى ويلهمه الحواريون فيكون حينئذ وعدا بنعمة من الله عليهم طعاما ورزقا يشمل أولهم وآخرهم وترجمة للمفهوم الضيق الذى أرادوه للمائدة بمفهوم أوسع قد يشمل الطعام وسواه من الرزق؛ ليكون ذلك ابتلاء وفتنة لأتباع المسيح بوجه عام.

والله أعلم بما كان مما سكت عنه القرآن. وليس لنا من مصدر آخر نستفتيه واثقين فى مثل هذه الشئون إنما هو رأى نبديه بجوار آراء السلف عليهم رضوان الله.

٣ - ظواهر تنفرد بها سورة المائدة:

تنفرد سورة المائدة بجملة من الظواهر لا نكاد نجد شيئا منها فى غيرها من السور، حتى فى أطول سور القرآن وهى البقرة، ذلك أنها لم تتحدث عن الشرك ولا عن المشركين على النحو الذى ألف فى القرآن من محاجتهم وتسفيه أحلامهم وتحقير شركائهم، وأنها لم تعرض فى قليل ولا فى كثير إلى ما عهد فى أكثر السور المدنية التى نزلت قبلها من الحث على القتال والتحريض عليه ورسم خطط النصر والظفر بأعداء الله المشركين كما نراه فى سورة البقرة وآل عمران والنساء والأنفال والتوبة؛ لأن المسلمين فى ذلك الوقت لم يكونوا بحاجة إلى شىء من هذا الحديث، لقد اندحر الشرك وصار المشركون فى قهر وذلة ويأس.

ولكن إذا كان المشركون قد انقضى عهدهم والمسلمون قد علا شأنهم فإن المسلمين فى حاجة إلى إكمال التشريع المنظم لشئونهم على وجه يضمن لهم دوام السعادة ويحفظ لهم السيادة، ولهم بعد ذلك صلات خاصة بطوائف من أهل الكتاب يعيشون فى ذمتهم وعهدهم ويخالطونهم فى حياتهم ومعاملاتهم، ومن هنا نتبين أن المسلمين فى ذلك الوقت كانوا فى حاجة إلى ما يعنيهم فى الجانبين: جانب أنفسهم وجانب علاقتهم بأهل الكتاب، وبذلك دار كل ما تضمنته سورة المائدة على

أمرين بارزين: تشريع المسلمين فى خاصة أنفسهم وفى معاملة من يخالطون، وإرشادات لطرق المحاجة والمناقشة وبيان الحق فى المزاعم التى كان يثيرها أهل الكتاب مما يتصل بالعقائد والأحكام، وفى سياق هذه المحاجة تعرض السورة لكثير من مواقف الماضيين من أسلاف أهل الكتاب مع أنبيائهم تسلية للنبى ﷺ من جهة وتنديدا بهم عن طريق أسلافهم من جهة أخرى.

٤ - تشريع القرآن:

نزل القرآن على رسول الله ﷺ؛ لينشئ به أمة وليقيم به دولة، ولينظم به مجتمعا، وليربى به ضمائر وأخلاقا وعقولا؛ وليربط ذلك كله برباط قوى يجمع متفرقه ويؤلف أجزاءه ويشدها كلها إلى منزل هذا القرآن، وإلى خالق الناس الذى أنزل لهم هذا القرآن.

ومن ثم نجد فى كثير من سور القرآن تشريعا إلى جانب موعظة، وقصة إلى جانب فريضة، ونجد التشريع الذى ينظم العلاقات الاجتماعية والدولية، إلى جانب التشريع الذى يحل ويحرم ألوانا من الطعام أو ألوانا من السلوك والأعمال.

وهذه السورة – سورة المائدة – مثل لتلك السور التى تلتقى فيها التربية الوجدانية بالتربية الاجتماعية بتشريع الحلال والحرام فى الطعام والزواج، بتشريع المعاملات الدولية فيما بين المسلمين وغير المسلمين، بتعليم بعض الشرائع التعبدية، ببيان الحدود والعقوبات فى بعض الجرائم الاجتماعية، بالمثل والموعظة والقصة، بتصحيح العقيدة وتنقيتها من الأسطورة والخرافة فى تناسق واتساق.

٥ - الوفاء بالعقود:

تبدأ سورة المائدة ابتداء إلهيا للمؤمنين أن يوفوا بالعقود فتقول:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَوۡفُوا بِٱلۡعُقُودِ ...

والعقود: جمع عقد وهو ما يلتزمه المرء لنفسه أو لغيره، وأساسه قد يكون شيئا فطريا تدعو إليه الطبيعة، وقد يكون شيئا تكليفيا تدعو إليه العقيدة، وقد يكون شيئًا عرفيا يدعو إليه الالتزام والتعاهد والعقد العرفى، أى: المتعارف عليه من عامة الناس، يكون بين الفرد والفرد كما فى البيع والزواج والشركة والوكالة والكفالة إلى آخر ما تعارفه الناس ويتعارفونه من وجوه الاتفاقات، والكلمة عامة فى الآية فإنها تأمر بالوفاء بالعقود، فتشمل العقود كلها على اختلاف أنواعها

وأشكالها، وتدخل فى العقود: المعاملات والمعاهدات بظاهر اللفظ، كما تدخل إقامة الحدود وتحريم المحرمات بوصفها داخلة فى عقد الإسلام بين الله ورسوله والذين آمنوا بالله ورسوله.

وعلى وجه العموم فإننا نجد سياق السورة كله يدور حول العقود والمواثيق فى شتى صورها حتى حوار الله والمسيح يوم القيامة الوارد فى نهاية السورة نجده سؤالا عما عهد به إليه وعما إذا كان قد خالف عنه كما زعم الزاعمون بعده.

٦ - الظروف التى نزلت فيها السورة [٣٤]

نزلت سورة المائدة بعد أن قلمت أظفار المشركين وانزوى الشرك فى مخابئه المظلمة وصار المسلمون فى قوة ومنعة كانوا بها أصحاب السلطان والصولة فى مكة وفى بيت الله الحرام، يحجون آمنين مطمئنين، وقد نكست أعلام الشرك وانطوت صفحة الإلحاد والضلال، وقد أتم الله نعمته على المسلمين بفتح مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجا.

وسورة المائدة وإن ابتدأ نزولها فى السنة السابعة إلا أن نزولها قد استمر إلى السنة العاشرة بدليل أن فيها آية من آخر ما نزل من القرآن وهى قوله تعالى:

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ...

روى أن رجلا من اليهود جاء إلى عمر رضى الله عنه فقال: إن فى كتابكم آية تقرؤونها لو علينا أنزلت – معشر اليهود – لاتخذنا اليوم الذى أنزلت فيه عيدا، قال عمر: وأية آية؟ قال:

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا. (المائدة: ٣)

فقال عمر: إنى والله لأعلم اليوم الذى أنزلت فيه والساعة التى نزلت فيها، نزلت على رسول الله عشية عرفة فى يوم جمعة والحمد الله الذى جعله لنا عيدا.

وقد روى أن النبى ﷺ قرأ سورة المائدة فى حجة الوداع وقال:

«يأيها الناس، إن سورة المائدة آخر ما نزل؛ فأحلوا حلالها وحرموا حرامها».

٧ - أفكار السورة وأحكامها:

انفردت سورة المائدة بعدة مسائل فى أصول الدين وفروعه، وبتفصيل عدة أحكام أجملت فى غيرها إجمالا. ومن هذه الأحكام ما يأتى:

١ – بيان إكمال الله تعالى للمؤمنين دينهم الذى ارتضى لهم بالقرآن وإتمام نعمته عليهم بالإسلام.

٢ – النهى عن سؤال النبى ﷺ عن أشياء من شأنها أن تسوء المؤمنين إذا أبديت لهم لما فيها من زيادة التكاليف.

٣ – بيان أن هذا الدين الكامل مبنى على العلم اليقينى فى الاعتقاد والهداية فى الأخلاق والأعمال، وأن التقليد باطل لا يقبله الله تعالى.

٤ – بيان أن أصول الدين الإلهى على ألسنة الرسل كلهم هى الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، فمن أقامها كما أمرت الرسل من أية ملة – من ملل الرسل كاليهود والنصارى والصابئين – فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم فى الآخرة ولا هم يحزنون.

٥ – وحدة الدين واختلاف شرائع الأنبياء ومناهجهم فيه.

٦ – هيمنة القرآن على الكتب الإلهية.

٧ – بيان عموم بعثة النبى ﷺ وأمره بالتبليغ العام وكونه لا يكلف من حيث كونه رسولا إلا التبليغ، وأن من حجج رسالته أنه بين لأهل الكتاب كثيرا مما كانوا يخفون من كتبهم، وهو قسمان: قسم ضاع منهم قبل بعثة النبى ﷺ. وقسم كانوا يكتمونه اتباعا لأهوائهم مع وجوده فى الكتاب كحكم رجم الزانى، ولولا أن محمدا الأمين مرسل من عند الله لما علم شيئا من هذا ولا ذاك.

٨ – عصمة الرسول ﷺ من أذى الناس، وهذا من دلائل نبوته ﷺ، فكم حاولوا قتله فأعياهم وأعجزهم.

٩ – بيان أن الله أوجب على المؤمنين إصلاح أنفسهم أفرادًا وجماعات، وأنه لا يضرهم من ضل من الناس إذا هم استقاموا على صراط الهداية.

١٠ – تأكيد وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بما بينه الله تعالى من لعن الذين كفروا من بنى إسرائل على لسان داود وعيسى ابن مريم. وتعليله ذلك بأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه.

١١ – نفى الحرج من دين الإسلام.

١٢ – تحريم الغلو فى الدين والتشدد فيه ولو بتحريم الطيبات وترك التمتع بها.

١٣ – قاعدة إباحة المحرم للمضطر ومنه أخذ الفقهاء قولهم: الضرورات تبيح المحظورات.

١٤ – قاعدة التفاوت بين الخبيث والطيب وكونهما لا يستويان فى الحكم، كما أنهما لا يستويان فى أنفسهما وفيما يترتب عليهما.

١٥ – تحريم الاعتداء على قوم بسبب بغضهم وعداوتهم؛ لأنه يجب على المؤمنين أن يلتزموا الحق والعدل.

١٦ – وجوب الشهادة بالقسط والحكم بالعدل والمساواة فيهما بين غير المسلمين كالمسلمين ولو للأعداء على الأصدقاء وتأكيد وجوب العدل فى سائر الأحكام والأعمال.

١٧ – الحياة شركة ذات أطراف لا يجوز أن يجور فيها طرف على طرف.

١٨ – التعاون على البر والتقوى له وسائله وسبله حسب الزمان والمكان، ومنه تأليف الجمعيات الخيرية والعلمية وتحريم التعاون على الإثم والعدوان.

١٩ – بيان أن الله تعالى جعل الكعبة البيت الحرام قياما للناس، أى: يقوم عندها أمر دينهم ودنياهم فعندها يتم الحج والعمرة وعندها يتم الإحرام والأمان والسلام ولها يتوجه المسلمون فى الصلاة، فهى رمز للوحدة والأخوة والإيمان.

٢٠ – النهى عن موالاة المؤمنين للكافرين.

٢١ – تفصيل أحكام الوضوء والغسل والتيمم مع بيان أن الله تعالى يريد أن يطهر الناس ويزكيهم بما شرع لهم من أحكام الطهارة وغيرها.

٢٢ – تفصيل أحكام الطعام، وبيان حرامه وحلاله.

٢٣ – تحريم الخمر وهو كل مسكر وتحريم الميسر وهو القمار.

٢٤ – بيان محظورات الإحرام فى الحج.

٢٥ – تفصيل أحكام الصيد للمحرمين وغيرهم فى أوائل السورة وأواخرها.

٢٦ – حدود المحاربين الذين يفسدون فى الأرض ويخرجون على أئمة العدل، وحد السرقة وما يتعلق بالحد كسقوطه بالتوبة الصادقة.

٢٧ – أحكام الأيمان وكفارتها.

٢٨ – تأكيد أمر الوصية قبل الموت وأحكام الشهادة على الوصية.

٢٩ – الأمر بالتقوى فى عدة آيات من السورة.

٣٠ – بيان تفويض أمر الجزاء فى الآخرة إلى الله تعالى وحده.

٨ - النداءات الإلهية للمؤمنين:

اشتملت سورة المائدة على ستة عشر نداء وجهت للمؤمنين خاصة، يعتبر كل نداء منها قانونا ينظم ناحية الحياة عند المسلمين فيما يختص بأنفسهم وفيما يختص بعلاقتهم بأهل الكتاب.

فالنداء الأول: يطلب الوفاء بالعقود:

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ. (المائدة: ١)

والنداء الثاني: يطلب المحافظة على شعائر الله وعدم إحلالها:

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ. (المائدة: ٢)

والنداء الثالث: يطلب الطهارة حين إرادة الصلاة:

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى المَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الكَعْبَيْنِ، وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا. (المائدة: ٦)

والنداء الرابع: يطلب القوامية لله والشهادة بالعدل ويحذر من الظلم.

والنداء الخامس: يطلب تذكر نعمة الله على المؤمنين بكف أيدى الأعداء عنهم.

والنداء السادس: يدعو إلى تقوى الله وابتغاء الوسيلة إليه والجهاد فى سبيله.

والنداء السابع: يحذر من اتخاذ الأعداء أولياء من دون المؤمنين.

والنداء الثامن: يلفت نظر المؤمنين إلى أن المسارعة فى موالاة الأعداء ردة عن الدين.

والنداء التاسع: يدعو إلى شدة الحذر من موالاة الأعداء.

والنداء العاشر: يذكر تحريم الطيبات التى أحلها الله.

والنداء الحادى عشر: تحريم الخمر والميسر.

والنداء الثانى عشر، والثالث عشر: يتعلقان بتحريم قتل الصيد فى حالة الإحرام.

والنداء الرابع عشر: يتعلق بالنهى عن سؤال ما ترك الله بيان حكمه توسعة على عباده:

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ. (المائدة: ١٠١)

والنداء الخامس عشر: يتعلق بتحديد المسئولية التى يحملها المؤمنون فى الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

والنداء السادس عشر: يتعلق بكيفية الشهادة على الوصية فى حالة السفر.

وجملة هذه النداءات تربية عملية للمؤمنين وبيان الطريق السوى التى يجب اتباعها فى الشعائر والعبادات والمعاملات والمعاهدات. والنداء للمؤمنين بصفة الإيمان؛ تذكيرا لهم بأن عليهم أن يعملوا بمقتضى هذا الإيمان وقوامه التصديق الباطنى بوجود الله والتزام أوامره واجتناب نواهيه.

الأمر بالتقوى

حث القرآن على تقوى الله وطاعته وذيل كثيرا من أحكامه ببيان شأن التقوى، وأهميتها، وفى النداء السادس من سورة المائدة حث على تقوى الله والتماس الأسباب المساعدة على هذه التقوى فيقول سبحانه:

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُواْ اللَّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. (المائدة: ٣٥)

وتقوى الله هى تقدير العظمة الإلهية وامتلاء النفس بها امتلاء يدفع المؤمن إلى المسارعة وشدة الحرص على تحقيق أوامر الله وتشريعاته، والتقوى تدفع المؤمن إلى إنعام النظر وقوة التفكير فى ملكوت السماوات والأرض؛ لمعرفة أسرار الله فى كونه، وسنته فى خلقه، ثم الاتجاه إلى هذه الأسرار والعمل على إظهار رحمة الله فيها بعباده والوقوف على السنن التى ربط بها بين الأسباب والمسببات، بين السعادة وأسبابها، والشقاء وأسبابه، بين العلم وأسبابه والغنى وأسبابه، والعزة وأسبابها ... وهكذا.

وبذلك ترى أن التقوى هى ذلك المعنى القلبى الذى تفنى به الإرادات الإنسانية فى ملكوت العظمة الإلهية، وهى الباعث على امتثال الأوامر واجتناب النواهى، وهى المحققة للإحسان فى طاعة الله ورسوله، فهى المبدأ، وهى المنتهى، وهى الأولى، وهى الآخرة.

٩ - أهل الكتاب:

أرسل الله محمدًا ﷺ على حين فترة من الرسل بعد أن درست معالم الحق والفضيلة، وبعد أن ضيع أهل الكتاب بعض تعاليمه وأخفوا بعضه ونقضوا ميثاقهم مع ربهم.

وقد واجهتهم سورة المائدة بأخطائهم فوصفتهم بالتعصب المقيت والغلو فى الدين واتباعهم أهواء من ضل قبلهم من الوثنيين وغيرهم، وادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه. وقد بين الله لهم حقيقة الأمر وهى أنهم بشر ممن خلق الله لا مزية لهم على سائر البشر فى أنفسهم وذواتهم، إنما يمتاز بعضهم عن بعض بالعلوم الصحيحة والأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة لا بالنسب والانتماء إلى الأنبياء والصالحين وصدق القائل :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا ... يغنيك محموده عن النسب
إن الفتى من يقول: هأنذا ... ليس الفتى من يقول: كان أبى

وقد وجه الله الخطاب لأهل الكتاب عامة بأن الرسول ﷺ قد جاء ليكشف لهم عن كثير مما كانوا يخفونه من كتاب الله الذى استحفظوا عليه فنقضوا عهدهم مع الله فيه، ويعفو عن كثير مما

أثقلهم به الله من تكاليف وحرمه عليهم من طيبات عقابا لهم على مخالفتهم وانحرافاتهم فالفرصة إذن سانحة ليتداركوا ما فات ولينجوا مما كتب عليهم فى الدنيا؛ عقابا لهم على الخلاف والإخلاف:

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. (المائدة: ١٥، ١٦).

وتوالى نداء القرآن لأهل الكتاب؛ ليقطع حجتهم ومعذرتهم أن يقولوا: إن فترة كبيرة مرت عليهم لم يأتهم فيها بشير يقربهم إلى الله أو نذير يخوفهم الانحراف فها هو ذا بشير ونذير:

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. (المائدة: ١٩)

وقد وصفت سورة المائدة التوراة والإنجيل أحسن وصف وذكرت من أخبار التوراة قصة ابنى آدم بالحق ومن أحكامها عقوبات القتل وإتلاف الأعضاء والجروح، ومن أخبار الإنجيل والمسيح ما هو حجة على الفريقين وبين أن الكتابين أنزلا نورا وهدى للناس وأنهم لو كانوا أقاموهما؛ لكانوا فى أحسن حال ولسارعوا إلى الإيمان بما أنزله الله على خاتم رسله مصدقا لأصلهما، ولكنهم اتخذوا الإسلام هزوًا ولعبا فى جملته وفى عبادته ووالوا عليه المناصبين له من أعدائه فنهى الله المؤمنين عن موالاتهم.

١٠ - اليهود:

ناقشت سورة المائدة اليهود خاصة فذكرتهم بنعم الله عليهم وبميثاق الله مع نقباء بنى إسرائيل النائبين عنهم، فما الذى كان من بنى إسرائيل؟

لقد نقضوا ميثاقهم مع الله .. قتلوا أنبياءهم بغير حق، وبيتوا الصلب والقتل لعيسى ابن مريم، وحرفوا كلمات التوراة عن معانيها وعن مواضع الاستشهاد بها، واشتروا بهذا التحريف ثمنا قليلا من عرض هذه الحياة الدنيا، ونسوا بعض شرائع التوراة وأهملوها، وخانوا محمدا – رسول الله – أحد الرسل الذين أخذ عليهم الميثاق أن ينصرهم فباءوا بالطرد من رحمة الله وقست قلوبهم؛ ببعدهم عن هذه الرحمة.

وإن من صفات اليهود الغالبة عليهم الخيانة والمكر، وقول الإثم والمبالغة فى سماع الكذب وأكل السحت، والسعى بالفساد فى الأرض، وفي إيقاد نار الفتن والحرب، وقد قتلوا رسل الله إليهم وتمردوا على

موسى إذ أمرهم بدخول الأرض المقدسة وقتال الجبارين فعاقبهم الله بالتيه فى الأرض، وأنهم كانوا أشد الناس عداوة للمؤمنين فعاقبهم الله على ذلك كله باللعن على ألسنة الرسل، وبالغضب والمسخ، وهذه الصفات التى غلبت عليهم فى زمن البعثة وقبل زمن البعثة تثبتها تواريخهم وتواريخ غيرهم، ومن المعلوم أنها لم تكن عامة فيهم ولا شاملة لجميع أفرادهم ولذلك قال سبحانه :

مِنْهُم أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُم سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ . (المائدة: ٦٦)

١١ - النصارى :

مما جاء فى النصارى خاصة أنهم نسوا – كاليهود – حظا مما ذكروا به، وأنهم قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم وقالوا إن الله ثالث ثلاثة وقد رد الله عليهم هذه العقيدة بالأدلة العقلية وببراءة المسيح منها ومن منحليها يوم القيامة، وبين لهم حقيقة المسيح وأنه عبد الله ورسوله وروح منه. ولقد أخذ الله الميثاق عليهم أن يلتزموا بتعاليم رسولهم، ولكنهم نسوا جانبًا من تعاليمه وأهملوا جانب التوحيد وهو أساس العقيدة وعند هذا الانحراف كان الخلاف بين طوائف النصارى التى لا تكاد تعد. إذ أن هناك فرقا كثيرة صغيرة داخل كل فرقة من الفرق المعلومة الكبيرة: الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت والمارون؛ اليوم ومن قبل اليعقوبيون والملكانيون والنساطرة.

وقد اشتدت العدواة بين هذه الفرق. وشهدت المسيحية آثارها منذ القرن الأول للميلاد، وكانت على أشدها بين الملكانية واليعاقبة والنساطرة، وهى اليوم على أشدها بين الفرق القائمة. فلا يكاد الإنسان يتصور العداء الذى بين الكاثوليك والبروتستانت أو بينهم وبين الأرثوذكس أو بين الموارنة والبروتستانت أو سواهم قال تعالى:

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مما ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ. (المائدة: ١٤)

وقد بينت سورة المائدة أن اليهود أشد الناس عداوة للمؤمنين؛ وأن النصارى أقرب الناس مودة إليهم:

ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُم قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ. (المائدة: ٨٢)

القرآن من عند الله

جملة الآيات الواردة فى أهل الكتاب تشهد لنفسها أنها من عند الله تعالى لا من عند محمد بن عبد الله العربى الأمى الذى لم يقرأ شيئا من الكتب، على أن تلك الآيات ليست موافقة لها ولهم موافقة الناقل للمنقول عنه، وإنما هى فوق ذلك تحكم لهم وعليهم وفيهم وفى كتبهم حكم المهيمن السميع العليم.

١٢ - عدالة أحكام السورة الخاصة بأهل الكتاب:

لو كان هذا القرآن من وضع البشر لشرع معاملة أهل الكتاب الموصوفين بما ذكر - ولاسيما الذين ناصبوا الإسلام العداء عند ظهوره - بأشد الأحكام وأقساها.

ولكنه تنزيل من حكيم حميد أمر فى هذه السورة بمعاملتهم بالعدل والحكم بينهم بالقسط وحكم بحل مؤاكلتهم وتزوج نسائهم وقبول شهادتهم والعفو والصفح عنهم. وهذه الأحكام التى شرعت هذه المعاملة الفضلى لهم؛ نزلت بعد إظهار اليهود للمسلمين منتهى العداوة والغدر. ولكن السورة تضمنت تأليف قلوبهم واكتساب مودتهم.

وقد ختم الله سورة المائدة بذكر الجزاء فى الآخرة وسؤال الرسل عن جواب أممهم لهم. ثم براءة المسيح ممن جعله إلها وتفويضه الأمر كله لله الحق فهو سبحانه المتفرد بالعلم والقدرة والألوهية.

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِير. (المائدة: ١٢٠)

★ ★ ★

ثانيًا : تفسير سورة المائدة



﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١ ﴾

المفردات :

أوفوا بالعقود : الوفاءُ: الإيتاءُ بالشىء وافيا. والعقود: جمع عَقْد . والمراد هنا : العهد الموثّق.

بهيمة الأنعام : البهيمة: هى ما لا عقل له من الحيوان . وخصصت – فى العرف – بذوات الأربع. والأنعام: هى الإبل والبقر والغنم .. وأُلْحِق بها ما يماثلها .. كالظباء وبقر الوحش وحمره . والإضافة هنا: بيانية أى بهيمة هى الأنعام .

حُرُم : أى: محرمون بالحج أو العمرة .

التفسير :

١ – يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ .... ينادى الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين، آمرا إياهم بالوفاء بجميع العقود .

وهذا أمر عام يشمل جميع ما ألزم الله به عباده، وعقده عليهم من التكاليف والأحكام الدينية.

وما يعقده العباد – فيما بينهم – من عقود الأمانات والمعاملات ونحوها مما يجب الوفاء به .

جاء فى ظلال القرآن:

إنه لا بد من ضوابط للحياة، حياة الفرد مع نفسه، وحياته مع غيره، هذه الضوابط لابد لها من احترام يضمن ألا تنتهك وألا يستهتر بها، وألا يكون الأمر فيها للأهواء والشهوات .

والعقود: هى هذه الضوابط التى تنظم العلاقات؛ لأنها تقيم حدود الحرية فلا تدعها فوضى، وتجعل الحياة شركة ذات أطراف، لا يجور فيها طرف على طرف .

والعقود في معناها الواسع تشمل الديانات والشعائر والعبادات والمعاملات، والمعاهدات؛ لأن هذه كلها عقود ترتبط بها نفس الفرد وضميره، ويتحدد بها عمله وسلوكه .. فالأمر بالوفاء بالعقود

أمر بإقامة ضوابط للحياة، ما استكنَ منها وما ظهر على السواء . ما تعلق منها بالضمير وما تعلق منها بالسلوك، ما كان بين المرء وربّه، وما كان بينه وبين غيره .

والإسلام يربط هذه العقود كلها بالله، ويجعل الوفاء بها فريضة، ويوجه الأمر للذين آمنوا فكتبوا بقلوبهم عقد الإيمان، أن يفوا بسائر العقود التى ارتبطوا بها مع عقد الإيمان .[٣٥]

أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ . أى: أحلت لكم – أيها المؤمنون – أكل بهيمة الأنعام : من الإبل والبقر والغنم، وما شابهها من الظباءِ وبقر الوحش، والحمر الوحشية .

إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ . استثنى من هذه الأطعمة ما سيتلى فى الآية الثالثة من هذه السورة (وأخّر هذا البيان مؤقتا ووقف عند هذا الإجمال؛ ليتناول فى الآية الأولى كليات مجملة بالتحريم فيكون التحليل عاما والتحريم عاما قبل التفصيل[٣٦] .

غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ : أى: أحلت لكم هذه الأشياء من غير أن تستحلوا الصيد وأنتم محرمون.

فلا يجوز لكم الاصطياد – أو الانتفاع بالمصيد – ما دمتم محرمين، فإذا تحللتم من إحرامكم، فلا جناح عليكم أن تصيدوا، أو تنتفعوا بالمصيد، ولكن فى غير الحرم .

أما الحرم، فلا يحل الاصطياد فيه، ولا الانتفاع فيه، سواء فى ذلك المحْرِم وغير المحرم .

وهكذا يقيم الإسلام منطقة أمان فى بيت الله الحرام وما حوله، كما يقيم فترة أمان فى الأشهر الحرم؛ حتى يتمرن الإنسان على السلام والأمن والأمان .

قال تعالى: أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ . (القصص: ٥٧)

إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ . أى: أن الله سبحانه يقضى فى خلقه بما يشاء، ومن ذلك تحليل ما أراد تحليله، وتحريم ما أراد تحريمه حسبما يعلمه سبحانه من المصالح لعباده، لا حسب شهواتهم وأهوائهم – فعلى العباد أن يمتثلوا أمرهُ تعالى، ويجتنبوا نهيه، وفاء بعهده، سواء أدركوا حكمة التشريع، أم لم يدركوها .

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾

المفردات:

شعائر الله : جمع شعيرة، وهى: العلامة، والمراد: ما جُعِلَ شعارا وعلامة للنسك. من مواقف الحج.

الشهر الحرام : الأشهر الأربعة التى حرَّمها الله وهى: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم ، ورجب .

الهدى : ما يهدى إلى الحرم الشريف من الأنعام .

القلائد : جمع قلادة، وهى: ما يُعَلَّق فى عنق الأنعام. علامةً على أنها هَدْى .
والمراد: ذوات القلائد .

آمِّين : قاصدين .

لا يجرمنكم : لا يحملنكم .

شنآن : بُغض .

صدوكم : منعوكم .

البر : كلمة تجمع وجوه الخير .

الإثم والعدوان : الإثم ؛ الذنب مطلقا . والعدوان ؛ خاص بما يقع على الغير .

التفسير:

٢- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ... أى: لا تستبيحوا وتنتهكوا أية شعيرة من شعائر الدين: فى الحج أو غيره؛ لأنه يؤدى إلى الاستخفاف بالشرع، وذلك كفر بالله تعالى؛ لأنه هو المشرِّع.

جاء فى صفوة التفاسير للصابونى :

أى: لا تستحلوا حرمات الله، ولا تتعدوا حدوده، قال الحسن: يعنى شرائعه التى حدَّدها لعباده، وقال ابن عباس : ما حرم عليكم فى حال الإحرام .

وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ . أى: ولا تستبيحوا القتال فى الأشهر الحرم، وذلك لحرمة القتال فيها، والأشهر الحرم هى: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب .

وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلاَئِدَ . كذلك نهاهم الله عن أن يعتدوا على الهدى الذى يهدى إلى الحرم، من الأنعام، لينتفع به عباد الله، أو أن يعتدوا على ما قلد من هدى الأنعام، فجعلت فى عنقه قلادة من لحى شجر الحرم للدلالة على أنه مُهدى إلى بيت الله الحرام .

وخصّ القلائد بالنهى عن الاعتداء عليها - مع أنها داخلة فى الهدى - تشريفًا لها واعتناءً بها.

والمراد من إحلال الهدى والقلائد المنهى عنه - غصبها أو منعها من بلوغ محلها أو إصابتها بسوء .

وَلاَ ءَامِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِهِمْ وَرِضْوَانًا . أى: ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام لحج أو عمرة، نهى تعالى عن الإغارة عليهم، أو صدّهم عن البيت كما كان أهل الجاهلية يفعلون .

وتكرار لاَ. أربع مرات فى وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ ، وَلاَ الْهَدْيَ ، وَلاَ الْقَلاَئِدَ، وَلاَ ءَامِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ. للدلالة على أن قوة التحريم فى كلٍّ واحدة .

وذكر كل واحدة من هذه المنهيات الخمس منفردة، مع أنَّها مجملة فى شَعَائِرَ اللَّهِ ؛ لأهميتها.

يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِهِمْ وَرِضْوَانًا . أى: ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام - الذى من دخله كان آمنا - وكذا من قصده طالبا فضل الله وراغبا فى رضوانه فلا تصدوه ولا تمنعوه، ولا تهيجوه، قال مجاهد وعطاء فى قوله: يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِهِمْ وَرِضْوَانًا . يعنى بذلك التجارة .

وقال ابن عباس: وَرِضْوَانًا : أى: يترضَّوْن الله بحجهم .

وقد ذكر عكرمة والسدّى وابن جرير أن هذه الآية نزلت فى (الحطيم بن هند البكرى) كان قد أغار على سرح المدينة، فلما كان من العام المقبل اعتمر إلى البيت فأراد بعض الصحابة أن يعترضوا فى طريقه إلى البيت .

فأنزل الله عز وجل : وَلاَ ءَامِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِهِمْ وَرِضْوَانًا [٣٧].

وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ . أى: إذا فرغتم من إحرامكم، وأحللتم منه فقد أبحنا لكم ما كان محرَّما عليكم فى حال الإحرام من الصيد، وهذا أمر بعد الحظر .

وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ. أى: ولا يحملنكم بغض قوم كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام، وذلك عام الحديبية على أن تعتدوا حكم الله فيهم فتقتصوا منهم ظلما وعدوانا، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل فى حق كل أحد، وهذا المعنى نجده أيضا فى قوله سبحانه: وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى.

وقال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك، بمثل أن تطيع الله فيه، والعدل به قامت السماوات والأرض، وقال ابن أبى حاتم، عن زيد بن أسلم قال: كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه، حين صدهم المشركون عن البيت، وقد اشتد ذلك عليهم، فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة، فقال أصحاب النبى ﷺ: نصدّ هؤلاء كما صدّنا أصحابهم، فأنزل الله هذه الآية، والشنآن هو البغض، وهو مصدر من شنأه أشنؤه شنآنًا .

وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ . أى: تعاونوا على فعل الخيرات وترك المنكرات، وعلى كل ما يقرب إلى الله .

قال ابن كثير:

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات – وهو البرّ – وترك المنكرات – وهو التقوى– وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم .

روى البخارى وأحمد عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «انصر أخاك ظالما أو مظلومًا»، قيل: يا رسول الله، هذا نصرته مظلوما فكيف أنصره إذا كان ظالما؟ قال: «تحجزه وتمنعه من الظلم فذاك نصره» .[٣٨]

وفى الصحيح «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا» [٣٩] .

واتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ. أى: خافوا عقابه؛ فإنه تعالى شديد العقاب لمن عصاه .

قال صاحب الظلال:

«وهو تعقيب لتهديد من لا يتقى، ومن لا يفى بالعقد الأول، ومن تجرفه دفعة الشنآن إلى شاطئ العدوان .

إنها قمة فى ضبط النفس، وفى سماحة القلب، وفى انتهاج العدل، يحدو إليها هذا القرآن ويأخذ بيد البشر فى طريق الإيمان، دون ما عنت ودون ما حرج، فهو يعترف للنفس البشرية بأن من حقها أن تغضب، ومن حقّها أن تكره، ولكن ليس من حقها أن تعتدى على الناس مطاوعة لما فيها من شنآن، ثم يحدو لها بعد ذلك بنشيد البرّ ونشيد التقوى، لتتخلص من عقابيل الشنآن، فيكون فى هذا تربية للنفس، بعد أن يكون فيها ضمان للعدل، فى غير ما كبت للفطرة ولا إعنات [٤٠].

★ ★ ★

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾

المفردات:

أهلَّ لغير الله به : الإهلال: رفع الصوت. والمراد مما أُهِل لغير الله به: ما ذكر غير اسم الله عليه عند الذبح.

المنخنقة : ما ماتت خنقًا .

الموقوذة : هى التي ضربت حتى ماتت .

المتردية : ما سقطت من علو فماتت .

والنطيحة : ما نطحها غيرها حتى ماتت .

السبع : كلُّ حيوان مفترس .

ذكيتم : ذبحتم ذبحا شرعيا .

النصب : جمع نصاب . وقيل: واحد الأنصاب ، وهي أحجارٌ نصبوها حول الكعبة. وكانوا يذبحون عليها ويعظمونها .

تستقسموا : تطلبوا معرفة ما قسم وقُدِّر لكم .

بالأزلام : جمع زلم، وتسمى القداح ، وهي سهام كانت عندهم في الجاهلية يطلبون بها معرفة ما قسم لهم بتناولها ، من نحو كيس وضعت فيه .

فسق : خروج عن طاعة الله .

يئس : اليأس: انقطاع الرجاء .

مخمصة : شدة الجوع .

متجانف لإثم : مائل إلى الإثم ، من الجنف ، وهو : الميل .

التفسير:

٣- حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ... الآية

بعد أن ذكر الله - سبحانه - أنه أحل بهيمة الأنعام، شرع فى بيان المحرمات منها التى استثناها بقوله: إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُم. وهى عشرة أنواع:

١ - الْمَيْتَةُ . وهى التى ماتت بدون تذكية مشروعة: لأن الغالب فيها : أنها ماتت من مرض، فلا يحل أكلها؛ لما فيها من الضرر؛ ولأنها تعافها الأنفس .

٢ - وَالدَّمُ . والمراد به: الدم السائل. وحكمة تحريمه؛ أن فيه من الجراثيم والفضلات ما يؤذى مَن يتناوله. بخلاف المتجمد منه، وهو الكبد والطحال وما يتخلل اللحم، فإن هذه ليست من الدم المسفوح، وليست محرمة .

٣ - وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ . والمراد: لحمه ودهنه، وكل شيء فيه . وذلك: لخبثه وللأضرار التى تنشأ عن أكله .

٤ - وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ . أصل معنى الإهلال: رفع الصوت، وكان أهل الجاهلية يذبحون باسم أصنامهم؛ رافعين أصواتهم بذلك .

والمراد منه: ما ذبح على غير اسم الله؛ لأن الذبح لغير الله فيه تعظيم لذلك الغير . والآكل من هذا المذبوح مشارك فى التعظيم لغير الله .

٥ - وَالْمُنْخَنِقَةُ . وهى التى ماتت خنقا ولم تذبح، وذلك: لاحتباس الدم فيها سواءٌ أكان الخنق بفعلها أم بفعل غيرها، فإنها لا تحل .

٦ - وَالْمَوْقُوذَةُ . وهى التى قذفت بمنقل كالحجارة ونحوها، حتى ماتت. من الوقذ . أى: من الضرب، ولم تذبح ذبحا شرعيا .

٧ - وَالْمُتَرَدِّيَةُ . وهى التى سقطت من مكانٍ عالٍ، أو هوت فى بئر فماتت من التردى .

٨ - وَالنَّطِيحَةُ . وهى التى نطحتها غيرها فأماتتها .

٩ - وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ : أى: ما افترسها السبع وأكل منها، فلا يؤكل ما بقى، وكذا الحكم لو افترسها فماتت ولم يأكل منها . وهذه الأنواع من المنخنقة - وما عطف عليها - إن أدركت وبها حياة فذكيت ذكاة شرعية؛ حَلَّ أكلها .

واشترط الأحناف فى الحياة. أن تكون فوق حياة المذبوح .

وقال غيرهم: يكتفى فيه أن تدرك وبها حياة فى الجملة كأن تطرف عينها . أو تضرب برجلها أو غير ذلك . فمتى أدركها الإنسان وبها مثل هذا النوع من الحياة فذكَّاها – أى: ذبحها – حل أكلها.

١٠– وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ : والنصب حجارة نصبها أهل الجاهلية حول الكعبة . وكانوا يذبحون عليها، تقربا للأصنام . وهو حرام ؛ لأن فى هذا الذبح تعظيمًا للأصنام، وهو إشراك بالله سبحانه وتعالى. وهذه المحرمات التى ذكرها الله تعالى، إنما حرمت لأن فيها إضرارا بالصحة والعقيدة .

وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ . كانوا يستقسمون بالأزلام، أى: يطلبون معرفة ما لهم وما قدر عليهم، عن طريق الأزلام .

والأزلام: قطع من الخشب على هيئة السهام، وتسمى القداح . وهى ثلاثة: مكتوب على أحدها: أمرنى ربى؛ وعلى الآخر: نهانى ربى . والثالث: غفل من الكتابة . وكانوا فى الجاهلية إذا أراد أحدهم سفرا، أو غزوا، أو زواجا أو بيعا أو نحو ذلك . أتى إلى بيت الأصنام أربابهم؛ ليطلب معرفة ما قسم له من هذا الذى أراده: أَيُقْدِم عليه ؟ أم يحجم عنه ؟ فيحرك هذه الأزلام، فإن خرج الذى عليه، أمرنى ربى؛ أقدم على الفعل. وإن خرج على الذى عليه، نهانى ربى؛ أمسك. وإن خرج الثالث وهو الغفل؛ أعاد ثانيا حتى يخرج الأمر أو الناهى .

وهذا من الخرافات والأوهام، التى لا يقدم عليها إلا من سيطر على عقله الجهل . وجعل نفسه ألعوبة فى أيدى الكهان، ومن يدعون معرفة الغيب .

والإسلام برىء من كل ذلك: فطلب معرفة الْحَظِّ – عن طريق التنجيم وضرب الرمل والودع، وفنجان القهوة وما شابه ذلك – من الأمور التى لم يشرعها الله .

وإنما حرم الاستقسام، ومعرفة النصيب على هذا الوجه وما شابهه ؛ لأن خروج ورقة أو نحوها: عليها أمرنى ربى أو : نهانى ربى – رجمٌ بالغيب، وتَقَوُّلٌ على الله تعالى؛ لأنه لا يمكن تعرُّف أمر الله أو نهيه بمثل هذا الطريق ؛ لأن الله لم يعط هذه الكائنات – أو غيرها – معرفة قدَره الذى استأثر بعلمه . قال تعالى: وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِير. (لقمان:٣٤)، فكيف نطلب العلم عن طريقها وفاقد الشىء لا يعطيه ؟

وإن أولئك الذى يلجأون إلى العرّافين والمنجمين ونحوهم، إنما يتركون جانب الله العليم القدير، ويركنون إلى أدعياء يجهلون كل شىء عن مراد الله تعالى، ويعرّضون أنفسهم لسخط الله، إلى جانب إهدار عقولهم وبذل أموالهم فيما يضرهم ولا ينفعهم .

ولقد علَّمنا رسول الله ﷺ - الاستخارة فى الأمور كلها. وهى من الالتجاء إلى الله تعالى: أن يقدر الخير لفاعلها ويُرضِّيه به .

روى البخارى من حديث جابر بن عبد الله، قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها، كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل : اللَّهم إنى أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم . فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علاَّم الغيوب . اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسمى حاجته - خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى - أو قال: عاجل أمرى وآجله - فاقدره لى، ويسره لى، ثم بارك لى فيه . وإن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسمى حاجته - شر لى فى دينى ومعاشى، وعاقبة أمرى - أو قال: فى عاجل أمرى وآجله - فاصرفه عنى واصرفنى عنه واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى - أو أرضنى - به »[٤١] .

هذه هى الاستخارة المشروعة لمن أراد أن يوفقه الله لعمل الخير، وخير العمل .

ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ. المشار إليه، هو: كل ما ذكر من المحرمات السابقة؛ لأن ارتكاب شىء منها خروج عن طاعة الله تعالى، وعن دينه وشرعه . ولذلك كانت فسقا .

الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ. المراد باليوم : يوم نزول هذه الآية، وهو عشية عرفة: عام حجة الوداع كما رواه الشيخان عن عمر رضى الله عنه .

وقد أخبر سبحانه وتعالى، عباده المؤمنين، بأن الكفار قد انقطع رجاؤهم من زوال دين الإسلام، أو النَّيْل منه ومن أتباعه . فقد بدَّل الله المؤمنين من ضَعفهم قوة، ومن خوفهم أمنًا، ومن فقرهم غنى. فوجب عليهم ألاَّ يَخشَوا إلا الله، وألا يرهبوا أحدًا سواه .

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . وقد أكمل الله الدين لعباده، فبين حلاله وحرامه. فليسوا فى حاجة إلى تحليل أو تحريم بعد ذلك . وما كان من حكم غير منصوص، جاءَ عن طريق: الإجماع، أو القياس - فهو مستمد من الكتاب أو السنة .

وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي. وأتم الله عليهم نعمة النصر على الأعداء، والغلبة عليهم. فأصبحَتْ لهم اليدُ العليا، ودخلوا مكة ظافرين منتصرين، وأَدَّوا المناسك آمنين مطمئنين، وهُدِمَت معالمُ الجاهلية، وأُبْطلت مناسِكُها، وانتَشَر الإسلام فى أرجاء الجزيرة العربية .

وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا . واختار الله لهم الإسلام دينا .. فمن طلب الهدى فى غيره، فقد ضل سواء السبيل، وخسر خسرانا مبينا: وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ. (آل عمران: ٨٥).

وبنزول قوله تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا. عرف رسول الله ﷺ، أن رسالته تمت، وأن أجله اقترب، وأنه عما قريب – لاحق بالرفيق الأعلى .

فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . هذا الجزءُ من الآية يتصل بقوله تعالى: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ . إلى قوله: وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ . وقد توسط قوله تعالى: ذَلِكُمْ فِسْقٌ . إلى هنا؛ لتأكيد التحريم لما تقدم ذكره؛ لأن تحريم هذه الخبائث، من جملة الدين الكامل. أى: ما ذُكر من المحرمات السابقة – محظور تناول أى شىء منه فى حالة الاختيار، ولكن قد يقع الإنسان فى الأضرار بأن تصيبَه مخمصة – أى مجاعة – فتضطرهُ إلى تناول شىءٍ من هذه المحرمات؛ إنقاذًا لحياته؛ لأنه لا يجد غيرها أمامه. فكان من رحمة الله بعباده: أن رَفَعَ الحرج عن المضطر، إذا تناول شيئًا من هذه المحرمات، بشرط أن يكون غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ. أى: غير مائل إلى الإثم . وذلك بتجاوزه حد الضرورة. ولذلك ختمت الآية بقوله تعالى: فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. أى: لا يؤاخذ الله من يضطر إلى ذلك. وهذا من مظاهر رحمته سبحانه .

وقد قررت الآية مبدأين من مبادئ التشريع، بنى عليهما كثير من فروع الشريعة :

أولهما: أن الضرورات تبيح المحظورات .

ثانيهما: أن الضرورة تقدر بقدرها .. وهذا من يسر الإسلام وسماحته قال تعالى: وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ . (الحج: ٧٨)

★ ★ ★

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٤ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٥﴾

المفردات:

الطيبات : ما طاب من الأطعمة وحلّ .

الجوارح : واحدها: جارحة . وهى الصائدة من الكلاب والفهود والطيور .

مكلبين : مبالغين فى تدريبها على الصيد . فالمكلِّبُ: مؤدِّب الجوارح ومدربُها على الصيد.

المحصنات : العفيفات .

مسافحين : مجاهرين بالزنى .

أخدان : جمع خدن . وهو: الصديق فى السر. يطلق على الذكر والأنثى . والمراد من قوله: وَلاَمُتَّخِذِى أَخْدَانٍ : ولا مُسِرِّين بالزنى مع الصديقات .

حبط عمله : بطل عمله .

التفسير:

٤- يَسْئَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ .... لما ذكر سبحانه وتعالى فى الآية السابقة آية التحريم تحرَّج المسلمون أن يتناولوا شيئًا قبل أن يستيقنوا من حله .

لذلك سألوا رسول الله ﷺ مَاذَا أُحِلَّ لَهُم ؟

جاء فى تفسير ابن كثير وغيره :

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن جبير، أن عدى بن حاتم، وزيد بن المهلهل الطائيين – وكانا أهل صيد – قالا: يا سول الله، إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة .

وإن الكلاب تأخذ البقر والحمر والظباء، فمنه ما ندرك ذكاته ومنه ما تقتله فلا ندرك ذكاته، وقد حرم الله الميتة فماذا يحل لنا ؟ فنزلت الآية : يَسْئَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ...

أى: يسألك المؤمنون: ماذا أحل لهم من الطعام ؟ فقل لهم يا محمد: أحل لكم ما تستطيعون أكله وتشتهونه مما حلّ لكم .

قال صاحب الظلال:

وهو جواب يستحق الانتباه، إذ يلقى فى حسهم أنهم لم يحرموا طيِّبًا ولم يمنعوا عن طيب، وأن كل الطيبات ما تزال لهم حلالاً . فلم يحرم إلاَّ الخبيث، والواقع أن كل ما حرم تستقذره الفطرة السليمة بطبعها من الناحية الحسية كالميتة والدم ولحم الخنزير، أو ينفر منه الضمير السليم كالذى أهل به لغير الله، وما ذبح على النصب أو الاستقسام بالأزلام .

وهو يضيف إلى الطيبات ما أمسكته الجوارح كالصقر والبازى –ومثلها كلاب الصيد – المعلمة على الصيد، التى كلَّبها أصحابها، أى: علموها كيف تكلب الفريسة وتكبلها وتصطادها، وتحتفظ بها لا تأكلها، واشترط لحل ما تكلبه الجوارح وتمسكه أن تكون قد أمسكته لحساب أصحابها لا لحسابها هى، وآية ذلك ألا تأكل منه عند صيده ؛ ولا تقربه إلا إذا غاب عنها صاحبها فجاعت فإنها إن تكن أمسكت الفريسة لنفسها ولتطعم منها؛ حرمت الفريسة على الناس، وتُركت للذى صادها لنفسه من الجوارح .. فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ. فلا بدّ من ذكر اسم الله عند إطلاق الجارح أو كلب الصيد؛ ليكون الصيد حلالاً .

من كتب التفسير:

جاء فى تفسير ابن كثير، وصفوة التفاسير للأستاذ محمد على الصابونى والتفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ما نوجزه فيما يأتى:

وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ .. أى: اذكروا اسم الله على هذه الجوارح التى علمتموها عند إرسالها .

روى البخارى وأصحاب السنن من حديث عدىّ بن حاتم: أن النبى ﷺ قال: «إذا أرسلت كلابك المعلمة، وذكرت اسم الله عليه؛ فكل مما أمسكن عليك، إلا أن يأكل الكلب فلا تأكل، فإنى أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه» . [٤٢] .

وعلامة المعلم أن يسترسل إذا أرسل، وينزجر إذا زُجِر وأن يمسك الصيد فلا يأكل منه، وأن يذكر الله عند إرساله، فهذه أربع شروط لصحة الأكل من صيد الكلب المعلم ..

وقد قال بعض الفقهاء : بحرمة أكل الصيد الذى أكل منه الجارح ولم يدركه الصائد حيا؛ لأنه أمسكه على نفسه، وقال مالك والليث: يؤكل وإن أكل منه الكلب .

وقال أبو حنيفة وأصحابه: إذا أكل الكلب من الصيد فلا يؤكل منه، ويؤكل صيد البازى وإن أكل منه؛ لأن تأديب سباع الطير إلى حد ألا تأكل منه متعذر، بخلاف الكلاب، فإنه غير متعذر، وإذا أدرك الصائد ما أكل منه السبع حيا حياة مستقرة، فذكَّاه – أى: ذبحه – حل أكله اتفاقا؛ لقوله تعالى: وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ. وإن كانت حياته غير مستقرة وذكاه، فالحكم كذلك عند الجمهور لعموم الآية.

قال أبو طلحة الأسدى: «سألت ابن عباس عن ذئب عدا على شاة فشق بطنها، ثم انتثر قصبها – أى أمعاؤها – فأدركت ذكاتها، فذكَّيتها، فقال: كل، وما انتثر من قصبها فلا تأكل» .

قال إسحاق بن راهويه: السنّة فى الشاة، على ما وصف ابن عباس، فإنها – وإن خرجت أمعاؤها – فهى حية بعد، وموضع الذكاة منها سالم، وإنما ينظر – عند الذبح – أحية هى أم ميتة؟ ولا ينظر إلى ما أصابها: هى تعيش معه أم لا؟ قال ابن إسحاق: ومن خالف هذا؛ فقد خالف جمهور الصحابة وعامة العلماء .

وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ . هذا أمر بتسمية الله تعالى عند إرسال الكلب والطير على الصيد، فالحكم فى التسمية عنده كالحكم فيها عند الذبح .

وقيل: هو أمر بالتسمية على الصيد عند الأكل منه .

قال الالوسى: وهو بعيد، وإن استظهره أبو حيان. [٤٣] .

واستدل العلماء بهذه الآية على جواز تعليم الحيوان وضربه للمصلحة؛ لأن التعليم يحتاج إلى ذلك، وعلى إباحة اتخاذ الكلب للصيد. ومثله للحراسة،والانتفاع به فيما يحقق المصالح العامة، مثل تعقبل اللصوص، وإنقاذ الغرقى، وقيادة العميان .

٥ – الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ ..

الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ. أى: أبيح لكم المستلذات من الذبائح وغيرها، وفى هذا دليل على سماحة الإسلام ويسره ورغبة الله الكريم فى أن يتمتع عباده بالطيبات من الحلال فى الطعام . والثياب والزواج والمسكن والدابة وشئون الحياة فى غير ما إسراف ولا خيلاء. وفى الحديث النبوى الشريف: «كل ما شئت والبس ما شئت ما تجنبك اثنتان الإسراف والمخيلة» [٤٤]

وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ : أى ذبائح اليهود والنصارى حلال لكم .

وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ . أى: ذبائحكم حلال لهم فلا حرج أن تطعموهم وتبيعوه لهم .

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ . أى: وأبيح لكم – أيها المؤمنون – زواج الحرائر العفيفات من المؤمنات.

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ . أى: وزواج الحرائر من الكتابيات – يهوديات أو نصرانيات – وهذا رأى الجمهور، وقال عطاء : قد أكثر الله المسلمات وإنما رخّص لهم يومئذ .

إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ . أى: أعطيتموهن مهورهن، وقيد حل المحصنات من المؤمنات، ومن أهل الكتاب بإتيانهن لتأكيد وجوبها، لا لتوقف الحل على إتيانها، فإن الزواج يحل بالصداق المؤجل، كما يحل إذا تم بدون مهر – وللزوجة مهر المثل .

وسمى الله المهور أجورا؛ لأنها عوض عن الاستمتاع بهن كما قال ابن عباس وغيره .

وتسمى صداقا؛ لأنها مشعرة بصدق رغبة باذليها فى الزواج، وقد فرضت لذلك؛ إعزازًا للمرأة وتكريما لها .

وقد أوجب الله أن يكون الغرض من الزواج، الإحصان والعفَّة، فقال تعالى : مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِى أَخْدَانٍ ..

يشترط القرآن أن يكون المهر سبيلا إلى الإحسان والزواج الحلال، ولا يجوز أن يكون المال وسيلة للسفاح والزنى فاتخاذ العشيقة والزنى بها محرم على الرجل والمرأة على السواء، والأخدان: جمع خدن وهو الصديق ذكرًا كان أم أنثى، هنا فى صفوة التفاسير للصابونى .

مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ . أى: حال كونكم أعفَّاء بالنكاح غير مجاهرين بالزنى .

وَلاَ مُتَّخِذِى أَخْدَانٍ . أى: وغير متخذين عشيقات وصديقات تزنون بهن سرا، قال الطبرى: المعنى: ولا منفردًا ببغية قد خادنها وخادنته واتخذها لنفسه صديقة يفجر بها .

وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ . أى: ومن ينكر شرائع الإيمان وفروعه، وقوانينه وأحكامه، التى من جملتها: ما بيّن من الأحكام المتعلقة بالحل والحرمة .

فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ . فقد بطل عمله، فلا يعتد به، وضل سعيه، وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ. ويكون فى الآخرة من الهالكين .

وتعبير ومن يكفر بالإيمان فيه جدة وطرافة فالكفر فى هذه المرة ليس بالله ولا باليوم الآخر، ولا بالدين ولا بشىء منه إنما هو الكفر بالإيمان ذاته. والتنكر لوجدان الإيمان ذاته، ومن فارقه؛ فقد حبط عمله؛ لأنه انبت وابتعد عن الهدى والاعتقاد أصلا، وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

فى أعقاب الآية :

«نطّلع فى هذه الآية على صفحة جديدة من صفحات السماحة الإسلامية؛ فالإسلام لا يكتفى بأن يترك أهل الكتاب لما يعتقدون» .

لا يكتفى بأن يترك لهم هذه الحرية، إنما يشملهم بجو من المشاركة الاجتماعية، والمودة والمجاملة والخلطة فيجعل طعامهم حلا للمسلمين، وطعام المسلمين حلا لهم، وكذلك يجعل العفيفات من نسائهم طيبات للمسلمين، يقرن ذكرهن بالعفيفات من المسلمات وهى سماحة لا يفيض بها إلا الإسلام من بين سائر الأديان .

فإن الكاثوليكى المسيحى ليتحرج من نكاح الأرثوذكسية أو البروتستانتينية أو المارونية المسيحية، ولا يقدم على ذلك إلا المتحللون عندهم من العقيدة .

وهكذا يبدو أن الإسلام هو العقيدة الوحيدة التى تسمح بقيام مجتمع عالمى لا عزلة فيه بين المسلمين وأصحاب الديانات الكتابية الأخرى، ولا حواجز بين أصحاب العقائد المختلفة التى تظلها راية المجتمع الإسلامى .[٤٥] .

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٦ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧ ﴾

المفردات:

قمتم إلى الصلاة: أردتم القيام إليها وأنتم محدثون.

المرافق: جمع مرفق؛ وهو ما يصل الذراع في العضد.

الكعبين: العظمين الناتئين من الجانبين. عند مفصل الساق والقدم.

الغائط: المنخفض الواسع من الأرض. وهو هنا؛ كناية عن قضاء الحاجة.

لامستم النساء: كناية عن الاتصال الجنسى، أو مطلق المباشرة.

صعيدا: الصعيد: وجه الأرض البارز.

طيبا: طاهرا.

ميثاقه: عهده.

واثقكم به: عاهدكم به.

التفسير:

٦- يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ ...الآية

تأتى هذه الآية فى سلسلة الحديث عن الطيبات، فقد أحل الطيبات من الزوجات ومن الطعام. وهنا حديث عن طيبات الروح وهى: الوضوء والتيمم؛ فالوضوء نظافة للجسد، وطهارة للجسد والروح، وروى مالك وأحمد ومسلم وابن جرير عن أبى هريرة رضى الله عنه، أن النبى ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء، فإذا غسل يديه،

خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء، فإذا غسل رجليه، خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء، حتى يخرج نقيا من الذنوب .[٤٦]

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ ... يأيها الذين آمنوا إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأنتم محدثون فتوضأوا بغسل وجوهكم، والوجه معروف، وحده طولا من منبت الشعر المعتاد إلى أسفل الذقن، وحده عرضًا ما بين شحمتى الأذنين، ولا عبرة بالصلع أو غيره .

وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ . أى: اغسلوا الوجوه والأيدى مع المرافق .

وَامْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ. وأَرْجُلَكُمْ. بالنصب عطفا على وُجُوهَكُمْ ، داخلا معها فى حكم الغسل فواجب الرجلين هو الغسل عند الأكثرين .

والمعنى : امسحوا رءوسكم واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين معهما .

قال الزمخشرى : وفائدة المجىء بالغاية إِلَى الْكَعْبَيْنِ. لدفع ظن من يحسبها ممسوحة؛ لأن المسح لم تضرب له غاية فى الشريعة، وفى الحديث «ويل للأعقاب من النار»[٤٧] وفى قراءة وأَرْجِلِكم بالجر، عطفا على رُءُوسِكُمْ. ولا يفيد ذلك أن الواجب فى الرجلين هو المسح، بل للإيذان بأنه لا ينبغى الإسراف فى غسلهما، والمسح هنا محمول على الغسل كما صرح به كثير من أهل اللغة .

يقال للرجل إذا توضأ: تمسح، ويقال: مَسَحَ المطر الأرض: إذا غسلها .

ويرى الشيعة الإمامية : أن الواجب فى الرجلين هو المسح، أخذا من قراءة الجرّ .

وأوجب داود الظاهرى: الجمع بين المسح والغسل فيهما؛ مراعاة للقراءتين .

والأرجح هو رأى جمهور الفقهاء .

والمذكور فى الآية من فرائض الوضوء: غسل الوجه، وغسل اليدين مع المرفقين، ومسح الرأس، وغسل الرجلين مع الكعبين .

على خلاف بين الفقهاء فى المقدار الممسوح من الرأس، فيرى المالكية والحنابلة أن المراد: مسح جميع الرأس، ويرى الحنفية أن المراد: ربع الرأس من أى جانب، ويرى الشافعية أن المراد بمسح الرأس: البعض ولو شعرة .

وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ . أى: إن كنتم فى حالة جنابة بمخالطة أو احتلام أو غيره، فلابد من أن تتطهروا بالغسل، وهو تعميم الجسد كله بالماء، وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ. أى: وإن كنتم مرضى

ويضركم الماء أو كنتم مسافرين ولم تجدوا الماء، ومن العلماء من أباح التيمم للمريض والمسافر مطلقا، ورأى أن التيمم رخصة من الله للمريض، ورخصة للمسافر سواء قدر على استخدام الماء أم لا، وقد بسط هذا القول الشيخ محمد عبده، والسيد رشيد رضا فى تفسير المنار .

أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ . أى: أتى من مكان البراز. أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ . أى: جامعتموهن .

فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا . أى: ولم تجدوا الماء مع طلبه فاقصدوا التراب الطاهر للتيمم به .

فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ . هو أن يمسح وجهه بيديه: بضربتين يضربهما على الصعيد، إحداهما للوجه، والثانية لليدين.

ويكفيه هذا التيمم عن كل من الطهارتين، أو مجموعهما حتى يجد الماء أو يقدر على استعماله بزوال عذره .

وهو تيمم لكل فريضة مع نوافلها، أو يصلى به ما شاء من فرائض ونوافل ؟ خلاف بين الفقهاء.

مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ . أى: ما يريد الله بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتيمم تضييقا عليكم أو تكليفكم بما يشق عليكم.

وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ . ولكن يريد بما شرعه لكم منها أن يطهركم من الأدناس والأقذار، والذنوب والأوزار؛ لأن الوضوء والغسل فيهما نظافة للجسم، وطهارة من الذنوب والخطايا .

وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ . ببيان شرائع الإسلام، فى الوضوء والغسل والتيمم .

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . ولكى تشكروه دائما على نعمه، بطاعتكم إياه فيما أمركم به .

٧ – وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ ... الآية

أى: تذكروا نعم الله عليكم إذ هداكم للايمان وأرسل إليكم محمدا ﷺ .

وَمِيثَاقَهُ الَّذِى وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا. أى: واذكروا ميثاقه وعهده الذى أخذه عليكم بالسمع والطاعة، والمراد بالميثاق هنا: هو الميثاق الذى أخذه عليهم، حين بايعهم الرسول ﷺ فى العقبة الثانية، سنة ثلاث عشرة من النبوة على السمع والطاعة فى حال اليسر والعسر، والمنشط والمكره، كما أخرجه البخارى ومسلم من حديث عبادة بن الصامت .

وإضافة الميثاق إليه – تعالى – مع صدوره عن النبى ﷺ؛ لكون المرجع إليه سبحانه وتعالى.

وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. أى: راقبوا الله فإنه عليم بخفايا نفوسكم فيجازيكم عليها .

وذات الصدور: تعبير مصور عن النيات التى اشتملت عليها الصدور .

أى: راقبوا الله فى سركم وعلانيتكم، وفى كل ما تأتون وما تذرون؛ فهو سبحانه مطلع على السرائر، عليم بخفايا الصدور لا تخفى عليه خافية .

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾

المفردات:

قوامين : أى: قائمين حق القيام .

بالقسط : بالعدل .

لا يجرمنكم : لا يحملنكم .

شنآن : بغض وعداوة .

خبير : عالم بكل الأمور على وجه الدقة .

التفسير:

٨ - يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ... الآية

أى: كونوا مبالغين فى الاستقامة بشهادتكم لله وصيغة قوام للمبالغة .

والآية توجيه من الله لعباده المؤمنين أن يكون دأبهم دائما القيام لله بحقوقه، فى أنفسهم بالعمل الصالح، وفى غيرهم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ. أن يؤدوا الشهادة بالعدل على وجهها الصحيح، من غير مراعاة لقرابة أو صداقة، ومن غير محاباة أو مجاملة .

وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا. أى: ولا يحملنكم بغض قوم أو عداوتهم - على أن تجوروا فى حكمكم، أو تغيّروا فى شهادتكم .

اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى. أى: أن العدل هو أقرب الطرق الموصلة إلى تقوى الله وخشيته، وأنسب الطاعات لها .

وَاتَّقُواْ اللَّهَ . راقبوه فى أعمالكم؛ فالتقوى ملاك كل أمر .

إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . إن الله سبحانه وتعالى - عليم بدقائق أموركم وسيجازيكم عليها إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر .

★ ★ ★

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠) ﴾

التفسير:

٩ - وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ. تكفل الله بجزاء المؤمنين الذين قاموا بواجب الإيمان وقدموا الأعمال الصالحة بأن يغفر ذنوبهم ويجزل ثوابهم بالأجر العظيم.

وهو وعد من الله العادل الذى لا يخلف وعده سبحانه المتفضل بالجزاء والثواب .

١٠ - وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ... الآية. أى: كذبوا بآيات الله المنزلة على رسله، وآياته التى أقامها فى الأنفس والآفاق؛ للدلالة على وحدانيته، وكمال قدرته وسائر صفاته .

أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ. هؤلاء يستحقون عذابا شديدًا فى نار تتأجج يلازمونها ملازمة صاحب الدار لداره .

★ ★ ★

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) ﴾

المفردات:

يبسطوا إليكم أيديهم : يبطشوا بكم .

فكف أيديهم عنكم : فمنعهم عن إيذائكم .

التفسير:

١١ - يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ... الآية

ورد فى سبب نزول هذه الآية، ما رواه مسلم وغيره من حديث جابر - أن المشركين رأوا رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم بعسفان، قد قاموا إلى صلاة الظهر معًا، فلما صلوا، ندموا ألاّ كانوا أكبُّوا عليهم. وهموا أن يوقعوا بهم، إذا قاموا إلى صلاة العصر بعدها؛ فردّ الله - تعالى - كيدهم، بأن أنزل صلاة الخوف وقد يكون هذا عندما همّ المشركون بقتال المسلمين فى عام الحديبية[٤٨].

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ. أى: اذكروا فضل الله عليكم بحفظه إياكم من أعدائكم.

إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ. أى: يبطشوا بكم بالقتل والهلاك.

فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ. أى: عصمكم من شرهم، وردّ أذاهم عنكم.

وَاتَّقُواْ اللَّهَ. بامتثال أمره واجتناب نهيه. وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ. أى: فليثق المؤمنون بالله فإنه كافيهم وناصرهم.

★ ★ ★

﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

المفردات:

ميثاق: الميثاق: العهد المؤكد - بين طرفين - فى شأن هام.

نقيبا: النقيب: هو كبير القوم، المعْنِىُّ بشأنهم.

إني معكم: ناصركم ومعينكم.

عزرتموهم: آزرتموهم ونصرتموهم.

أقرضتم الله: أنفقتم فى سبيل الله نفقة طيبة.

لعناهم: اللعن: الطرد من الرحمة.

قاسية: شديدة غليظة، لا تقبل خيرا.

خائنة منهم: خيانةٍ وغدرٍ منهم.

التفسير:

١٢ - وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَاءِيلَ ... الآية.

بعد أن أمر الله - سبحانه وتعالى - بالوفاءِ بالعهد، وذكَّر المؤمنين بميثاقه الذى واثقهم به على السمع والطاعة - ذكَرَ بعض ما صدر من بنى إسرائيل من نقض العهود، وما كان من عقاب الله لهم عليها؛ ليتعظ المؤمنون، ويعملوا على حفظ نعم الله - تعالى - بمراعاة حق الميثاق، وتحذيرهم من نقضه، فقال:

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَاءِيلَ. أى: لقد أخذ الله العهد على بنى إسرائيل: أن يعملوا بما فى التوراة، ويقبلوها بجدٍّ ونشاط.

وقد أخذ الله عليهم مواثيق فرعية تتصل بما كلفهم الله به، ومنها ما سيأتى فى الآية التى معنا.

وقد سبق بيان بعض المواثيق التى أخذت عليهم؛ فى سورتى البقرة، وآل عمران. فارجعْ إليها وإلى شرحها إن شئت.

وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا. وأمر الله موسى عليه السلام: أن يختار منهم اثنى عشر رئيسا دينيا يتولون أمور الأسباط، ويقومون على رعايتهم، ففعل، وبعثهم يتحسسون العدوَّ ليقاتلوه.

وَقَالَ اللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ. بالنصر والتأييد على أعدائكم. أو المراد منه: أنه معهم بعلمه: يسمع كلامهم ويعلم ضمائرهم، وأنه مجازيهم على ما يحدث منهم.

لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ. أى: أديتموها حق أدائها.

وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ. أى: وأعطيتموها مستحقيها. من مال طيب. وكسب حلال.

وَءَامَنتُم بِرُسُلِى. كلهم .

وَعَزَّرْتُمُوهُمْ . نصرتموهم وجاهدتم الأعداء معهم .

وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا . أى : أنفقتم فى سبيل الله ؛ عن طيب نفس دون مَنٍّ أو حُبٍّ للفخر والرياء.

لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ : لأمحونَّ ذنوبكم .

ولأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحتِهَا الأَنْهَارُ . أى: ولأدخلنكم – فى الآخرة – جناتٍ تجرى من تحت أشجارها الأنهار . تتنعمون فيها بما أعد لكم من النعيم .

وقد أكد الله – تعالى – وعيده بالقسم وغيره من التوكيدات؛ ليحملهم على تنفيذ ما عاهدوا الله عليه .

فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . أى: فمن كفر منكم – بعد ذلك الوعد بالنصر، وتكفير السيئات وإدخال الجنات، بأن نقض العهد والميثاق – فقد حاد عن الصراط السوى: الذى رسمه الله لهم؛ كى يسيروا عليه .

ولكنَّ بنى إسرائيل لم يوفوا بعهدهم، ونقضوا الميثاق، الذى أخذه الله عليهم؛ فعاقبهم الله تعالى، وفى ذلك يقول سبحانه :

١٣– فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ... الآية

تعرض الآية النتائج المترتبة على موقفهم من الميثاق . فتقول:

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ . أى: فبحسب نقضهم عهدهم المؤكد

لَعَنَّاهُمْ . أى: طردناهم من رحمتنا عقوبة لهم ؛ لأنهم قد فسدت فطرتهم .

وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً . أى: أورثنا قلوبهم الغلظة والقسوة . فهى لا تلين، ولا تنفذ إليها الحجة، ولا تؤثر فيها الموعظة.

يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ . أى: يغيرون كلام الله فى التوراة، بالمحو والإثبات والزيادة والنقصان، وسوء التأويل .

وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ . أى: وأعرضوا عن بعض ما أمروا به فى التوراة، من اتباع الرسول ﷺ والإيمان به، وغير ذلك. وإنما قال: يُحَرِّفُونَ، ولم يقل: حرّفوا؛ للدلالة على أن هذا الخلق طبع فيهم ؛ تتجدد آثاره آنًا فآنًا .

ولذا قال الله – تعالى – لنبيه عقب ذلك .

وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ . أى: إن الغدر والخيانة عادة مستمرة لليهود . منتقلة فيهم، من الأصول إلى الفروع . فلا تزال – أيها الرسول – تطلع من هؤلاء اليهود المعاصرين . على خيانةٍ إثر خيانة. فهم قومٌ لا عهد لهم، ولا وَفَاء عندهم .

لقد دمغتهم الكتب السماوية بالغدر والخيانة والقسوة، فرماهم نبيهم أرمياءُ بالكذب والسرقة والزنى والشرك. وأنهم حولوا بيت الله إلى مغارة لصوص (٤٩) .

ورماهم السيد المسيح – عليه السلام – بأنهم مثل القبور المبيضة من الخارج، المليئة بالجيف من الداخل، ووصفهم بأنهم الحيَّات، أولاد الأفاعى . وأنهم قَتَلُوا الأنبياء والحكماء، وجعلوا بيت الله مغارة لصوص (٥٠) .

والآيات القرآنية العديدة تؤيد هذه الصفات .

إلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ . وهم من آمنوا بك، واتبعوك كعبد الله بن سلام وأمثاله من الذين آمنوا بالله ورسوله، فلا تظن بهم سوءا، ولا تخف منهم خيانة؛ لأن الله طهرهم بالإسلام .

فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ . فاعفُ عما فرط من هؤلاء اليهود، واصفح عمن أساء منهم وعاملْهمْ بالإحسان؛ تأليفًا لهم، فلعل الله أن يهديهم .

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . وأنت أحق الناس بالاتصاف بالإحسان واتباع ما يحبه الله .

★ ★ ★

﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

المفردات:

نصـــــــــارى: جمع نصران، كندمان وندامى ، ولم يُستعمل إلا بياء النسب، وقد صارت كلمة «نصرانى» لقبًا لكل من اعتنق المسيحية . قيل: لقبوا أنفسهم بذلك، على معنى أنهم أنصار الله. وقيل: نسبة إلى الناصرة بلدة بالشام، واستقر بها المسيح بعد رجوع أمه به من مصر إلى الشام .

حـــــظـــــا : نصيبًا أو مقدارا .

فأغرينا بينهم العداوة : أى: فألقينا بينهم العداوة .

التفسير:

١٤- وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ ... الآية

أى: ومن الذين ادعوا أنهم أنصار الله، وسمُّوا أنفسهم بذلك . أخذنا منهم أيضا الميثاق على توحيد الله والإيمان بمحمد رسول الله .

فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ .. أى: فتركوا ما أمروا به فى الإنجيل من الإيمان بالأنبياء ونقضوا الميثاق.

فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . أى: ألزمنا وألصقنا بين فرق النصارى العداوة والبغضاء إلى قيام الساعة .

قال ابن كثير : ولا يزالون متباغضين متعادين يكفر بعضهم بعضا، ويلغى بعضهم بعضا، وكل فرقة تمنع الأخرى دخول معبدها .

وقال صاحب الظلال: لقد نسى النصارى جانبا من تعاليم السماء، نسوا الجانب الأساسى فيها، وهو التوحيد الذى تقوم عليه، وعند هذا الانحراف كان الخلاف بين طوائف النصارى التى لا تكاد تعد، إذ إن هنالك فرقا كثيرة صغيرة داخل كل فرقة من الفرق المعلومة الكبيرة:

الأرثوذكس، والكاثوليك، والبروتستانت، والمارون؛ اليوم، ومن قبل كان اليعقوبيون، والملكانيون والنساطرة .

وهذه العداوة التى يشير إليها النص إنما جاءت من انقسام النصارى من قديم إلى فرق، نشأت من الانحراف عن التوحيد، وتفرقت بها السُّبل، وهى عداوة حقيقية شهدتها المسيحية منذ القرن الأول للميلاد، وكانت على أشدها بين الملكانية واليعاقبة والنساطرة، وهى اليوم على أشدها بين الفرق القائمة فلا يكاد الإنسان يتصور العداء الذى بين الكاثوليك والبروتستانت، أو بينهم وبين الأرثوذكس، أو بين الموارنة والبروتستانت أو سواهم[٥١] .

وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . وسيجازيهم الله - يوم القيامة - بما صنعوا فى الدنيا من نكث العهد، ونقض الميثاق، وتحريفهم الكتاب الذى أنزل عليهم .

★ ★ ★

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾

المفردات:

نــــــــور: المراد به: محمد ﷺ.

كـتـاب مـبين: هو القرآن.

سـبـل السـلام: طرق النجاة والسلامة.

التفسير:

١٥- يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ .. الآية.

سبب النزول:

أخرج ابن جرير، عن عكرمة أنه قال: إن نبى الله تعالى أتاه اليهود يسألونه عن الرجم، فقال عليه الصلاة والسلام: أيكم أعلم؟ فأشاروا إلى ابن صوريا، فناشده بالذى أنزل التوراة على موسى عليه السلام، والذى رفع الطور، وبالمواثيق التى أخذت عليهم، حتى أخذه أَفْكل: (رعدة) فقال: إنه لما كثر فينا؛ جلدنا مائة وحلقنا الرأس فحكم عليهم بالرجم، فأنزل الله تعالى الآية.

وتفيد كتب أسباب النزول أن التوراة كانت فيها عقوبة الرجم وأن الزنى لما كثر فى أشراف اليهود أمسكوا عن تطبيق هذه العقوبة، ثم زنى رجل وامرأة من اليهود ولجأ اليهود إلى رسول الله ﷺ لينفذ حكم الله فيهما.

فطلب التوراة فأحضروها فوضعها الرسول ﷺ على وسادة وقال: آمنت بك وبمن أنزلك. وأثبت لهم الرسول ﷺ أن حكم الزانى المحصن هو الرجم، وأن هذا الحكم سبق أن جاءت به التوراة.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ...

الخطاب لليهود والنصارى:

أى: يا معشر أهل الكتاب، قد جاءكم رسولنا محمد ﷺ بالدين الحق يبين لكم الكثير مما كنتم تكتمونه فى كتابكم، من الإيمان به، ومن آية الرجم، ومن قصة أصحاب السبت الذين مسخوا قردة، وغير ذلك مما كنتم تخفونه. وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ . أى: يتركه ولا يبينه، وإنما يبين لكم ما فيه حجة على نبوته وشهادة على صدقه، ولو ذكر كل شىء لفضحكم .

قال فى التسهيل: وفى الآية دليل على صحة نبوته؛ لأنه بيَّن ما أخفوه وهو أمى لم يقرأ كتبهم [٥٢]

قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ . وهو محمد ﷺ؛ لأنه أنار الطريق، ووضح السبيل إلى الحق، قال تعالى: يَأَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا . (الأحزاب: ٤٥، ٤٦)

وَكِتَابٌ مُّبِينٌ . أى: كتاب واضح ظاهر الإعجاز وهو القرآن الكريم .

١٦– يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ . يهدى الله – بهذا القرآن – من يطلب رضوانه ويبحث عنه، ويقفو أثره، يهديه إلى سبل السلام الروحى بالاطمئنان إلى عقيدة واضحة سليمة .

وإلى سبل السلام الدينى فلا يكون سببا فى تفرق الناس شيعا، وإلى سبل السلام الاجتماعى والإنسانى .

وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ . أى: يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان بتوفيقه وإرادته.

وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . صراط الله الواحد المستقيم، الذى لا يتشعب ولا يتعرج ولا تضل فيه الخطوات .

★ ★ ★

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

التفسير:

١٧– لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ... الآية

خلق الله آدم بيده ونفخ فيه من روحه وأسكنه الجنة وخلق حواء من آدم؛ لتكون له مسكنا وأمنًا.

فآدم مخلوق بدون أب أو أم، وحواء من أب دون أمٍّ وعيسى من أم دون أب . قال تعالى: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ . (آل عمران: ٥٩)

فقدرة الله على الخلق والإيجاد معروفة ملموسة، قال تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ . (يس: ٨٢)

وهو سبحانه وتعالى على كل شىء قدير، ومن قدرة الله أن أتم خلق عيسى بواسطة نفخ جبريل فى جيب درع مريم .

ولما كان خلق عيسى بدون أب، غلا فيه النصارى فزعموا أنَّه إله أو ابن الله، ولهذا القول الشنيع حكم القرآن عليهم بالكفر وردّ عليهم بما يبطل عقيدتهم حيث قال:

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِن أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ...

أى: قل لأولئك الكفار – يا محمد – : من يقدر أن يمنع الله من شىء أراده .. ومن ذلك أن يهلك المسيح ابن مريم وأمّه ومن فى الأرض جميعا؟ .. لا أحد يستطيع ذلك ... وهم يقرُّون به .

وإذا كان المسيح لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ولا عن أمّه – شيئًا؟ فكيف يكون إلها وهو لا يستطيع دفع الهلاك عن نفسه ؟

يقول صاحب الظلال: العقيدة المسيحية انتهت إلى: أن تجعل المسيح هو الله – وإن كانت تقول: ' بالتثليث كذلك – باعتبار قولهم : الله الأب والله الابن، والله روح القدس، وتفسيرهم لهذا التعقيد بأن الله واحد ولكن الأقانيم ثلاثة موحدة فى الله الواحد .. والإسلام يقول: فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِن أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا. فيفرِّق تفرقة مطلقة بين ذات الله، وذات عيسى رسول الله، ويقيم التوحيد كاملاً دقيقًا واضحًا لا يحتاج إلى تأويلات غامضة يعز على العقل قبولها؛ لأنه يعزّ عليه تصورها من وراء تلك المعميات [٥٣]

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا. فهو سبحانه وحده له ملك جميع الموجودات، وله وحده التصرف المطلق فيها، إحياء وإماتة وإيجادًا وإعدامًا فلا شريك له فى ذلك .

يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ . أى : يبدع ما يشاء من المخلوقات – على أىّ صورة – وفقا لحكمته جلا وعلا.

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وهو القادر على كل شيء من الخلق وغيره، ومن ذلك: أنه خلق عيسى من غير أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم .

★ ★ ★

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

سبب النزول:

روى ابن أبى حاتم وابن جرير عن محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ نعمان بن آصا، وبحرى بن عمرو، وشاس بن عدى، فكلموه وكلمهم رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الله وحده وحذرهم نقمته، فقالوا: ما تخوفنا يا محمد؟ نحن والله أبناء الله وأحباؤه، كقول النصارى، فأنزل الله فيهم:

١٨– وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ [٥٤] ... الآية

أى: نحن من الله بمنزلة الأبناء من الآباء، ونحن أحباؤه؛ لأننا على دينه .

قال ابن كثير: أى: نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه وله بهم عناية وهو يحبنا .

قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم . أى: قل لهم – يا محمد – : إن كنتم كما زعمتم: أبناء الله وأحباؤه، فلأى شيء يعذبكم بذنوبكم، وأنتم مقرون بأنكم ستعذبون على ما ارتكبتم من خطايا كما حكى القرآن عنكم:

وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً . (البقرة:٨٠) وهذا يتنافى مع دعواكم القرب من الله ومحبته لكم؟! وإذن فلا مزية ولا فضل لكم على سائر البشر ولستم بأبناء الله ولا بأحبائه .

قال صاحب الظلال: واليهود والنصارى يقولون: إنهم أبناء الله وأحباؤه، فيزعمون لله تعالى بنوة – على تصور من التصورات إلا تكن بنوَّة الجسد فهى بنوة الروح، وهى أيا كانت تلقى ظلا على عقيدة التوحيد – ويزعمون أن لله تعالى صلة بالخلق، لا تنبع من قيامهم بالحق، ولكن تنبع من عواطف خاصة من الله لذوات اليهود والنصارى[٥٥] .

بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ . أى: ما أنتم إلا بشر كسائر البشر من خلق الله، من غير مزية لكم عليهم .

يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء. أي: يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ. بما يعمله من الطاعات، وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء. بما يقدمه من المعاصى، فالأمر كله موكول إلى سنته التى تسرى على الجميع سواء، ولا تعترضها عواطف خاصة، ولا صلات شخصية، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا . فهو مالك الجميع وخالق الجميع والمتصرف فى الجميع، وهذه هى الصلة العامة التى تربط كل المخلوقات به، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ . ومصير البشر جميعا ومرجعهم إليه تعالى وحده فيجازى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

وليس له – سبحانه وتعالى – من خلقه بنون ولا بنات، وليس لأحد عنده من فضل أو مزية على غيره إلا بالإيمان والعمل الصالح .

وفى الأثر : الخلق كلهم عيال الله، الله ربهم وهم عباده، يتفاضلون عنده بالتقوى ويدركون ثوابه بالعمل الصالح . قال تعالى: فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ. (الزلزلة: ٧،٨)

★ ★ ★

﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾

المفردات:

فترة من الرسل : أى: بعد مدة خلت من الرسل .

التفسير:

١٩– يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَاجَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ ...

أرسل الله محمدًا ﷺ بعد فترة من انقطاع الرسل؛ ليصحح لأهل الكتاب دينهم ويرشدهم إلى الجادة والصواب .

وقد ولد ﷺ سنة ٥٧٠ ميلادية .

ثم أنزل الله عليه الوحى والرسالة سنة ٦١٠ ميلادية .

ثم هاجر من مكة إلى المدينة سنة ٦٢٣ ميلادية .

ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى سنة ٦٣٣ ميلادية .

وكان عمره الشريف ٦٣ سنة .

أى: أن الفترة بين ميلاد المسيح وميلاد الرسول ﷺ ستة قرون إلا قليلا .

قال ابن كثير: والمقصود أن الله بعث محمدًا ﷺ على فترة من الرسل، وطموس السبل، وتغيير الأديان، وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصلبان، فكانت النعمة به أتم النعم، والحاجة إليه أمر عمم، فإن الفساد كان قد عم جميع البلاد، والطغيان قد ظهر فى سائر العباد [٥٦] .

يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ . يوضح لكم ما اندرس من أحكام، ويبلغكم ما احتاج إليه العصر من شرع جديد، ويصحح ما حدث فى كتبكم من تحريف .

روى البخارى عن أبى هريرة أنه ﷺ قال:

«أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنه ليس بينى وبينه نبى» [٥٧]

أَن تَقُولُواْ مَاجَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ. أى: لئلا تحتجوا وتقولوا : ما جاءنا من بشير يبشر بالخير وينذر من الشر، فقد جاءكم البشير والنذير محمد ﷺ .

قال تعالى: يَأَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . (الأحزاب: ٤٥)

واللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٍ.

قال ابن جرير: أى: قادر على عقاب من عصاه وثواب من أطاعه .

★ ★ ★

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

المفردات:

ملوكا : أحرارا، عندكم ما تملكون به من أموركم، بعد أن كنتم مملوكين للفراعنة .

المقدسة : المعظمة، حيث جعلت مسكن الأنبياء .

ترتدوا على أدباركم : ترجعوا على أعقابكم: بعدم امتثال ما أمرتم به .

التفسير:

٢٠- وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ... الآية

من شأن القرآن أن يلون فى الموعظة، وأن ينتقل القارئ من الخطاب إلى الغائب؛ ترويحا للنفس وتنشيطا للذهن .

والمعنى: واذكر لهم - أيها الرسول - ما حدث من أسلافهم وقت أن قال موسى - عليه السلام - لقومه ناصحا لهم:

يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ . تذكروا إنعام الله عليكم، وموسى يذكّرهم بألوان النعم التى تفضل الله بها عليهم. ومنها على سبيل المثال:

١- فجر الله لهم من الصخر ينابيع فى جوف الصحراء .

٢- أنزل الله عليهم المنّ والسلوى طعاما سائغا من أيسر سبيل .

٣- أرسل إليهم الرسل والأنبياء .

٤- فضّلهم على عالمى زمانهم حين اتبعوا أمر التوراة والتزموا بتعاليم السماء .

٥- نجاهم من فرعون وأغرق فرعون وقومه .

٦- ملّكهم شئون أنفسهم بعد أن كانوا عبيدًا لفرعون يذبّح أبناءهم ويستحيى نساءهم فنجاهم منه وجعل أمر أنفسهم بأيديهم .

٧- أنزل التوراة على موسى وفيها الهداية والرحمة لهم .

إلى غير ذلك من النعم؛ ومنها أيضا قصة البقرة التى أمروا بذبحها وضرب قتيل بذنبها فيقوم ويقول: قتلنى فلان .

إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا . أى: لأنه جعل فيكم أنبياء كثيرين، ولم يبعث فى أمة من الأمم من الأنبياء مثل ما بعث فى بنى إسرائيل .

وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا. أى: جعلكم أحرارًا تملكون أمر أنفسكم وأموالكم، بعد أن كنتم عبيدًا مستذلين لفرعون وجنده .

وقال عبد الرزاق عن ابن عباس فى قوله: **وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا.**

قال: الخادم والمرأة والبيت .

وعنه قال: كان الرجل من بنى إسرائيل إذا كان له الزوجة والخادم والدار؛ سمى ملكا .

وقال الحسن البصرى: هل الملك إلاّ مركب وخادم ودار، رواه ابن جرير .

وقال السدى فى قوله: وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا، قال: يملك الرجل منكم نفسه وماله وأهله. وقد ورد فى الحديث: «من أصبح منكم آمنا فى سربه، معافى فى جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها» .[٥٨]

وروى ابن جرير الطبرى، أن رجلا قال لعبد الله بن عمرو بن العاص: ألسنا من فقراء المهاجرين ؟.

فقال عبد الله له: ألك امرأة تأوى إليها ؟ قال نعم .

قال: ألك مسكن تسكنه ؟ قال: نعم .

قال: فأنت من الأغنياء .

فقال الرجل: إنّ لى خادما، قال: فأنت من الملوك .

وَءَاتَاكُم مَّالَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ . وأعطاكم من النعم ما لم يعط غيركم من العالمين، إذ نجاكم من عدوكم، وشق البحر لكم، وأغرق فرعون وجنوده، وأظلكم بالغمام، وأنزل عليكم المن والسلوى وغير ذلك .

٢١ – يَاقَوْمِ ادْخُلُواْ الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ... أى: ادخلوا بيت المقدس وماحوله، ويقال لها: إيليا وتفسيرها: بيت الله.

الَّتِى كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ . أى: قدّر لكم دخولها؛ لتنشروا التوحيد بين أهلها . وموسى بهذا يستحثهم على الجهاد والشجاعة والكرامة؛ ليستردوا بيت المقدس من يد العماليق .

وَلاَ تَرْتَدُّواْ عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ .

وَلاَ تَرْتَدُّواْ عَلَى أَدْبَارِكُمْ . أى: ولا تنكصوا عن الجهاد، وقد حذر القرآن من التخلى عن الجهاد والفرار من الميدان، وعبر عن الفرار بصورة زرية، صورة إنسان يفرّ من الميدان ويعطى العدو دبره.

قال تعالى: يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوآ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ * وَمَن يُوَلِّهِمْ يَومَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . (الأنفال: ١٥، ١٦)

فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ. فترجعوا خاسرين فى دنياكم وأخراكم .

قال فى التسهيل: روى أنه لما أمرهم موسى بدخول الأرض المقدسة خافوا من الجبارين الذين فيها، وهمُّوا أن يرجعوا إلى مصر [٥٩].

★ ★ ★

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾

المفردات:

جبارين: جمع جبار، وهو العاتى الذى يقهر الناس ويجبرهم على ما يريده منهم.

التفسير:

٢٢- **قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ**. أى: قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام:إن الأرض التى وعدتنا بدخولها فيها قوم متغلبون على كل من يقاتلهم، ولا قدرة لنا على لقائهم - وهم الكنعانيون ومن جاورهم - وإنَّا لن ندخل هذه الأرض المقدسة مادام هؤلاء الجبارون فيها.

فإن يخرجوا منها لأىّ سبب من الأسباب التى لا شأن لنا بها؛ فإنا ندخلها دون حرب وقتال.

وهذا مطلب عجيب، إذ كيف يخرج أهل البلد الأقوياء الجبارون من بلدهم طواعية، ليدخلها هؤلاء الجبناء فاتحين [٦٠].

٢٣- **قَالَ رَجُلاَنِ مِنْ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ** ... الآية

أى قال رجلان من الذين يخافون الله، قد أنعم الله عليهما بنعمة التوفيق والسداد، والمراد بالرجلين: يوشع بن نون، وكالب بن يوقنا، وكانا من الاثنى عشر نقيبا.

ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ. أى: قال الرجلان اللذان يخافان الله لقومهما: ادخلوا على أعدائكم باب مدينتهم وفاجئوهم بسيوفكم، وباغتوهم بقتالكم إياهم، ولا تدعوا لهم فرصة للتفكير والاستعداد لكم.

فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ. فإذا فعلتم ذلك؛ أحرزتم النصر عليهم، وأدركتم الفوز، فإنه «ما غُزى قوم فى عقر دارهم إلاّ ذلوا».

قال الزمخشري: فإن قلت من أين علما أنَّهم غالبون؟ قلت: من جهة إخبار موسى بذلك، ومن جهة قوله تعالى: كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ. وقيل: من جهة غلبة الظن وما تبيناه من عادة الله في نصر رسله، وما عهد من صنع الله لموسى في قهر أعدائه، وما عرفا من حال الجبابرة (٦١) .

وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. أي: اعتمدوا على الله في قتال أعدائكم بعد أخذ العُدَّة وتوفير الأسباب فالتوكل أخذ بالأسباب مع الاعتماد على الله تعالى، وبدون الأخذ بالأسباب يعتبر ذلك تواكلا، والتواكل مدعاة للهزيمة.

إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. أي: إن كنتم مؤمنين بالله حق الإيمان مصدِّقين بوعده واثقين بنصره .

★ ★ ★

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

المفردات:

فافرق: فافصل .

الفاسقين: الخارجين عن الطاعة .

يتيهون في الأرض: يتحيرون ولا يهتدون .

فلا تأس: فلا تحزن .

التفسير:

٢٤ - قَالُواْ يَامُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ... الآية

أي: قالوا غير عابئين بالنصيحة، بل معلنين العصيان والمخالفة : يا موسى، إنا لن ندخل هذه الأرض التي أمرتنا بدخولها في أيِّ وقت من الأوقات ما دام هؤلاء الجبارون يقيمون فيها؛ لأننا لا قدرة لنا على مواجهتهم: فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ .

أى: فإن كنت مصمما على دخول الأرض المقدسة، فاذهب أنت وربك لقتال سكانها الجبابرة وإخراجهم منها - وكأنهم يصورون الله بأنه إله موسى وحده، وليس إلها للجميع - أما نحن فإنَّا هاهنا قاعدون منتظرون وهو تأكيد منهم لعدم دخول تلك الأرض .

أى: إنا هاهنا قاعدون فى مكاننا لن نبرحه، ولن تتقدم خطوة إلى الأمام؛ لأن كل مجد وخير يأتينا عن طريق قتال الجبارين، فنحن فى غنى عنه ولا رغبة لنا فيه .

٢٥- **قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ** . أى: قال موسى باثًا شكواه وحزنه إلى الله، ومعتذرًا إليه من فسوق قومه وسفاهتهم وجبنهم:

رب، إنك تعلم أنى لا أملك لنصرة دينك أمر أحد ألزمه بطاعتك سوى أمر نفسى، وأمر أخى هارون، ولا أحد من هؤلاء الجبناء أستطيع أن أحمله على الطاعة والاستجابة إلى ما دعوتُ إليه .

فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ. أى: إن قومى قد خرجوا عن طاعتى، وفسقوا عن أمرك وما دام هذا شأنهم؛ فافصل بيننا وبينهم بقضائك العادل، بأن تحكم لنا بما نستحق، وتحكم عليهم بما يستحقون، فإنك أنت الحكم العدل بين العباد .

٢٦- **قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ**... الآية

يتيهون فى الأرض من التيه وهو الحيرة، يقال: تاه يتيه ويتوه إذا تحيَّر وضل الطريق، ووقع فلان فى التيه أى: فى مواضع الحيرة .

فَلاَ تَأْسَ. أى: فلا تحزن عليهم من الأسى وهو الحزن، يقال: أسى - كتعب - أى: حزن. فهو أسين مثل حزين، وأسا على مصيبته - من باب عدا - أى: حزن .

أى: قال الله تعالى: يا موسى، إن الأرض المقدسة محرمة على هؤلاء الجبناء العصاة مدة أربعين سنة، يسيرون خلالها فى الصحراء تائهين حيارى لا يستقيم لهم أمر ولا يستقر لهم قرار، جزاء جبنهم وضعفهم عن لقاء الأعداء، واستهانتهم بأوامر الله .

فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ. فلا تحزن يا موسى على هؤلاء الجبناء، إذ عوقبوا بهذه العقوبة فإننا ما عاقبناهم بهذه العقوبة إلا بسبب خروجهم عن طاعتنا، وتمردهم على أوامرنا، وجبنهم عن قتال أعدائنا، وسوء أدبهم مع أنبيائنا .

من تفسير الفخر الرازى:

جاء فى تفسير الفخر الرازى ما يأتى:

اختلف الناس فى أن موسى وهارون عليهما السلام هل بقيا فى التيه أو لا ؟

فقال قوم: إنهما ما كانا فى التيه؛ لأن موسى دعا الله أن يفرق بينه وبين القوم الفاسقين، ودعوات الأنبياء مجابة، ولأن التيه كان عذابا والأنبياء لا يعذبون .

وقال آخرون: إنهما كانا مع القوم فى ذلك التيه، إلا أن الله سهل عليهما ذلك العذاب كما سهل النار على إبراهيم فجعلها بردًا وسلامًا .. وإنهما قد ماتا فى التيه وبقى يوشع بن نون – وكان ابن أخت موسى ووصيُّه بعد موته – وهو الذى فتح الأرض المقدسة بعد انقضاء مدة التيه .

وقيل: بل بقى موسى بعد ذلك وخرج من التيه وحارب الجبارين وقهرهم وأخذ الأرض المقدسة [٦٢].

ملاحق بتفسير الآيات :

١– يدعى اليهود أن الأرض المقدسة حق لهم بدليل قوله تعالى: ﴿ادْخُلُواْ الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ .

والجواب: أن الله كتب لهم دخولها بشرط الجهاد والطاعة، ولكنهم تثاقلوا عن الجهاد وامتنعوا عن دخول الأرض المقدسة بالجهاد والكفاح فحرمها الله عليهم .

قال الفخر الرازى: إن الوعد بقوله: ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ . مشروط بقيد الطاعة، فلما لم يوجد الشرط لا جرم لم يوجد المشروط [٦٣] .

وبذلك ترى أن دعوى اليهود بأن الأرض المقدّسة ملك لهم، بدليل قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ . لا أساس لها من الصحة، ولا يشهد لها عقل أو نقل .

٢– لماذا كانت مدة التيه ٤٠ سنة .

الجواب عن ذلك: أن بنى إسرائيل قد نشأوا فى الذل وتعودوا المهانة، ولذلك امتنعوا عن قتال الجبارين، وعن دخول الأرض المقدسة؛ فكتب الله عليهم التيهان فى قطعة محدودة من الأرض، لا يعرفون لهم هدفا أو مقرا، وأن يستمروا على تلك الحال ٤٠ سنة، حتى يفنى جيل الذل والقهر وينشأ جيل عزيز قادر على المطالبة والتغلب .

ولقد كان بنو إسرائيل – فى هذا الوقت – فى سيناء – ثم إن اليهود لما دخلوا فلسطين – بعد هذه العقوبة – مكثوا فيها مدة محدودة، ثم أشركوا بالله، وأفسدوا فى الأرض فسلط الله عليهم من ينتقم منهم ويطردهم من بيت المقدس .

٣- من مقدمة ابن خلدون:

قال ابن خلدون: ويظهر من مساق قوله تعالى: قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى الأَرْضِ ...

ومن مفهومه أن حكمة ذلك التيه مقصودة، وهى فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر، وأفسدوا من عصبيتهم، حتى نشأ فى ذلك التيه جيل آخر عزيز لا يعرف القهر ولا يسام بالمذلة، فنشأت لهم بذلك عصبية أخرى اقتدروا بها على المطالبة والتغلب، ويظهر لك من ذلك أن الأربعين سنة أقل ما يأتى فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر، فسبحان الحكيم العليم ... [٦٤].

حكمة عقوبة التيه لبنى إسرائيل:

جاء فى تفسير المنار للسيد رشيد رضا ما يأتى:

«إن الشعوب التى تنشأ فى مهد الاستبداد وتساس بالظلم والاضطهاد، تفسد أخلاقها، وتذل نفوسها .. . وإذا طال عليها أمد الظلم تصير هذه الأخلاق موروثة ومكتسبة، حتى تكون كالغرائز الفطرية، والطباع الخلقية، وإذا أخرجت صاحبها من بيئتها، ورفعت عن رقبته نيرها، ألفيته ينزع بطبعه إليها، ويتفلت منك ليقتحم فيها، وهذا شأن البشر فى كل ما يألفونه، ويجرون عليه من خير وشر، وإيمان وكفر ....

أفسد ظلم فرعون فطرة بنى إسرائيل فى مصر، وطبع عليها بطابع المهانة والذل. وقد أراهم الله – تعالى – من الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته وصدق رسوله موسى– عليه السلام – وبين لهم أنه أخرجهم من مصر؛ لينقذهم من الذل إلى الحرية ... ولكنهم كانوا مع هذا كله إذا أصابهم ضرر يتطيرون بموسى، ويذكرون مصر ويحنون إليها ...

وكان الله – تعالى – يعلم أنهم لا تطاوعهم أنفسهم المهينة على دخول أرض الجبارين، وأن وعده – تعالى – لأجدادهم إنما يتم على وفق سنته فى طبيعة الاجتماع البشرى، إذا هلك ذلك الجيل الذى نشأ فى الوثنية والعبودية ... ونشأ بعده جيل جديد فى حرية البداوة . وعدل الشريعة، ونور الآيات الإلهية، وما كان الله ليهلك قوما بذنوبهم، حتى يبين لهم حجته عليهم، ليعلموا أنه لم يظلمهم وإنما يظلمون أنفسهم .

وعلى هذه السنة العادلة أمر الله – تعالى – بنى إسرائيل بدخول الأرض المقدسة، فأبوا واستكبروا؛ فأخذهم الله بذنوبهم . وأنشأ من بعدهم قوما آخرين ...

فعلينا أن نعتبر بهذه الأمثال التى ضربها الله لنا، وأن نعلم أن إصلاح الأمم من بعد فسادها بالظلم والاستبداد . إنما يكون بإنشاء جيل جديد يجمع بين حرية البداوة واستقلالها وعزتها، وبين معرفة الشريعة والفضائل والعمل بها » [٦٥].

خاتمة

فى هذه الآيات تسلية للرسول ﷺ بذكر تاريخ اليهود وبيان عاداتهم وعادات أسلافهم، ونكولهم عن الجهاد، وضعفهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم، مع أن بين أظهرهم كليم الله وصفيه من خلقه فى ذلك الزمان، وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم[٦٦].

قال الإمام ابن كثير: وما أحسن ما أجاب به الصحابة رضى الله عنهم يوم بدر رسول الله ﷺ حين استشارهم فى قتال قريش فقد قالوا فأحسنوا .

لقد قال المقداد بن الأسود: يا رسول الله، إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُون. ولكن نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون[٦٧] .

★ ★ ★

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

المفردات:

واتل عليهم : واقرأ على اليهود والنصارى . أو على أُمتك يا محمد .

نبأ ابني آدم : خَبَرَهما .

قربانا : القربان: ما يُتَقَرَّب به إلى الله من ذبيحة أو صدقة أو نحوهما .

بسطت : مَدَدْت .

تبوء : ترجع .

بإثمى وإثمك : بذنبى وذنبك .

التفسير:

٢٧- وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ ءَادَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ ...

– الضمير فى عَلَيْهِمْ. يعود على بنى إسرائيل أو على جميع الذين أرسل الرسول ﷺ لهدايتهم.

- والقربان: اسم لما يتقرب به إلى الله تعالى من صدقة أو غيرها، ويطلق فى أكثر الأحوال على الذبائح التى يتقرب إلى الله تعالى بذبحها .

وخلاصة ما ذكرته كتب التفسير (٦٨) .

أن حواء أم البشرية كانت تلد فى كل بطن ذكرا وأنثى، وكان آدم عليه السلام يزوج ذكر بطن لأنثى بطن آخر ولا يحل للذكر زواج توأمته .

فولد مع قابيل أخت جميلة وولد مع هابيل أخت دون ذلك؛ فأبى قابيل إلا أن يتزوج توأمته لا توأمة هابيل، وأن يخالف سنة النكاح، وقال: أنا أحق بتوأمى من هابيل ولم يكترث بزجر أبيه إياه، فدعاهما آدم أن يقربا قربانا إلى الله، وذكر لهما أن من قبل الله قربانه فهو صاحب الحق فى التزوج بالأخت الجميلة .

فقدم قابيل زرعًا - وكان صاحب زرع - وقدم هابيل كبشا - وكان صاحب غنم فتقبل من أحدهما وهو هابيل، ولم يتقبل من الآخر وهو قابيل، وكانت علامة التقبل أن تأكل نار نازلة من السماء القربان المتقبل وتترك غير المتقبل (٦٩) .

وتأكد بذلك حق هابيل فى الزواج من توأم قابيل؛ فحقد قابيل على هابيل وقتله، وكان ذلك أول قتيل يقتل على ظهر الأرض .

معنى الآية:

واتل - يا محمد - على اليهود أو على أمتك وعلى الناس جميعا خبر ابنى آدم: قابيل وهابيل بالحق والصدق حين قدّم كل منهما إلى الله قربانا، ولم يكونا على درجة واحدة من الإخلاص فيما تقربا به، فتقبل الله قربان المخلص، ولم يتقبل قربان غيره؛ فامتلأ قلبه غيظا وحسدًا على أخيه التقى الذى قبل قربانه، مع أنه لا ذنب للتقى فى رفض الله قربان الشقى؛ لأن المذنب هو الشقى بعدم إخلاصه لله تعالى . ثم حكى سبحانه ما دار بين الأخوين:

قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أى: قال الشقى لأخيه التقى: والله لأقتلنك بسبب قبول قربانك . وقد أكد الشقى كلامه بلام القسم ونون التوكيد. **قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** . أى: قال التقىّ لأخيه: إنه لا ذنب لى فى قبول القربان، وإنما الذنب ذنبك فى عدم إخلاصك وعدم تقواك وهذا هو السبب فى رفض قربانك وقبول قربانى .

قال الزمخشرى: فإن قلت كيف كان قوله: إنما يتقبل الله من المتقين جوابا لقوله: **لَأَقْتُلَنَّكَ** . قلت: لما كان الحسد لأخيه على تقبل قربانه هو الذى حمله على نوعده بالقتل، قال له: إنما أتيت من قبل

نفسك لانسلاخها من لباس التقوى، لا من قبلى، فلم تقتلنى؟ ومالك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التى هى السبب فى القبول ؟ فأجابه بكلام حكيم مختصر جامع لمعان، وفيه دليل على أن الله تعالى – لا يقبل طاعة إلا من مؤمن متق .

٢٨– لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ .

أى: تالله لئن مددت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك؛ لأننى أخاف عقوبة الله ربّ العالمين إن أنا قتلتك، والآية الكريمة تصوّر ما بين الأخيار والأشرار من تضادّ، فقابيل مصمم على قتل أخيه، وهابيل مصمم على عدم العدوان؛ خوفا من الله منشئ الكون وصاحب النعم وهو سبحانه حرّم قتل النفس، لقد كان هابيل حكيما فى تحرك كل معانى الخير فى نفس قابيل وتذكيره بأن القاتل لا يخاف الله، ولا يمتثل أمره .

جاء فى تفسير الآلوسى:

قيل: كان هابيل أقوى من قابيل، ولكنه تحرّج عن قتله واستسلم له؛ خوفا من الله تعالى؛ لأن المدافعة لم تكن جائزة فى ذلك الوقت، وفى تلك الشريعة. أو تحريا لما هو الأفضل، والأكثر ثوابا وهو كونه مقتولا لا قاتلا .

٢٩– إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاؤُاْ الظَّالِمِينَ.

هابيل بهذه الآية يتوّج نصائحه السابقة فقد نصحه ولوّن فى عرض نصائحه على النحو الآتى:

أولاً: أرشده إلى أن الله تعالى يتقبل الأعمال من المتقين لله الممتثلين لأمره.

ثانيا: أرشده إلى حقوق الأخوة وما تقتضيه من مودة وتسامح .

ثالثا: بين له أنه لا يمنعه من بسط يده إليه بالقتل إلا الخوف من الله رب العالمين .

رابعا: أرشده إلى أن ارتكابه لجريمة القتل سيؤدى به إلى عذاب النار يوم القيامة بسبب قتله لأخيه ظلما وحسداً .

ومعنى الآية:

إنى أريد باستسلامى لك، وعدم قتلك – ابتداء أو دفاعًا – أن ترجع بإثم قتلك لى، وإثمك الذى من أجله لم يتقبل قربانك، وإذا أصررت على قتلى، ولم تخف رب العالمين، فإنك ستكون بذلك من أصحاب النار الملازمين لها، وهذا عقاب الظالمين المعتدين .

وهو يريد بكل ذلك أن يوقظ ضميره، وأن يعلمه بالمصير المحزن الذى ينتظر القاتلين وأنه لا ينبغى لأخ أن يقاتل أخاه .

★ ★ ★

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

المفردات:

فطوعت : فسهلت ويسرت .

يبحث فى الأرض: أى: يحفر فى الأرض

سوءة أخيه : السوءة في الأصل: العورة. والمراد بها هنا: جسد أخيه الذى قتله .

ياويلتا : كلمة جزع وتحسر، والويلة والويل بمعنى: الهلكة. كأنه ينادى هلاكه ليحل به؛ لينقذه مما حل به من الدواهى .

من أجل ذلك : أى: بسبب ذلك .

بالبينات : بالحجج الواضحات

لمسرفون : لمجاوزون الحد فى الطغيان

التفسير :

٣٠- فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

أى: سهلت له نفسه العدوان والقتل. فقتل شقيقه ظلمًا عمدًا فأصبح من الخاسرين فى الدنيا؛ لقتله الأخ الذى يجب أن يحميه ويدافع عنه، وأصبح من الخاسرين فى الآخرة لارتكابه جريمة القتل وإزهاق الروح .

وفى الأثر : الإنسان بنيان الله ملعون من هدم بنيان الله .

والآية تصور صراع النفس أمام هذه الحادثة، فالحسد والعدوان يدعوانه إلى القتل، ولكن الضمير ودواعى الخير يحذرانه من القتل، بيد أن النفس الأمارة بالسوء يسرت له العدوان، وهونته عليه حتى اقترف جريمة القتل .

قال القرطبى:

قوله: فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ . أى: سوَّلت وسهلت نفسه له الأمر وشجعته وصورت له أن قتل أخيه طوع سهل، يقال: طاع أى: سهل وانقاد «وطوعه فلان له أى: سهله» [٧٠] .

فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ . لقد خسر الدنيا بقتل أخيه وشقيقه الذى هو رحم يجب أن يصلها، وخسر الآخرة؛ لأن القاتل عمدا يصلى جهنم يتلظى بعذابها .

قال الآلوسى: أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود رضى الله عنه .

قال: قال رسول الله ﷺ :

«لا تقتل نفس ظلما؛ إلا كان على ابن آدم الأول كِفل فى دمها؛ لأنه أوّل من سنّ القتل» [٧١]

وأخرج ابن جرير والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عمر – رضى الله عنه – قال: إنا لنجد ابن آدم القاتل، يقاسم أهل النار العذاب، عليه شطر عذابهم [٧٢].

٣١– فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ...

تحيَّر القاتل بعد أن ارتكب جريمته، ورأى جثة أخيه أمامه فى العراء، معرضة لنهش السباع والطيور، ولم يكن الدفن معروفا للبشرية قبل هذه الحادثة، التى راح ضحيتها – لأول مرة – إنسان كان مملوءًا حيوية ونشاطا، فأصبح جثة هامدة، يتسرب إليها العفن، ويسرع إليها النتن ويؤذى ريحها الأنوف .

فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ . أى: يحفر وينبش بمنقاره ورجليه متعمقا فى الأرض .

لِيُرِيَهُ . أى: ليعلم ذلك القاتل ويعرفه .

كَيْفَ يُوَارِى سَوْءَةَ أَخِيهِ . كيف يستر فى التراب جسم أخيه بعد أن فارقته الحياة .

قال القرطبى: قال مجاهد: بعث الله غرابين فاقتتلا حتى قتل أحدهما الآخر، ثم حفر فدفنه؛ فتعلم قابيل ذلك من الغراب، وكان ابن آدم هذا أول من قتل [٧٣] .

قَالَ يَاوَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي. أى: فنادى قابيل متحسرًا جزعا يا ويلتا، وكلمة: يا ويلتا: أصلها يا ويلتى، وهى كلمة جزع وتحسُّر تستعمل عند وقوع المصيبة العظيمة، كأن المتحسر ينادى ويلته ويطلب حضورها بعد تنزيلها منزلة من ينادى .

أى: قال القاتل لأخيه ظلما: يا فضيحتى، ويلتى أقبلى، فهذا وقتك؛ لأنى قد نزلت بى أسبابك.

والتفت قابيل للغراب قال:

أضعفت عن الحيلة التى تجعلنى مثل هذا الغراب، فأستر جسد أخى فى التراب كما دفن الغراب بمنقاره ورجليه فى الأرض ما أراد دفنه .

فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ . أى: ندم قابيل على قتل أخيه بعد ما رأى وعاش فى آثار جريمته، قال صاحب المنار: والندم الذى ندمه قابيل، هو ما يعرض لكل إنسان عقب ما يصدر من الخطإ فى فعل فعله، إذا ظهر له أنّ فعله كان شرًّا له لا خيرا، وقد يكون الندم توبة إذا كان سببه الخوف من الله، والتألم من تعدِّى حدوده، وهذا هو المراد بحديث «الندم توبة» [٧٤] .

وأما الندم الطبيعى الذى أشرنا إليه، فلا يعدّ وحده توبة [٧٥] .

٣٢- مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَاءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ... الآية

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ . أى: من أجل المذكور فى تضاعف قصة بنى آدم، أو من أجل فظاعة القتل ظلما وسوء آثاره فى الدنيا والآخرة قضينا وأوجبنا على بنى إسرائيل فى كتابهم أَنَّهُ أى: الحال والشأن مَن قَتَلَ نَفْسًا. واحدة من النفوس الإنسانية بِغَيْرِ نَفْسٍ. توجب القصاص . أو بغير فساد فى الأرض يوجب القصاص كالردة وزنى المحصن، وقيل: الفساد فى الأرض: قطع الطريق، وسفك الدماء، وهتك الحرم، ونهب الأموال، والبغى على عباد الله بغير حق، وهدم البنيان وتغوير الأنهار .

فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا. إذ النفس الواحدة تمثل النوع الإنسانى كله، فالجرأة على قتل نفس بغير حق عدوان على الجنس الآدمىّ كله، وعن مجاهد قال: المعنى: أن الذى يقتل النفس المؤمنة متعمدًا جعل الله جزاءه جهنم، وغضب عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما، فلو قتل الناس جميعا لم يزد على هذا .

وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا. أى: ومن أحيا نفسا ليس عليها قصاص ولا حدّ بأن أنقذها

من التهلكة أو الغرق أو الحرق أو الهدم، أو عفا عمن وجب قتله أو حال دونَ قتل نفس ظلما بالنصيحة أو القوة .

فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا. أى: وجب على الكل شكره، وقيل: كأنما أحيا الناس جميعا فى الأجر .

وفى هذه الآية الكريمة أسمى ألوان الترغيب فى صيانة الدماء وحفظ النفوس من العدوان عليها، حيث شبه سبحانه قتل النفس الواحدة بقتل الناس جميعا وإحياءها بإحياء الناس جميعا .

وبعض المفسرين يرى أن المراد بالنفس الواحدة، نفس الإمام العادل؛ لأن القتل فى هذه الحالة يؤدى إلى اضطراب أحوال الجماعة، وإشاعة الفتنة فيها .

قال القرطبى: روى عن ابن عباس أنه قال: من قتل نبيا أو إمام عدل فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياه بأن شد عضده ونصره فكأنما أحيا الناس جميعا [٧٦] . وجمهور المفسرين على عموم معنى الآية وشمولها لكل نفس إنسانية .

وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ. أى: ولقد جاءت رسلنا لبنى إسرائيل بالآيات البينات، والمعجزات الواضحات .

ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ. أى: بعد الذى كتبناه عليهم من شرائع، وبعد مجىء الرسل إليهم بالبينات. **فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ**. أى: مسرفون فى قتل الناس غير مبالين به، وفائدة ذكر **فِي الْأَرْضِ**. لتوضيح أن إسراف بنى إسرائيل فى القتل والمعاصى لم يكن فيما بينهم فحسب، بل انتشر شرُّه فى الأرض، ونحن إلى الآن نشاهد أصابع اليهود وراء أنواع القتل والاغتيال، وإثارة الفتن والحروب بين الناس.

ولا يزالون يسرفون فى القتل ويفسدون فى الأرض، ونسمع الآن ثورة أطفال الحجارة، وعدوان اليهود على العرب والمسلمين فى فلسطين مع إسراف فى القتل وعدوان على الأطفال الأبرياء.

وسيأتى فى الآية ٦٤ من سورة المائدة قوله تعالى: **كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** .

ملاحق بتفسير الآية

١- خص الله بنى إسرائيل بالذكر فى هذه الآية؛ لكثرة سفكهم للدماء، وقتلهم الأنبياء، ولأن الحسد كان منشأ جريمة القتل، والحسد غالب عليهم .

٢- قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف:

فإن قلت: كيف شبّه الواحد بالجميع، وجعل حكمه كحكمهم ؟ قلت: لأن كل إنسان يدلى بما يدلى به الآخر من الكرامة على الله، وثبوت الحرمة، فإذا قتل فقد أهين ما كرم على الله، وهتكت حرمته، وعلى العكس، فلا فرق إذًا بين الواحد والجميع فى ذلك .

★ ★ ★

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

المفردات:

يحاربون الله ورسوله : المحارب؛ من يحمل السلاح على الناس فى البر أو البحر أو الجو، دون إثارة منهم له. والمغتال كالمحارب. ويشمل القراصنة فى البر والبحر والجو، كقطاع الطرق ...

ويسعون فى الأرض فسادا: أى تمردا على ما شرعه الله من الأمن والطمأنينة للإنسانية كلها .

أو ينفوا من الأرض : المقصود بالأرض؛ الأرض التى يكتسبون فيها نفوذا حراما . ينفون منها إلى حيث لا نفوذ لهم، ولو سجناء. شَلاً للجريمة .

التفسير

٣٣- إِنَّمَا جَزَاؤُاْ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا ... الآية

لمَّا بين الله - قبل هذه الآية - أن قتل النفس الواحدة له خطورتُه عند الله تعالى، وأنه يعتبر - عنده - كقتل الناس جميعًا، أتبع ذلك هذه الآية الكريمة، التى تضمنت من التشريع، ما يردع المعتدى الأثيم، ويكفه عن ترويع الناس والإفساد فيما بينهم . فقال تعالى: إِنَّمَا جَزَاؤُاْ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِم وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ .

والآية نزلت فى قطاع الطريق: كما قاله كثير من المفسرين والفقهاء، وأصحاب الرأى .. نقل ذلك الطبرسى وغيره .

والمقصود من محاربتهم الله ورسوله: قطعهم الطريق على الناس، وإفسادهم فى الأرض وترويع الآمنين .

وجعل عملهم هذا حربا لله ورسوله ؛ إنما هو لتمردهم على ما شرعه الله سبحانه وتعالى، من وجوب الكف عن إيذاء الناس، وتوفير أسباب الأمن والسلام لهم .

المعنى: أفادت الآية، أن الذين يسعون فى الأرض فسادًا، بقطعهم الطريق على الناس؛ يسلبونهم أموالهم أو أعراضهم أو يقتلونهم، أو يقطعون أطرافهم - يعاقبون بتقتيلهم أو تصليبهم [٧٧] أو قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو نفيهم من الأرض .

وبيان ذلك فى مسائل:

١- أن وصف المحارب لله ولرسوله، يطلق على من حمل السلاح على الناس فى مدينة أو قرية، أو فى طريق أو صحراء، وكابرهم عن أنفسهم وأموالهم، دون إثارة منهم له، أو ثأر أو عداوة .

٢- أن المغتال كالمحارب، وهو أن يحتال فى قتل إنسان؛ ليأخذ ماله وإن لم يشهر السلاح . بأن دخل عليه بيته، أو صحبه فى سفر فأطعمه سُمًّا فقتله، فَيُقتَل حدًّا لا قَوَدًا أى: يقتل قصاصًا .

٣- اختلف العلماء فى حكم المحارب . فمنهم من قال : يعاقب بقدر ما فعل. فمن أخاف السبيل وأخذ المال؛ قُطِعَت يده ورجله من خلاف . وإن أخذ المال وقتل؛ قطعت يده ورجله ثم صُلِب وقتل. فإذا قَتَلَ ولم يَأْخُذِ المال؛ قُتِلَ. وإن لم يَأْخُذِ المالَ ولم يَقْتُل؛ نُفِى . وبهذا قال النخعى، وعطاء وغيرهم.

وقال أبو يوسف: إذا أَخَذَ المال وَقَتَلَ؛ صُلِبَ وقُتِلَ على الخشبة .

قال الليث: بالحربة : مصلوبًا .

وقال أبو حنيفة: إذا قَتَلَ؛ قُتِل. وإذا أخذ المال ولم يَقْتُل؛ قُطِعَتْ يَدُهُ ورجلُه من خلاف، وإذا أخذ المالَ وقَتَلَ؛ فالسلطان مخير فيه: إن شاء قطع يده ورجله، وإن شاء لم يقطع وقتله وصلبه .

وقال الشافعى: إذا أخذ المال؛ قطعت يده اليمنى، وحسمت[٧٨] ثم قُطِعتْ رِجْلُهُ اليسرى وحُسِمَت. وخُلِّى سبيلُه؛ لأن هذه الجناية زادت على السرقة بالحرابة .

وإذا قَتَلَ، قُتِل، وإذا أَخَذَ المالَ وقَتَل؛ قُتِلَ وصُلِبَ .

وروى عنه أنه قال: يُصَلَّبُ ثلاثَة أيام، وأنه يكره أن يُقْتَلَ مصلُوبًا، بل يصلبُ بعد القتل ؛ لنهى رسول الله ﷺ عن المُثْلَة . [٧٩] وبمثل قوله قال أحمد .

وقال أبو ثور: الإمام مخير على ظاهر الآية. وكذا قال مالك وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وعمر بن عبد العزيز، ومجاهد، والضحاك، والنخعى، كلهم قال:

الإمام مخير فى الحكم على المحاربين؛ يحكم عليهم بأى الأحكام التى أوجبها الله تعالى؛ من القتل والصلب، أو القطع، أو النفى؛ أخذًا بظاهر الآية .

وروى عن ابن عباس، أنه قال: إن كان فى القرآن «أَوْ» فصاحبه بالخيار. وهذا هو الأظهر، وهو ما نرجحه .

٤- النفى من الأرض: اختلف فى معناه :

فعن الشافعى: أنهم يُخْرَجون من بلد إلى بلد، ويطْلبون لتقام عليهم الحدود. وبه قال الليث ابن سعد، والزهرى.

وقال مالك: ينْفى من البلد الذى أحدث فيه الحرابة إلى غيره، ويحبس فيه كالزانى .

وقال الكوفيون: نفيهم: سجنهم ... فيُنْفَى من سعة الدنيا إلى ضيقها .

حكى مكحول عن عمر قال: أحبسه حتى أعلم منه التوبة . ولا أنفيه من بلد إلى بلد فيؤْذيَهُم .

قال القرطبى: والظاهر أن الأرض فى الآية هى أرض النازلة – أى: مكان الجريمة – ثم قال:

ينبغى للإمام – إذا كان هذا المحارب مخوف الجانب؛ يظن أن يعود إلى حرابة، أو إفساد – أن يسجنه فى البلد الذى يغرب إليه . وإن كان غير مخوف الجانب؛ سرِّح .

قال ابن عطية: وهذا صريح مذهب مالك، أن يغرب ويسجن حيث يغرب . وهذا على الأغلب فى أنه مخوف. ورجحه الطبرى ؛ لأن نفيه من أرض النازلة هو نص الآية، وسجنه بعد، بحسب الخوف منه .

فإن تاب وفهمت توبته؛ سرِّح .

٥- لا يراعى فى المال الذى يأخذه المحارب نصاب، كما يراعى فى السارق . وقيل: يراعى أن يكون ربع دينار. وهو نصاب القطع .

قال ابن العربى: قال الشافعى، وأصحاب الرأى: لا يقطع من قطاع الطريق، إلا مَنْ أخذ قدر ما تقْطع فيه يدُ السارق .

وقال مالك: يُحْكَم عليه بحكم المحارب . وهو الصحيح؛ لأن الله تعالى – وقّت على لسان نبيه القطع في السرقة، في ربع دينار . ولم يوقت في الحرابة شيئًا، بل ذكر جزاءَ المحارب، فاقتضى ذلك توفية الجزاءِ – على المحاربة – عن حقه .

ثم إن هذا قياس أصل على أصل. وهو مختلفٌ فيه . وقياس أدنى على أعلى. وذلك عكس القياس وكيف يقاس المحارب على السارق . وهو يطلب خطف المال، فإن شعر به فر، حتى إن السارق إذا دخل بالسلاح يطلب المال، فإن منع منه، أو صيح عليه وحارب عليه، فهو محارب؛ يُحْكَم عليه بحكم المحارب.

قال القاضي ابن العربي: كنت في أيام حكمي بين الناس: إذا جاءني أحد بسارق – وقد دخل الدار بسكين يحبسه على قلب صاحب الدار وهو نائم، وأصحابه يأخذون مال الرجل – حكمت فيهم بحكم المحاربين .. فافهموا هذا من أصل الدين، وارتفعوا إلى يفاع العلم عن حضيض الجاهلين . ا هـ

نقول: وهذا ما يسميه علماء القانون: «سرقة بالإكراه» .

وفي المسألة أحكام عظيمة، وتفاصيل نفيسة ينبغي لأهل القضاءِ أن يعرفوها؛ ليطبقوها على الذين يعيثون في الليل والنهار فسادا .

فليتعرفها هؤلاءِ القضاة من مظانها في كتب التفسير المطولة . المعنية بأحكام القرآن، وفي كتب الفقه .

ولينفذوها في أولئك المحاربين لله ورسوله؛ قطعًا لدابرهم .

ثم ختم الله الآية بقوله :

ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . أي: ذلك الذي مرّ من جزاء المحاربين، خزيٌ وذل وفضيحة لهم في الدنيا .. ولهم في الآخرة عذاب عظيم .

وإنما بولغ في جزاء قطاع الطريق؛ لأنهم يَسُدُّون سبيل الكسب والتجارة على الناس، ويُلْزمونهم البيوت، ويقطعون الأرزاق عن عباد الله، ويروِّعونهم في مأمنهم، فلذا شُرِعَ لهم أَشدُّ العقاب، قطعًا لدابرهم.

٣٤– **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** .

أفادت هذه الآية: أن توبة المحاربين – بعد القدرة عليهم – لا تنفعهم، بل لا بد من أن تقام عليهم الحدود التي وجبت في الآية السابقة.

أما إن تابوا قبل القدرة عليهم وإمساكهم؛ فإن حق الله يسقط عنهم، بقوله تعالى: فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

أما حقوق الآدميين من قصاص وغيره، فلا تَسْقُطُ بالتوبة، فإن شاءوا عَفَوْا، وإن شاءوا استوفَوْا منهم حقوقهم، قصاصا عادلاً .

★ ★ ★

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾

المفردات:

وابتغوا : واطلبوا .

الوسيلة : هى ما يتوسل به، ويتقرب إلى الله من فعل الطاعات، وترك المعاصى .

التفسير

٣٥- يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ... الآية

أى: راقبوا الله تعالى فى أقوالكم وأعمالكم وتقربوا إليه بالعمل الصالح، «والوسيلة: هى القربة، وهى فعيلة من توسلت إليها أى: تقربت، قال عنترة:

إن الرجال لهم إليك وسيلة ... أن يأخذوك تكحلى وتخضبى

والجمع: الوسائل، قال الشاعر:

إذا غفل الواشون عُدنا لوصلنا ... وعاد التصافى بيننا والوسائل[٨٠]

والوسيلة، هى درجة فى الجنة وهى التى جاء الحديث الصحيح بها فى قوله ﷺ :

«من قال حين يسمع النداء – أى: الأذان – : اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدًا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودًا الذى وعدته؛ حلّت له شفاعتى يوم القيامة»[٨١]

والآية أرشدت المسلمين إلى الأمور الآتية:

١- تقوى الله وطاعته والتزام أوامره واجتناب نواهيه.

٢- التقرب إليه بما يرضيه .

٣- الجهاد في سبيله .

ثم رتبت على ذلك الفلاح والفوز والنجاح، حيث قال سبحانه وتعالى:

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

وقد أطال الآلوسى فى تفسير هذه الآية الكريمة، وكتب قرابة خمس صفحات، يوضح فيها أن الوسيلة ليست الاستغاثة بالصالحين وجعلهم وسيلة بين الله تعالى وبين العباد .

فطلب الدعاء من الأحياء جائز، والتوسل بهم إلى الله تعالى جائز، فقد صح أن النبى ﷺ، قال لعمر بن الخطاب. «لا تنسنا يا أخى من دعائك» (٨٢)

ونقل الآلوسى كلاما طويلا خلاصته أن التوسل لا يكون إلا بالأحياء، ولم يرد عن أحد من الصحابة أنه طلب من ميت شيئًا، ففى صحيح البخارى عن أنس أن عمر رضى الله عنه - كان إذا أقحطوا؛ استسقى بالعباس رضى الله عنه فقال:

«اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك - ﷺ - فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعمّ نبيك فاسقنا؛ فيسقون». (٨٣)

وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. أى: وجاهدوا أنفسكم بكفها عن الأهواء، وكذلك جاهدوا أعداءكم؛ حتى تكون كلمة الله هى العليا، رجاء أن تفوزوا بالفلاح والسعادة فى الدنيا والآخرة .

٣٦- إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

إن الذين كفروا لو أن لكل واحد منهم منفردا ما فى الأرض - جميعا - من أموالها وزروعها وكنوزها ونفائسها ومنافعها - وضعفه معه - وقدموا كل ذلك؛ ليخلصوا به أنفسهم من عذاب يوم القيامة، ما قبله الله منهم؛ لأن سنته قد اقتضت أن تكون نجاة الإنسان من العذاب يوم القيامة متوقفة على الإيمان والعمل الصالح فى الدنيا، ولهم عذاب أليم شديد الإيلام .

قال الفخر الرازى: والمقصود من هذا الكلام التمثيل للزوم العذاب لهم؛ فإنه لا سبيل لهم إلى الخلاص .

روى البخارى عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : يؤتى بالرجل من أهل النار فيقال له: يا ابن آدم، كيف وجدت مضجعك ؟ فيقول: شرّ مضجع، فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبًا أكنت تفتدى به؟ فيقول: نعم، فيقال له: قد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك : ألا تشرك بالله شيئا، فيؤمر به إلى النار» [٨٤] .

٣٧- يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ . أى: يتمنَّى الكفار أن يخرجوا من النار - بعد أن اصطلوا بسعيرها - وذاقوا عذابها وآلامها، وما هم بخارجين منها، بل يبقون فيها ولهم عذاب دائم لا ينتهى أبدًا ..

«وهذه الآية خاصة بالكافرين كما يفيده نصّها، أما المسلمون المذنبون، الذين أدخلوا النار بسبب معاصيهم فإنهم يخرجون من النار ويدخلون الجنة» [٨٥] .

وجاء فى تفسير القرطبى: قيل لجابر بن عبد الله: إنكم يا أصحاب محمد تقولون: إن قوما يخرجون من النار والله تعالى يقول: وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا. فقال جابر: إنكم تجعلون العام خاصا، والخاص عاما، إنما هذا فى الكفار خاصة، فقرأت الآيــة كلها من أولها إلى آخرها فإذا هى فى الكفار خاصة . [٨٦]

أخرج مسلم وابن المنذر وابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة» [٨٧].

★ ★ ★

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

المفردات:

نكالا من الله : أى: عقابًا من الله ، ينكل به السارق، أى: يردع عن معاودة السرقة، ويَحذر به هو وغيره من فعلها .

قال صاحب القاموس: النَّكال: ما نكلت به غيرك كائنًا ما كان .

وقال أيضًا: ونكَّل به تنكيلاً: صنع به صنيعًا يُحَذِّر غيره .

والله عزيز: أى: غالب، فلا يفوته المعتدون .

حكيم: فى شرع هذا الحد؛ لما فيه من الردع .

التفسير

٣٨- وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

بعد أن بين حكم قاطع الطريق، تكلم عن عقوبة السارق والسارقة، وفى سورة النور بدأ الله بالزانية فقال تعالى:

الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ . لأن الزنى من المرأة أفحش، ولأن الحبل يظهر منها، ولأن أسرتها تصيبها المعرَّة، ولأن شهوة الاستمتاع على النساء أغلب، وحب المال على الرجال أغلب، والرجل على السرقة أجرأ [٨٨] فناسب أن يبدأ فى السرقة بالرجل، وفى الزنى بالمرأة .

والسارق: هو الذى يأخذ مال غيره خفية من حرز مثله، ولا شبهة له فيه، دون طعن بسلاح أو تهديد به، فإن طعن بسلاح أو هدد به – وهو ما يُعرف الآن: بالسطو المسلّح – فحكمه حكم قاطع الطريق، الذى يسعى فى الأرض فسادًا .

ولا يعاقب السارق هذا العقاب إلا إذا كان بالغًا عاقلا، غير مالك للمسروق منه ولا ولاية له عليه؛ فلا تقطع يد صبى ولا مجنون، ولا يد سيد أخذ مال عبده، ولا يد عبد سرق مال سيده بإجماع الصحابة، ولا يقطع الوالدان بسرقة مال ولدهما؛ لقوله ﷺ: «أنت ومالك لأبيك » [٨٩] وقيل: تقطع يد الابن إذا سرق مال أبويه . والراجح أنه لا يقطع؛ لأن الابن ينبسط فى مال أبيه كالعادة .

وإذا استكمل هذه الشروط؛ فلا تقطع يده إلا إذا سرق ما قيمته ربع دينار .

روى الشيخان عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «تقطع يد السارق فى ربع دينار فصاعدًا»[٩٠].
وقال أبو حنيفة وصاحباه والثورى: لا تقطع يد السارق إلا فى عشرة دراهم كيلا، أو دينار ذهبا أو وزنا، ولا يقطع حتى يخرج بالمتاع من ملك الرجل، وحجتهم حديث ابن عباس قال: قُوّم المجنَ الذى قطع فيه النبى ﷺ بعشرة دراهم، ورواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: كان ثمن المجنَ يومئذ عشرة دراهم، أخرجهما الدارقطنى وغيره .

ومن العلماء من قال: لا تقطع اليد إلا فى خمسة دراهم، ومنهم من قال: لا تقطع اليد إلا فى أربعة دراهم، ومنهم من قال: لا تقطع اليد إلا فى ثلاثة دراهم، ومنهم من قال : تقطع اليد فى كل ما له قيمة على ظاهر الآية، وهو قول الخوارج .

قال القرطبي: وهذه أقوال متكافئة والصحيح منها ما قدمناه لك . ا هـ .

وإن التضخم، وتدنى قيمة النقود، تجعل رأى الحنفية أولى بالاعتبار .

روى ابن أبى شيبة والترمذى والحاكم فى المستدرك والبيهقى فى السنن عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن وجدتم للمسلم مخرجًا فخلّوا سبيله، فإن الإمام لأن يخطئ فى العفو خير من أن يخطئ فى العقوبة»(٩١) .

وعلى الحاكم أن يتثبت بعناية من واقعة السرقة، وظروفها ودواعيها، وأن يعدل عن القطع عند وجود شبهة .

وتقطع يد السارق اليمنى من الكوع عند المفصل الذى بين الساعد والكفّ. فإن سرق ثانيا؛ قطعت رجله اليسرى من مفصل الرجل .

فإن سرق ثالثا؛ قطعت يده اليسرى، فإن سرق رابعا؛ قطعت رجله اليمنى، فإن سرق بعد ذلك عُزِّر بما يراه الحاكم رادعا مانعًا، وروى عن أحمد أنه لا تقطع اليد اليسرى ولا الرجل اليمنى وهو قول أبى بكر وعمر وعلى وأبى حنيفة، وروى عنه أنها تقطع، وبه قال مالك والشافعى (٩٢) .

وقال عطاء: تقطع يده اليمنى خاصة ولا يعود عليه القطع، ذكره ابن العربى وقال: أما قول عطاء فإن الصحابة قالوا قبله خلافًا (٩٣).

وتثبت السرقة بالبينة والإقرار .

ملاحظة:

يرى بعض الفقهاء أنّ جاحد العارية تقطع يده كالسارق، وأكثر الفقهاء يرون أنه لا قطع عليه، لقوله ﷺ : «لا قطع على خائن»(٩٤).

أما من ذهب إلى أن جاحد العارية تقطع يده كالسارق فقد استدل بما رواه الشيخان عن عائشة قالت: كانت امرأة تستعير المتاع وتجحده، فأمر النبى ﷺ بقطع يدها، فأتى أهلها أسامة فكلموه فكلّم النبى ﷺ فقال ﷺ: «لا أراك تكلمنى فى حد من حدود الله تعالى، ثم قام النبىّ ﷺ خطيبا وقال: «إنما أهلك من كان قبلكم أنه إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه، والذى نفسى بيده لو كانت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها»(٩٥) .

قال: فقطع يدها.

وجاء فى البخارى أنها سرقت، وجاء فى مسلم أن المرأة المذكورة كانت تستعير المتاع وتجحده.

وقد توسع العلماء والفقهاء والمفسرون فى تفسير هذه الآية وخصوصا التفاسير التى عنيت بالأحكام الفقهية، ومثال ذلك أن القرطبى بين أن هذه الآية فيها سبع وعشرون مسألة كتبها فى ١٥ صفحة ومن نماذج تفسير القرطبى ما يأتى:

المسألة الثانية عشرة: قوله تعالى: **فَاقْطَعُواْ**. القطع معناه: الإبانة والإزالة، ولا يجب إلا بجمع أوصاف تعتبر فى السارق وفى الشىء المسروق، وفى الموضع المسروق منه وفى صفته .

١- فأمًا ما يعتبر فى السارق فأربعة أوصاف وهى: البلوغ، والعقل، وأن يكون غير مالك للمسروق منه، وألا يكون له عليه ولاية؛ فلا يقطع العبد إن سرق مال سيده، وكذلك السيد إن أخذ مال عبده لا قطع بحال، ولا قطع على صبى ولا مجنون .

٢- وأما ما يعتبر فى الشىء المسروق فثلاثة أوصاف :

(أ) النصاب .

(ب) أن يكون مما يتمول ويتملك ويحلّ بيعه .

(جـ) ألا يكون للسارق فيه ملك كمن سرق ما رهنه أو ما استأجره .

٣- وأما ما يعتبر فى الموضع المسروق منه فوصف واحد وهو الحرز لمثل ذلك الشىء المسروق.

وجملة القول فيه: أن كل شىء له مكان معروف فمكانه حرزه، وكل شىء معه حافظ فحافظه حرزه، فالدور والمنازل والحوانيت حرز لما فيها، غاب عنها أهلها أو حضروا .

والقبر والمسجد حرز لما فيهما، والخزانة فى مكاتب الناس - أو الحكومة - حرز لما فيها، وظهور الدواب حرز لما تحمل [٩٦] .

فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا. والخطاب هنا لولاة الأمر الذين يرجع إليهم تنفيذ الأحكام والحدود . وجمع سبحانه اليد فقال: **أَيْدِيَهُمَا**. ولم يقل: يديهما بالتثنية؛ لأن فصحاء العرب يستثقلون إضافة المثنى إلى ضمير التثنية.

قال القرطبى:

قوله تعالى: **جزاءً بِمَا كَسَبَا**. مفعول من أجله، وإن شئت كان مصدرًا، وكذا : **نَكَالاً مِّن اللَّه** . ا هـ وفيه بيان لسبب هذه العقوبة وللحكمة التى من أجلها شرعت .

أى: اقطعوا أيديهما جزاءً لهما بسبب فعلهما الخبيث، وكسبهما السيئ وخيانتهما القبيحة، ولكى يكون هذا القطع لأيديهما نَكَالاً. أى: عبرة وزجرًا – من الله تعالى – لغيرهما؛ حتى يكف الناس عن ارتكاب هذه الجريمة .

يقال: نكَّل فلان بفلان تنكيلا، أى: صنع به صنيعا يحذِّر غيره .

وسميت هذه العقوبة نكالا؛ لأنها تجعل غير من نزلت به يخاف من ارتكابها؛ حتى لا ينزل به ما نزل بمرتكبها من قطع ليده، وفضيحة لأمره، وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. وَالله غَالب على أمره، حكيم فى شرائعه وتكاليفه .

قال الأصمعى: قرأت هذه الآية، وإلى جنبى أعرابى فقلت: والله غفور رحيم، سهوًا؛ فقال الأعرابىّ: كلام من هذا؟ قلت: كلام الله، قال: أعدْ؛ فأعدت: والله غفور رحيم، فقال: ليس هذا كلام الله؛ فتنبهت فقلت: وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. فقال: أصبت هذا كلام الله، فقلت له : أتقرأ القرآن؟ قال: لا، قلت: فمن أين علمت أنى أخطأت؟ فقال: يا هذا عَزِيزٌ حَكِيمٌ. فأمر بالقطع، فلو غفر ورحم لما أمر بالقطع[٩٧] فقد فهم الأعرابى أن مقتضى العزة والحكمة، غير مقتضى المغفرة والرحمة، وأن الله تعالى – يضع كلَّ اسم موضعه فى كتابه .

٣٩– فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . سبب نزولها: أن امرأة كانت قد سرقت فقالت: يا رسول الله، هل لى من توبة فنزلت هذه الآية [٩٨] .

قال ابن كثير : أى: من تاب بعد سرقته وأناب إلى الله فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه، فأمَّا أموال الناس فلابدّ من ردها إليهم أو ردّ بدلها، وهذا عند الجمهور .

فإن كانت توبته قبل أن يرفع أمره إلى القضاء فلا قطع، كما قال عطاء وجماعة من الفقهاء استنادًا إلى قوله تعالى: إِلاَّ ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . (المائدة: ٣٤).

فإنه وإن نزل فى قطّاع الطريق فحكمه عام فى جميع الحدود عند هؤلاء العلماء، وإن كانت توبته بعد أن رفع أمره للقضاء، أقيم عليه الحدّ فلا يسقط الحد بالتوبة، بل تنفَّذ العقوبة بالنسبة لأحكام الدنيا، ويقبل الله التوبة رجاء القبول فى الآخرة .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو أن امرأة سرقت على عهد رسول الله ﷺ – فجاء بها الذين سرقتهم فقالوا: يا رسول الله، إن هذه المرأة سرقتنا، قال قومها: فنحن نفديها، فقال رسول الله

ﷺ «اقطعوا يدها» فقطعت اليمنى، فقالت المرأة: هل لى من توبة يا رسول الله ؟ قال نعم، أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك، فأنزل الله تعالى: فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ [٩٩]

وروى ابن ماجه عن ثعلبة الأنصارى: أن عمر بن سمرة جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى سرقت جملا لبنى فلان فطهرنى، فأرسل إليهم النبى ﷺ، فقالوا: إنا افتقدنا جملاً لنا، «فأمر به فقطعت يده وهو يقول: الحمد لله الذى طهرنى منك، أردت أن تدخلى جسدى النار» [١٠٠]

٤٠ - أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

هذه الآية مسوقة لبيان حق الله فى أن يشرع لعباده ما تقدم من عقاب قاطع الطريق والسارق والعفو عن التائب منهما .

والمعنى: ألم تعلم أن الله له السلطان الكامل على السماوات والأرض وما فيهما، ومن كان كذلك؛ فإن له كامل الحق فى أن يعذِّب من شاء من المعتدين، وأن يغفر لمن شاء من التائبين .

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير. فهو سبحانه عظيم القدرة، فلا يمنعه عن تشريعه الحكيم مانع، ولا يدفعه عن جزائه لهم فى الدنيا والآخرة دافع .

★ ★ ★

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) ﴾

المفردات:

يسارعون فى الكفر : يجدُّون فيه .

ومن الذين هادوا : أى: من اليهود .

يحرفون الكلم من بعد مواضعه : يسيئون تأويله .

فــــتــــنــــه : إخلاله لسوء اختياره .

خــــــــزى : هوان ومذلة .

التفسير:

٤١ - يَٰأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ....

وردت عدة أسباب لنزول هذه الآية نجدها فى تفسير ابن كثير والقرطبى وغيرهما .

قيل: إنها نزلت فى المنافقين .

وقيل: إنها نزلت فى ابن صوريا؛ آمن ثم كفر .

وأرجح الأقوال أنها نزلت فى اليهود عندما حرفوا حكم التوراة ، وكانت التوراة تنصّ على أن عقوبة الزاني المحصن هو الرجم بالحجارة حتى يموت ، فلما كثر الزني فى أشراف اليهود؛ بدَّلوا حكم الرجم إلى الجلد وتسويد الوجه .

ثم تحاكموا إلى رسول الله ﷺ بشأن رجل وامرأة قد زنيا من اليهود ، ورغبوا أن يحكم بغير الرجم.

فسألهم عن حكم الله فى التوراة فقالوا: الجلد فناشدهم الله أن ينطقوا بالحق ، فقالوا: إنه الرجم؛ فقال ﷺ «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه» .

ثم أمر أن يرجم الزانيان فرجما .

وقد ورد هذا المعنى فى صحيح البخارى ومسلم [١٠١] .

يَٰأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ .... أراد الله سبحانه وتعالى أن يُسلِّى رسوله الكريم ويواسيه؛ حتى لا يحزن بما يفعله المنافقون واليهود وغيرهم .

فناداه الله تعالى بوصف الرسالة؛ تشريفا له وتكريما ، وحثه على السلوى والصبر وعدم الحزن من هؤلاء المعاندين . .

«والنهى عن الحزن وهو أمر نفسى لا اختيار للإنسان فيه ، والمراد به هنا: النهى عن لوازمه كالإكثار من محاولة تجديد شأن المصائب، وتعظيم أمرها ، وبذلك تتجدد الآلام وتعز السلوى» [١٠٢]

يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ. أى: يذهبون إليه بسرعة من غير مواناة ولا تدبر ولا تفكر ، فهم ينتقلون بحركات سريعة فى ثنايا الكفر ومداخله ، دون أن يزعهم وازع من خلق أو دين .

قال أبو السعود: والمسارعة فى الشىء: الوقوع فيه بسرعة ورغبة . وإيثار كلمة فِى. على كلمة (إلى) للإيماء إلى أنهم مستقرون فى الكفر لا يبرحونه، وإنما ينتقلون بالمسارعة عن بعض فنونه وأحكامه إلى بعض آخر منها ، كإظهار موالاة المشركين، وإبراز آثار الكثير للإسلام ونحو ذلك .

مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ . وهم المنافقون، وَمِنَ الَّذِينَ هَادُواْ . يعنى: اليهود أى: أن المسارعين فى الكفر فريقان: فريق المنافقين الَّذِينَ قَالُواْ ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ، وفريق اليهود سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ. هذا الوصف يعود إلى الفريقين، أو إلى اليهود خاصة ، أى: الذين يسارعون فى الكفر هم سماعون للكذب أى: كثيرو السماع للكذب من أحبارهم ورؤسائهم، واللام فى قوله: لِلْكَذِبِ للتقوية أى: أنهم يسمعون الكذب كثيرا سماع قبول وتلذذ، ويأخذونه ممن يقوله – من أعداء الإسلام – على أنه حقائق ثابتة لا مجال للريب فيها .

سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ. أى: لم يحضروا مجلسك، وهم طائفة من اليهود ، كانوا لا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ؛ تكبرا وتمردًا ، ولكن يوجّهون إليه بعض أتباعهم؛ ليحضروا مجلسه وينقلوا إليهم كلامه .

يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ . من جملة صفات القوم المذكورين، أى: أنهم يميلون بالتوراة ويحرفون الكلام الوارد فيها ويؤولونه على غير تأويله من حيث لفظه أو من حيث معناه ، ولعل المراد: أنّهم حرفوا التوراة ومما حرفوه: الرجم على الزاني والزانية ، جعلوا بدله تسويد الوجه .

يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ ... أى: يقولون لأتباعهم السماعين لهم: إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ . أى: إن أفتاكم محمد بما تريدون – وهو الجلد – فخذوه واعملوا بموجبه.

جاء فى زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى:

«وذلك أن رجلا وامرأة من أشراف اليهود زنيا، فكرهت اليهود رجمهما ، فبعثوا إلى النبى ﷺ، يسألونه عن قضائه فى الزانيين إذا أحصنا ، وقالوا: إن أفتاكم بالجلد فخذوه ، وإن أفتاكم بالرجم فلا تعملوا به» (١٠٣)

وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ . أى: وإن أفتاكم محمد بغير ما أفتيناكم به فاحذروه قبول حكمه، وإياكم أن تستجيبوا له أو تميلوا إلى ما قاله لكم .

وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا . ومن يقض الله بكفره وضلالته؛ فلن تستطيع – أيها الرسول الكريم – دفعه عن الضلالة؛ لأنك لا تملك له من الله شيئًا فى دفع الفتنة عنه .

فقد اقتضت حكمته أنه يمنح هدايته وتوفيقه وعونه ، لمن سار فى طريق الهدى وآثر الحق ورغب فى السير على الطريق القويم؛ أما من أعرض عن الهدى وتنكب الجادة ، فإن الله تعالى يسلب هداه وتوفيقه عنه ويتركه مفتونا متنكبا طريق الجادة .

قال تعالى: وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى . (طه: ١٢٤ - ١٢٦)

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ . أى: هؤلاء المذكورون - من المنافقين واليهود - هم الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم من دنس الكفر والضلالة، بطهارة الإيمان والإسلام؛ لأنهم منهمكون فى الضلالة ، مصرُّون عليها ، معرضون عن طريق الهداية والرشاد .

لَهُمْ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ. أما خزى المنافقين: فبهتك سترهم، وإطلاع النبىّ على كفرهم ، وخزى اليهود: بفضيحتهم فى إظهار كذبهم؛ إذ كتموا الرجم، وبأخذ الجزية منهم .

قال مقاتل: وخزى قريظة بقتلهم وسبيهم ، وخزى النضير بإجلائهم ، وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ؛ بدخولهم النار ، والخلود فيها .

★ ★ ★

﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

المفردات:

أكالون : كثيروا الأكل .

للسحت : السحت؛ الحرام. كالربا ونحوه .

بالقسط : بالعدل .

التفسير:

٤٢- سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ .... إن هؤلاء المنافقين واليهود من صفاتهم - أيضا - أنهم كثيرو السماع للكذب ، وكثيرو الأكل للمال الحرام بجميع صوره وألوانه ، ومن كان هذا شأنه فلا تنتظر منه خيرًا ولا تؤمل فيه رشدا .

وجاءت هاتان الصفتان – سماعون وأكالون – بصيغة المبالغة ، للإيذان بأنهم محبون حبا جما لما يأباه الدين والخلق الكريم ، فهم يستمرئون سماع الباطل من القول ، كما يستمرئون أكل أموال الناس بالباطل .

قال ابن الجوزى:

وفى المراد بالسحت ثلاثة أقوال:

أحدها: الرشوة فى الحكم .

والثانى: الرشوة فى الدين .

والثالث: أنه كل كسب لا يحل .

فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ . أى: فإن جاءك اليهود متحاكمين إليك، فأنت بالخيار بين أن تحكم بينهم. لأنهم اتخذوك حكما، أو تعرض عنهم؛ لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق.

قال الشوكاني في فتح القدير:

وقد أجمع العلماء على أنه يجب على حكام المسلمين أن يحكموا بين المسلم والذمِّى إذا ترافعا إليهم، واختلفوا فى أهل الذمة إذا ترافعوا فيما بينهم، فقيل: يجب الحكم بينهم ، وقيل: هو جائز وله أن يردَّهم، ولا يحكم بينهم بشىء .

وَإِن تُعرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا. أى: وإن اخترت الإعراض عن الحكم بينهم فلن يقدروا على الإضرار بك؛ لأن الله عاصمك من الناس .

وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ . أى: وإن اخترت الحكم بينهم، فالواجب أن يكون الحكم بينهم بالعدل، الذى أمرك الله به وأنزله عليك .

قال تعالى: إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ . (النساء: ٥٨)

وقال سبحانه: وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ. (المائدة: ٤٩)

وقريب منه قوله تعالى: يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ . (ص: ٢٦)

إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ : وهو ختام للآية مقرر لما قبله من وجوب الحكم بالعدل إذا ما اختار أن يقضى بينهم .

يقال: أقسط الحاكم فى حكمه؛ إذا عدل وقضى بالحق فهو مقسط أى: عادل، ومنه: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ.

روى مسلم فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «إن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولُوا» (١٠٤)

فى أعقاب الآية :

١ – ذهب فريق من العلماء إلى أن هذه الآية منسوخة وأن النبى ﷺ كان مخيرا بين الحكم بين اليهود أو الإعراض عنهم ثم نسخ ذلك بقوله تعالى :

وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّه. والراجح أن الآية غير منسوخة، وأن التخيير لا يزال قائما، أما قوله تعالى: وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّه. فهو بيان لكيفية الحكم عند اختياره له .

★ ★ ★

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

التفسير:

٤٣ – وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ .... الآية. أى: أن أمر هؤلاء اليهود لمن أعجب العجب؛ لأنهم يحكِّمونك يا محمد فى قضاياهم مع أنهم لم يتبعوا شريعتك، ومع أن كتابهم التوراة قد ذكر حكم الله صريحا واضحا فيما يحكمونك فيه، فالاستفهام فى قوله: وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ. للتعجب من أحوالهم حيث حكَّموا من لا يؤمنون به فى قضية حكمها بين أيديهم ظنا منهم أنه سيحكم بينهم بما اتفقوا عليه مما يرضى أهواءهم وشهواتهم .

ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ . أى: ثم يعرضون من بعد حكمك الموافق لما فى كتابهم .

وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ . تذييل مقرر لمضمون ما قبله، فهم غير مؤمنين بالتوراة؛ لتحريفهم بعض أحكامها. وغير مؤمنين بك؛ لإعراضهم عن حكمك الموافق لما فى التوراة .

★ ★ ★

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

المفردات:

والربانيون: جمع رباني؛ وهو المنسوب إلى الرب. والمراد: الزهّاد والعُبّاد.

والأحبار: جمع حبر؛ وهو: العالم، أو رؤساءُ العلماءِ عند اليهود.

استحفظوا: كلفوا من الله بالمحافظة عليه.

شهداء: أي: رقباء يحمونه من التغيير والتبديل.

التفسير:

٤٤ - إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَ هُدًى وَنُورٌ ... الآية

هذا كلام مستأنف لبيان علو شأن التوراة فهو سبحانه الذى أنزلها من عنده لتكون مصدر هداية للناس إلى سبيل الله مشتملة على الأحكام والتكاليف والشرائع.

ومشتملة على النور من بيان للعقائد السليمة والمواعظ الحكيمة والأخلاق القويمة.

قال الدكتور محمد سيد طنطاوى :

والمعنى: إنا أنزلنا التوراة على نبينا موسى مشتملة على ما يهدى الناس إلى الحق من أحكام وتكاليف وعلى ما يضىء لهم حياتهم من عقائد ومواعظ وأخلاق فاضلة.

يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ ..

النَّبِيُّونَ. هنا هم أنبياء بنى إسرائيل من بعد موسى.

الَّذِينَ أَسْلَمُواْ. صفة للنبيين أى: أخلصوا وجوههم لله

قال الشوكانى: وفيه إرغام لليهود بأن أنبياءهم كانوا يدينون بدين الإسلام، الذى دان به محمد ﷺ، فلا يقال لنبى من الأنبياء: إنه يهودى أو نصرانى، بل كانوا جميعا مسلمين.

لِلَّذِينَ هَادُواْ . أى: رجعوا عن الكفر، والمراد بهم اليهود .

وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاءَ

الرَّبَّانِيُّونَ. العلماء الحكماء

الأَحْبَارُ. العلماء

وقال مجاهد: الرَّبَّانِيُّونَ: الفقهاء العلماء وهم فوق الأحبار، وقال ابن عباس: الرَّبَّانِيُّون: هم الذين يسوسون الناس بالعلم، ويربونهم بصغاره قبل كباره .

والحِبر والحَبر: الرجل العالم وهو مأخوذ من التحبير وهو التحسين، فهم يحبرون العلم أى: يبينونه ويزينونه، وهو محبَّر فى صدورهم (١٠٥)

بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللَّهِ . أى: أمرهم الأنبياء بحفظ التوراة عن التغيير والتبديل، والمحافظة على تطبيق أحكامها، وأن يكونوا رقباء على تنفيذ حدودها، وتطبيق أحكامها؛ حتى لا يهمل شىء منها .

والمعنى: إنا أنزلنا التوراة فيها هداية للناس إلى الحق، وضياء لهم من ظلمات الباطل، وهذه التوراة يحكم بها بين اليهود أنبياؤهم الذين أسلموا وجوههم لله، وأخلصوا له العبادة والطاعة، ويحكم بها أيضا الربانيون والأحبار الذين التزموا طريقة الأنبياء .

وكان هذا الحكم منهم بالتوراة بين اليهود، بسبب أنه تعالى حمَّلهم أمانة حفظ كتابه والقيام على تنفيذ أحكامه، وشرائعه وتعاليمه .

قال الفخر الرازى:

قوله تعالى: بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللَّهِ.

حفظ كتاب الله على وجهين .

الأول: أن يحفظ فلا ينسى .

الثانى : أن يحفظ فلا يضيّع، وقد أخذ الله على العلماء حفظ كتابه من هذين الوجهين:

أحدهما: أن يحفظوه فى صدورهم ويدرسوه بألسنتهم .

الثانى: ألا يضيعوا أحكامه ولا يهملوا شرائعه (١٠٦) .

فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ

الخشية: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك على علم بما يخشى منه، ولذلك خُصَّ العلماء بها فى قوله: إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. [١٠٧] (فاطر: ٢٨)

فالخشية خوف يشوبه تعظيم ومحبة للمخشى، بخلاف الخوف فهو أعم من أن يكون مرهوب معظم محبوب أو مرهوب مبغوض مذموم .

والمعنى: إذا كان شأن التوراة، أن تنفذ أحكامها وتعاليمها فلا تخافوا يا علماء اليهود، أحدًا من الناس كائنا من كان، وعليكم أن تطبقوا أحكام الله كما أنزلها الله وأن تجعلوا خشيتكم منّى وحدى، لا من أحد من الناس فأنا الذى بيدى نفع العباد وضرّهم .

وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً . أى: لا تتركوا الحكم بما أنزل الله؛ خوفا من أحد أو رغبة فى مصلحة أو رشوة.

قال الدكتور محمد سيد طنطاوى فى تفسير سورة المائدة .

والاشتراء هنا معناه: الاستبدال، والمراد بالآيات: ما اشتملت عليه التوراة من أحكام وتشريعات وبشارات بالنبى ﷺ .

والمراد بالثمن القليل: حظوظ الدنيا وشهواتها من نحو الرياسة والمال والجاه، وما إلى ذلك من متع الحياة الدنيا .

أى: ولا تستبدلوا بأحكام آياتى التى اشتملت عليها التوراة، أحكاما أخرى تغايرها وتخالفها لكى تأخذوا فى مقابل هذا الاستبدال ثمنا قليلا من حظوظ الدنيا .

وهذا الثمن لا يكون إلا قليلا – وإن بلغ ما بلغ من أعراض الدنيا – بالنسبة لطاعة الله والرجاء فى رحمته ورضاه .

وهذا النهى، وإن كان موجها إلى رؤساء اليهود وأحبارهم، إلا أنه يتناول الناس جميعا فى كل زمان وكل مكان؛ لأنه نهى عن رذائل يجب أن يبتعد عنها كل إنسان يتأتى له الخطاب . وإلى هذا المعنى أشار الآلوسى بقوله: فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً .. خطاب لرؤساء اليهود وعلمائهم بطريق الالتفات – إذ انتقل من الحديث عن الأحبار السابقين منهم إلى خطاب هؤلاء المعاصرين للنبىّ ﷺ – ويتناول غير أولئك المخاطبين بطريق الدلالة [١٠٨].

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ.

هذه الآية، وما يأتى من قوله تعالى: فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

وقوله تعالى: فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . نزلت كلها فى الكفار وعلى هذا رأى أكثر المفسرين .

فأما المسلم فلا يكفر وإن ارتكب كبيرة [١٠٩] .

صفحة من تفسير القرطبى

قال القرطبى [١١٠] قوله تعالى: وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ.

و **الظَّالِمُون** و **الْفَاسِقُون**. نزلت كلها فى الكفار؛ ثبت ذلك فى صحيح مسلم من حديث البراء، وقد تقدّم . وعلى هذا المعظم فأما المسلم فلا يكفر وإن ارتكب كبيرة . وقيل: فيه إضمار ؛ أى ومن لم يحكم بما أنزل الله ردّا للقرآن، وجحدا لقول الرسول عليه الصلاة والسلام فهو كافر ؛ قاله ابن عباس ومجاهد، فالآية عامة على هذا .

قال ابن مسعود والحسن: هى عامة فى كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار، أى: معتقدا ذلك ومستحلا له؛ فأمّا من فعل ذلك، وهو معتقد أنه راكب محرّم؛ فهو من فساق المسلمين، وأمره إلى الله تعالى إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له .

وقال ابن عباس فى رواية: ومن لم يحكم بما أنزل الله فقد فعل فعلا يضاهى أفعال الكفار. وقيل: أى: ومن لم يحكم بجميع ما أنزل الله؛ فهو كافر، فأما من حكم بالتوحيد ولم يحكم ببعض الشرائع؛ فلا يدخل فى هذه الآية، والصحيح الأول، إلا أن الشّعبى قال: هى فى اليهود خاصة، واختاره النحاس؛ قال: ويدل على ذلك ثلاثة أشياء منها: أن اليهود قد ذُكِروا قبل هذا فى قوله: **لِلَّذِينَ هَادُوا.** فعاد الضمير عليهم، ومنها أن سياق الكلام يدل على ذلك، ألا ترى أن بعده **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ**. فهذا الضمير لليهود بإجماع ؛ وأيضا فإن اليهود هم الذين أنكروا الرّجم والقصاص . فإن قال قائل: مَن إذا كانت للمجازاة فهى عامة إلا أن يقع دليل على تخصيصها ؟ قيل له: مَن. هنا بمعنى الذى مع ما ذكرناه من الأدلة ؛ والتقدير: واليهود الذين لم يحكموا بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون؛ فهذا من أحسن ما قيل فى هذا .

ويروى أن حُذَيفة سئل عن هذه الآيات أهى فى بنى إسرائيل؟ قال: نعم هى فيهم، ولتسلكُنَّ سبيلهم حذو النعل بالنعل. وقيل : **الْكَافِرُونَ**. للمسلمين، و**الظَّالِمُون** لليهود، و**الْفَاسِقُون**. للنصارى؛ وهذا اختيار أبى بكر بن العربى، قال: لأنه ظاهر الآيات، وهو اختيار ابن عباس وجابر بن زيد وابن أبى زائدة وابن شُبْرُمة والشعبى أيضا . قال طاوس وغيره : ليس بكفر ينقل عن الملة، ولكنه كفر دون كفر [١١١] .

★ ★ ★

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

المفردات:

قصاص: القصاص: عقاب الجاني بمثل ما جنى .

تصدق: أى: عفا عن الجانى .

كفارة له: محو لذنوبه وآثامه .

التفسير:

٤٥- وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ والأَنفَ بالأَنفِ والأُذُنَ بالأُذُنِ وَالسِّنَّ بالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ... الآية.

أى: وكتبنا على اليهود فى التوراة القصاص بقتل النفس بالنفس كبيرة أو صغيرة، ذكرًا أو أنثى، وشرع من قبلنا يلزم إذا لم ينسخ، **وَالْعَيْنَ بالْعَيْنِ.** أى: أن العين إذا فقئت، أو قلعت عمدًا ولم يبق فيها مجال للإدراك، فيجب أن تُفقأ عين الجاني أو تقلع بها، وقال القاضى أبو يعلى: ليس المراد قلع العين بالعين، لتعذر استيفاء المماثلة، لأنا لا نقف على الحدّ الذى يجب فيما ذهب ضوءها وهى قائمة، وصفة ذلك أن تشدّ عين القالع، وتحمى مرآة، فتقدم من العين التى فيها القصاص حتى يذهب ضوءها.

والأَنفَ بالأَنفِ . إذا جدع جميعه فإنه يجدع أنف الجاني به. **والأُذُنَ بالأُذُنِ .** أى: تقطع الأذن بالأذن، **وَالسِّنَّ بالسِّنِّ .** أى: وكذلك السنّ إذا قلعت أو كُسرت تؤخذ بها، لا فرق بين الثنايا، والأنياب، والأضراس، والرباعيات، وأنه يؤخذ بعضها ببعض، ولا فضل لبعضها على بعض، وينبغى أن يكون المأخوذ فى القصاص من الجاني هو المماثل للمأخوذ من المجنى عليه، كالأذن اليمنى مثلا دون اليسرى .

وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ . [١١٣] فيقتص من الجانى بجرح مثل ما جرح، إن كان لا يحدث من القصاص تلف النفس، ويعرف مقدار الجرح عمقا أو طولا أو عرضا، وقد قدّر أئمة الفقه أرش كل جراحة بمقادير معلومة.

جاء فى التفسير الوسيط:

ويتم القصاص إذا كانت المساواة ممكنة فإذا تعذرت المساواة كما إذا فقأ أعمى عين مبصرة، أو كان فيها خطر على حياة المقتص منه كما إذا فقأ أعور عين مبصر ففى ذلك دية الجراح [١١٣]

فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ . أى: فمن عفا عن القصاص من الجانى بقبول الدية، أو مع التنازل عنها **فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ**. أى: فهو كفارة للمتصدق يكفر الله بها عنه ذنوبه .

وعبر عن العفو والتصدق؛ للترغيب فيه، وإظهار جزيل ثوابه، والقصاص المذكور فى الآية، إنما يكون حال العدوان العمد، أما الخطأ أو شبهه ففيه الدية .

فى أعقاب الآية:

١- ختم الله تعالى الآية السابقة بقوله : **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُون**. وفى هذه الآية قال : **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** . والكفر أعظم من الظلم .

قال ابن كثير :

هذه الآية مما وبخت به اليهود وأيضا وقرّعت عليهم، فإن عندهم فى نص التوراة أن النفس بالنفس، وقد خالفوا حكم ذلك عمدًا وعنادًا فأقادوا النضرى من القرظى، ولم يقيدوا القرظى من النضرى، وعدلوا إلى الدية، كما خالفوا حكم التوراة فى رجم الزاني المحصن وعدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار، ولهذا قال هناك: **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُون**؛ لأنهم جحدوا حكم الله قصدًا منهم وعنادًا وعمدًا . وقال هنا: **فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** . فى تتمة الآية؛ لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم فى الأمر الذى أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه، فخالفوا وظلموا وتعدى بعضهم على بعض ... ا هـ .

٢- استدل جمهور الفقهاء بعموم هذه الآية على أن الرجل يقتل بالمرأة. وقد روى أنه ﷺ قتل مسلمًا بذمىٍّ[١١٤] وذهب بعض الفقهاء إلى أن الرجل لا يقتل بالمرأة، بل تجب عليه ديتها، وإلى أنه لا يقتل مؤمن بكافر، وأجاب العلماء بأن الآية عامة تفيد قتل النفس بالنفس وما روى فى الحديث لا يقتل مؤمن بكافر[١١٥] والمراد بما روى الحربى .

٣- قال تعالى: **يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُم الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَاتِّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ** (البقرة: ١٧٨) .

تذكر بعض الروايات أن هذه الآية منسوخة نسختها آية المائدة التى نزلت بعدها وجعلت النفس بالنفس إطلاقا .

وعند التحقيق نجد أن آية النفس بالنفس مجالها مجال الاعتداء الفردى من فرد معين على فرد معين، فيؤخذ الجانى ما دام القتل عمدًا .

فأما آية البقرة فمجالها مجال الاعتداء الجماعى حيث تعتدى أسرة على أسرة أو جماعة على جماعة فتصيب منها من الأحرار والعبيد والنساء فإذا أقيم ميزان القصاص؛ كان الحر من هذه بالحرّ من تلك والعبد من هذه بالعبد من تلك، والأنثى من هذه بالأنثى من تلك، وإلا فكيف يكون القصاص فى مثل تلك الحالة التى يشترك فيها جماعة فى الاعتداء على جماعة، وإذا صح هذا النظر، وعلمنا أن سبب نزول آية البقرة أن حيين من العرب اقتتلا فى الجاهلية قبل الإسلام بقليل فكان بينهما قتلى وجراحات فكان أحد الحيين يتطاول على الآخر فى العدة والأموال، فحلفوا ألا يرضوا حتى يُقتل بالعبد منا الحرّ منهم، وبالمرأة منا الرجل منهم فنزل الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ والأُنثَى بِالأُنثَى .

إذا أمعنا النظر فلن يكون هناك تعارض بين الآيتين . آية البقرة فى الاعتداء الجماعى، وآية المائدة فى الاعتداء الفردى[١١٦] .

٤- لم يكن لليهود إلاّ القصاص . ولم يكن للنصارى إلا العفو وخيرت الأمة الإسلامية بين القصاص، وقبول الدية والعفو، وقد رغب القرآن فى العفو وحث عليه قال تعالى: فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ. (الشورى: ٤٠) وقال سبحانه: والْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ والْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ . (آل عمران: ١٣٤) وروى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل يجرح فى جسده جراحة فيتصدق بها؛ إلاّ كفَّر الله عنه مثل ما تصدق به» [١١٧] ومن هذه الآية وغيرها نرى أن الإسلام قد جمع فيما شرع من عقوبات بين العدل والرحمة، فقد شرع القصاص؛ زجرًا للمعتدى، وإشعارًا له بأن سوط العقاب مسلط عليه إذا ما تجاوز حدّه، وجبرًا لخاطر المعتدى عليه، وتمكينا له من أخذ حقه ممن اعتدى عليه، ومع هذا التمكين التام للمجنى عليه من الجاني، فقد رغّب الإسلام المجنى عليه فى العفو والصفح حيث قال: فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ .

٥- قال ابن العربى: نصّ الله سبحانه وتعالى على أمهات الأعضاء وترك باقيها للقياس عليها فكل عضو فيه القصاص إذا أمكن ولم يخش عليه الموت، وكذلك كل عضو بطلت منفعته وبقيت صورته فلا قود فيه، وفيه الدية لعدم إمكان القود فيه .

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ. أى: أن هذا الظلم الصادر منهم ظلم عظيم بالغ إلى الغاية .

★ ★ ★

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

المفردات:

وقــفــيــنــا : أتبعنا .

مصدقا لما بين يديه : لما تقدَّمه .

التفسير:

٤٦- وَقَفَّيْنَا عَلَى ءَاثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ... وأتبعنا على آثار أولئك النبيين الذى أسلموا وجوههم لله، وأخلصوا له العبادة، والذين كانوا يحكمون بالتوراة كموسى وهارون وداود وسليمان وغيرهم- أتبعنا على آثارهم بعيسى بن مريم ناهجًا نهجهم فى الخضوع والطاعة والإخلاص لله رب العالمين.

وَءَاتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ. وأعطيناه الإنجيل مشتملا على الهداية إلى الحق والنور الذى يستضاء به فى إزالة الشبهات وحل المشكلات .

وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ . أى: ومؤيدا لها غير مخالف لما فيها إلاّ فى القليل كما قال تعالى على لسان المسيح لبنى إسرائيل: وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ . (آل عمران: ٥٠) ولهذا كان المشهور من قول العلماء أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة [١١٨] .

وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ . أى: وجعلنا الإنجيل الذى أنزله الله على عيسى هدى يهتدى به، وزاجرًا عن ارتكاب المحارم والمآثم لمن اتقى الله وخاف عقابه .

٤٧- وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ... الآية

أمر من الله تعالى لأهل الإنجيل من المسيحيين بأن ينفذوا الأحكام الواردة فى الإنجيل الذى أنزله الله على عيسى عليه السلام، وهذا الأمر ممتد إلى البعثة المحمدية؛ لأن البشارة وردت بمحمد فى الإنجيل .

فهم مأمورون بأن يعملوا بما فيه، ومن جملة ما فيه: دلائل رسالته ﷺ ووجوب اتباعه فيما يجىء به .

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ. أى: ومن لم يحكم بما أنزل الله فى الإنجيل، ولم يتبع ما ورد فيه من البشارة بمحمد ﷺ والإيمان برسالته، فأولئك هم المتمردون الخارجون عن حكمه .

جاء فى تفسير المنار [١١٩] .

وأنت إذا تأملت الآيات السابقة ظهر لك نكتة التعبير بالكفر فى الأولى وبوصف الظلم فى الثانية، وبوصف الفسوق فى الثالثة .

ففى الآية الأولى: كان الكلام فى التشريع وإنزال الكتاب مشتملاً على الهدى والنور والتزام الأنبياء وحكماء العلماء بالعمل والحكم به .. فكان من المناسب أن يختم الكلام ببيان أن كل معرض عن الحكم به لعدم الإذعان له مؤثرا لغيره عليه؛ يكون كافرًا به .

وأما الآية الثانية: فلم يكن الكلام فيها فى أصل الكتاب الذى هو ركن الإيمان بل فى عقاب المعتدين على الأنفس أو الأعضاء ... فمن لم يحكم بحكم الله فى ذلك؛ يكون ظالما فى حكمه .

وأما الآية الثالثة: فهى فى بيان هداية الإنجيل وأكثرها مواعظ وآداب وترغيب فى إقامة الشريعة على الوجه الذى يطابق مراد الشارع وحكمته ...

فمن لم يحكم بهذه الهداية ممن خوطبوا؛ فهم الفاسقون بالمعصية، والخروج من محيط تأديب الشريعة [١٢٠] .

★ ★ ★

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨)﴾

المفردات:

مهيمنا عليه: مسيطرًا.

شرعة: شريعة.

ومنهاجا: طريقا واضحا فى تطبيق هذه الشريعة.

ليبلوكم: ليختبركم.

فاستبقوا الخيرات: أى: فليستبق كل منكم الآخر إلى فعل الخيرات.

التفسير:

٤٨- وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ... الآية

المراد بالكتاب الأول: القرآن، وأل فيه للعهد، والمراد بالكتاب الثانى: جنس الكتب السماوية فيشمل التوراة والإنجيل.

وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ. أى: رقيبا على ما سبقه من الكتب السماوية وأمينا وحاكما عليها؛ لأنه هو الذى يشهد لها بالصحة ويقرر أصول شرائعها.

والمعنى:

لقد أنزلنا التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، وأنزلنا إليك يا محمد الكتاب الجامع لكل ما اشتملت عليه الكتب السماوية من هدايات وقد أنزلناه متلبسًا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل، وجعلناه مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ. أى: مؤيدًا لما فى هذه الكتب التى تقدمته من دعوة إلى عبادة الله وحده، وإلى التمسك بمكارم الأخلاق وجعلناه كذلك مُهَيْمِنًا عَلَيْهِ. أى: أمينا ورقيبا وحاكما على كل كتاب سبقه.

قال ابن كثير:

جعل الله هذا الكتاب العظيم الذى أنزله آخر الكتب وخاتمها، جعله أشملها وأعظمها وأكملها؛ لأنه سبحانه جمع فيه محاسن ما قبله من الكتب وزاد فيه من الكمالات ما ليس فى غيره، فلهذا جعله شاهدا وأمينا وحاكما عليها كلها، وتكفل سبحانه بحفظه بنفسه فقال: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . (الحجر: ٩)

فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ . أى: فاحكم بين أهل الكتاب بالحق الذى أنزل إليك فى كتابه الكريم؛ فإنه المرجع السماوى الصحيح، المحفوظ من التحريف، وكل ما لا يتوافقه فى التوراة والإنجيل منسوخ يحرم العمل به .

وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ . أى: أهواء أهل الملل السابقة، ولا تعدل أو لا تنحرف عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ . أى: الحق الذى أنزل الله عليك، فإن كل ملة من الملل تهوى أن يكون الأمر على ما هم عليه، وما أدركوا عليه سلفهم، وإن كان باطلا منسوخًا أو منحرفًا عن الحكم الذى أنزله الله على الأنبياء، كما أرادوا فى الرجم ونحوه مما حرفوه من كتب الله (١٢١) .

لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً . أى: لكل أمة منكم يا بنى آدم جعلنا شريعة تناسب أحوالها وزمانها وَمِنْهَاجًا. أى: طريقا واضحًا تسير عليه فى تنفيذ أحكام شريعتهم . فقد جعل الله التوراة لأهلها، والإنجيل لأهله، والقرآن لأهله. وهذا قبل نسخ الشرائع السابقة بالقرآن، وأما بعده فلا شرعة ولا منهاج إلا ما جاء به محمد ﷺ (١٢٢) .

وقال ابن كثير:

هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان، باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة فى الأحكام المتفقة فى التوحيد كما ثبت فى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلاَّت، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد » (١٢٣) .

أى: فى التوحيد الذى أرسل به كل رسول أرسله، وضَمَّنه كل كتاب أنزله .

قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُون. (الأنبياء: ٢٥)

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً . بشريعة واحدة، وكتاب واحد، ورسول واحد .

وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ . أى: ولكن أنزل إليكم شرائع ومناهج مختلفة؛ ليعاملكم معاملة من يختبركم فيما آتاكم من الشرائع ومدى امتثالكم لأحكامها، هل تعملون بها مذعنين لها، معتقدين أن فى اختلافها نفعًا لكم فى معاشكم ومعادكم ؟ وهل تستجيبون لدعوة خاتم أنبيائه: الذى جاءكم بالشريعة التى ختمت بها الشرائع، لتكون شريعة الناس كافة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ: أى: فليسبق كل منكم غيره إلى فعل الخيرات.

قال الشوكانى: أى: فسابقوا أيها المسلمون غيركم من أصحاب الشرائع الذين عملوا على أساسها بطاعة الله، واعملوا بطاعة الله على أساس شريعتكم.

وقال الدكتور محمد سيد طنطاوى:

«لو شاء الله تعالى أن يجعل الأمم جميعا أمة واحدة تدين بدين واحد وبشريعة واحدة لفعل؛ لأنه سبحانه لا يعجزه شىء، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك، وإنما شاء أن يجعلكم أمما متعددة؛ ليختبركم فيما آتاكم من شرائع مختلفة فى بعض فروعها ولكنها متحدة فى جوهرها وأصلها فيجازى من أطاعه بما يستحقه من ثواب؛ ويجازى من خالف أمره بما يستحقه من عذاب.

وإذا كان الأمر كما وصفت لكم؛ فسارعوا إلى القيام بالأعمال الصالحة وتنافسوا فى عمل الخيرات بكل عزيمة ونشاط . ا هـ .

إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ. أى: إلى الله وحده مصيركم ومرجعكم فيخبركم عند الحساب: بما كنتم تختلفون فيه فى الدنيا، ويجازيكم بما تستحقون، ويفصل بين المحق منكم والمبطل، والعامل والمفرِّط .

★ ★ ★

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ (٤٩)﴾

التفسير:

٤٩- وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ .... أى: إن جاءوك لتحكم بينهم فأردت أن تحكم؛ فليكن حكمك طبقا لما أنزل الله عليك لا طبقا لما تهواه أنفسهم أو طبقا لما فى كتبهم من التحريف .

روى ابن جرير وابن أبى حاتم، عن ابن عباس رضى الله عنهما أنّ هذه الآية نزلت فى كعب ابن أسد، وعبد الله بن صوريا، وشاس بن قيس وغيرهم، فقد قالوا فيما بينهم : اذهبوا إلى محمد، لعلنا نفتنه عن دينه، فأتوه، فقالوا: يا محمد، إنك قد عرفت أننا أحبار يهود وأشرافهم وسادتهم، وإنا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك فتقضى لنا عليهم، ونؤمن لك ونصدقك فأبى ذلك رسول الله ﷺ – فأنزل الله الآية: وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ . التى يسيرون عليها ويتبعون طريقها؛ فإنها أهواء زائغة باطلة .

وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ . واحذرهم أن يضلوك أو يصدُّوك عن بعض ما أنزلنا إليك ولو كان أقل قليل، بأن يصوروا لك الباطل فى صورة الحق أو بأن يحاولوا حملك على الحكم الذى يناسب شهواتهم .

وقد كرر سبحانه على نبيه ﷺ وجوب التزامه فى أحكامه بما أنزل الله؛ لتأكيد هذا الأمر فى مقام يستدعى التأكيد؛ لأن اليهود كانوا لا يكفون عن محاولتهم فتنته – ﷺ – وإغرائه بالميل إلى الأحكام التى تتفق مع أهوائهم .

وإعادة: مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيكَ . لتأكيد التحذير، بتهويل الخطب إذا تمكنوا من صرفه عن ذلك .

فَإِن تَوَلَّوْاْ. أى: أعرضوا عن قبول الحق المنزل، وأرادوا غيره، مما يتفق مع أهوائهم .

فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ . ألا وهو ذنب التولى والإعراض عن حكم الله والرغبة فى خلافه .

قال الدكتور محمد سيد طنطاوى:

فاعلم أن حكمة الله قد اقتضت أن يعاقبهم بسبب هذه الذنوب متى اقترفوها بتوليهم عن حكم الله وإعراضهم عنك وانصرافهم عن الهدى والرشاد إلى الغىّ والضلال؛ لأن الأمة التى لا تخضع لأحكام شرع الله وتسير وراء لذائذها ومتعها وشهواتها وأهوائها الباطلة لابد أن يصيبها العقاب الشديد بسبب ذلك .

وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ. اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله ومتضمن تسلية الرسول ﷺ عمَّا لقيه من مخالفيه ولا سيما اليهود.

أى: وإن كثيرا من الناس لخارجون عن طاعتنا ، ومتمردون على أحكامنا، ومتبعون لخطوات الشيطان الذى استحوذ عليهم، وإذا كان الأمر كذلك فلا تبتئس يا محمد عما لقيته من أصحاب النفوس المريضة، بل اصبر حتى يحكم الله بينك وبينهم .

★ ★ ★

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

التفسير:

٥٠ – أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ .... هذا إنكار وتعجب من حالهم وتوبيخ لهم .

والمعنى: أينصرفون عن حكمك بما أنزل الله ويعرضون عنه فيبغون حكم الجاهلية مع أن ما أنزله الله إليك من قرآن فيه الأحكام العادلة التى ترضى كل ذى عقل سليم ومنطق قويم .

قال الآلوسى: روى أن بنى النضير لما تحاكموا إلى رسول الله ﷺ – فى خصومة قتيل وقعت بينهم وبين بنى قريظة، طلب بعضهم من رسول الله أن يحكم بينهم بما كان عليه أهل الجاهلية من التفاضل .

فقال ﷺ : «القتلى بواء» أى: متساوون .

فقال بنو النضير: نحن لا نرضى بحكمك؛ فنزلت هذه الآية [١٢٤] .

وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ . أى: ومن أعدل من الله فى حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به وأيقن، وعلم أنه سبحانه أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شىء والقادر على كل شىء والعادل فى كل شىء .

روى الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : «أبغض الناس إلى الله تعالى - من يبتغى فى الإسلام سنة الجاهلين ومن طلب دم امرئ بغير حق ليريق دمه» (١٢٥).

ومجموع هذا الربع يبدأ بنداء الرسول الكريم بعدم المبالاة بما يصدر عن أولئك الذين يسارعون فى الكفر، ثم خيرت الآيات الرسول ﷺ بين الحكم بينهم أو الإعراض عنهم إذا ما تحاكموا إليه .

ثم وبخت الآيات اليهود على إعراضهم عن أحكام الله العادلة التى أنزلها لعباده، ووصفت المعرضين عن حكمه سبحانه بالكفر تارة والفسق تارة أخرى .

وبعد أن مدحت التوراة والإنجيل، عقبت ذلك ببيان منزلة القرآن الكريم، وأنه الكتاب الجامع فى هدايته وفضله لكل ما جاء فى الكتب السابقة .

ثم ختمت الآية بالتحذير من خداع اليهود ومكرهم وتوعدت كل من يرغب عن حكم الله إلى غيره بسوء العاقبة وشديد العذاب .

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

المفردات:

أولــــيــــاء : أحبابا، أو أصدقاء، أو نصراء .

فى قلوبهم مرض : شك ونفاق .

أن تصــيــبــنــا : أن تدركنا وتستأصلنا . من أصاب الشيءَ: أدركه واستأصله.

دائـــــــرة : الدائرة: الهزيمة، أو الداهية. يقال: دارت عليهم الدوائر . أى: نزلت بهم الدواهى .

التفسير:

٥١ - يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارى أَوْلِيَآءَ ... الآية

خطاب من الله تعالى لجميع المؤمنين يحذرهم فيه من مصافاة اليهود والنصارى مصافاة الأحباب ومعاشرتهم معاشرة الأصدقاء والنصراء .

وقد روى ابن جرير أن هذه الآية وما بعدها نزلت فى عبد الله بن أبىّ حينما تشبث بمحالفة اليهود وقال: إني رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من موالىّ .

وقيل: إنها نزلت فى أبى لبابة الأنصارى حين قال لبنى قريظة إذا رضوا بحكم سعد بن معاذ: إنّه الذبح. ثم أدرك أبو لبابة بعد ذلك أنه خان الله ورسوله .

والخطاب فى الآية بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

قال الدكتور محمد سيد طنطاوى:

أى: يأيها الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، لا يتخذ أحد منكم أحدًا من اليهود والنصارى وليا ونصيرا، أى: لا تصافوهم مصافاة الأحباب، ولا تستنصروا بهم؛ فإنهم جميعا يد واحدة عليكم يبغونكم الغوائل، ويتربصون بكم الدوائر، فكيف يتوهم أن تكون بينهم موالاة لكم؟

لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارى أَوْلِيَآءَ . أى: لا يتخذ أحد منكم أحدًا منهم وليا يعتمد عليه ويستنصر به ويتودد إليه ويخالطه مخالطة الأصفياء .

بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ . أى: لا تتخذوا أيها المؤمنون اليهود والنصارى أولياء؛ لأن بعض اليهود أولياء لبعض منهم وبعض النصارى أولياء لبعض منهم، والكلّ يضمرون لكم البغضاء والشر، وهم وإن اختلفوا فيما بينهم، لكنهم متفقون على كراهية الإسلام والمسلمين .

قال تعالى: **لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ** (آل عمران: ٢٨) .

وقيل: مراد هذه الفقرة أن اليهود يوالون النصارى، والنصارى يوالون اليهود على عداوة النبىّ ﷺ وعداوة ما جاء به، وإن كانوا فى ذات بينهم متعادين متضادين .

وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُم. أى: ومن يتودد إلى اليهود والنصارى ويستنصر بهم فإنه من جملتهم وليس مع جماعة المؤمنين .

والولاية لليهود والنصارى إن كانت على سبيل الرضا بدينهم والطعن فى دين الإسلام؛ كانت كفرا وخروجاً عن دين الإسلام، وإن كانت على سبيل المصافاة والمصادقة؛ كانت معصية تختلف درجتها بحسب قوة الموالاة، وبحسب اختلاف أحوال المسلمين وتأثرهم بهذه الموالاة.

قال الفخر الرازى:

قوله: وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُم . قال ابن عباس: يريد كأنَّه مثلهم، وهذا تغليظ من الله وتشديد فى وجوب مجانبة المخالف فى الدين .

روى عن أبى موسى الأشعرى أنه قال: قلت لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : إن لى كاتبا نصرانيا؛ فقال: مالك قاتلك الله ألا اتخذت حنيفيا، أما سمعت قول الله تعالى: يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارى أَوْلِيَآءَ .

قلت : له دينه، ولى كتابته، فقال: لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله، ولا أُدنيهم إذ أبعدهم الله، قلت: لا يتم أمر البصرة إلا به، فقال: مات النصراني والسلام .

يعنى: هب أنه مات فماذا تصنع بعد، فما تعمله بعد موته فاعمله الآن واستغن عنه بغيره [١٢٦]

إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . أى: إن الله لا يوفق إلى قبول الحق، أولئك الذين ظلموا أنفسهم باختيار الضلالة على الهدى، وظلموا غيرهم بإيذائهم ومضارتهم، وتدبير الكيد لهم، فلا يهدى إلى الإيمان من ظلم نفسه من المسلمين . بموالاة غير المؤمنين، واتباع غير طريق المسلمين .

وفى ختام الآية بهذا : زجر شديد للمؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى، وأنه ظلم للإسلام، لا يهدى الله صاحبه .

٥٢- فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ... الآية

نزلت هذه الآية فى المنافقين. كانوا يصلون حبالهم باليهود خوفا من وقوع هزيمة بالمسلمين.

روى ابن الجوزى أن اليهود والنصارى كانوا يجلبون الطعام والميرة للمنافقين ويقرضونهم فيوادّونهم فلما نزلت: لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارى أَوْلِيَآءَ . قال المنافقون: كيف نقطع مودة قوم إن أصابتنا سنة وسعوا علينا، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. وممن قال: نزلت فى المنافقين ولم يعين مجاهد وقتادة [١٢٧] والمراد بالمرض الشك والنفاق. ومعنى: يُسَارِعُونَ فِيهِمْ . أى: يسارعون فى موالاتهم، أو معاونتهم على المسلمين.

والمعنى: يا محمد فترى أولئك المنافقين الذين ضَعُف إيمانهم وذهب يقينهم، يسارعون فى مناصرة أعداء الإسلام مسارعة الداخل فى الشيء أى: أنهم مستقرون فى مودتهم .

يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ . أى: يقولون فى أنفسهم، أو للناصحين لهم بالثبات على الحق: اتركونا وشأننا فإننا نخشى أن تنزل بنا مصيبة من المصائب التى يدور بها الزمان، كأن تمسنا أزمة مالية، أو ضائقة اقتصادية، أو أن يكون النصر فى النهاية لهؤلاء الذين نواليهم فنحن نصادقهم ونصافيهم؛ لنتقى شرهم ولننال عونهم فى الملمّات والضوائق .

فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ . وهو وعد من الله تعالى لرسوله وللمؤمنين بأن يحقق لهم الغلبة على أعدائهم والقضاء عليهم. والمراد بالفتح: فتح مكة، أو فتح خيبر أو فتح بلاد المشركين أو نصر الإسلام وإعزازه، وكل ذلك قدْ كان. أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ . أى: أن يأتى الله بأمر من عنده لا يكون للناس فيه فعل البتة مثل: القضاء على اليهود وقطع دابرهم، أو هو الخصب والسعة للمسلمين، بعد أن كانوا فى ضيق من العيش، أو هو الجزية التى تفرض على اليهود والنصارى، أو هو إظهار أمر المنافقين. والحق أن كل ذلك قد حققه الله للمسلمين .

فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ . أى: فيصبح هؤلاء المنافقون بعد أن جاء الفتح والنصر، آسفين متحسرين بسبب ما وقعوا فيه من ظن فاسد أو خائب «أو إذا ما عاينوا عند الموت فبُشروا بالعذاب» [١٢٨] .

٥٣- وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ... الآية

أى: يقول الذين آمنوا لليهود على جهة التوبيخ، أهؤلاء المنافقون، الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم يعينونكم على محمد بالمناصرة والمعاضدة فى القتال – ويحتمل أن يكون القول من المؤمنين بعضهم لبعض: أى: أهؤلاء الذين كانوا يحلفون أنهم مؤمنون فقد هتك الله اليوم سترهم، حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ. أى: بطلت الأعمال التى كانوا يعملونها، أو كل عمل يعملونه فصاروا خاسرين فى الدنيا والآخرة .

ملحق بالآيات عن علاقة المسلمين بغيرهم

هل النهى الوارد فى الآيات القرآنية عن موالاة غير المسلمين على إطلاقه ؟

والجواب عن ذلك أن غير المسلمين أقسام ثلاثة :

القسم الأول: وهم الذين يعيشون مع المسلمين ويسالمونهم، ولا يعملون لحساب غيرهم ؛ ولم يبدر منهم ما يفضى إلى سوء الظن بهم ... وهؤلاء لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، ولا مانع من

مودتهم والإحسان إليهم كما فى قوله – تعالى – : لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . (الممتحنة: ٨).

والقسم الثانى: وهم الذين يقاتلون المسلمين، ويسيئون إليهم بشتى الطرق وهؤلاء لا تصح مصافاتهم، ولا تجوز موالاتهم، وهم الذين عناهم الله فى الآيات التى معنا وفيما يشبهها من آيات كما فى قوله – تعالى – إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . (الممتحنة: ٩) .

والقسم الثالث : قوم لا يعلنون العداوة لنا ولكن القرائن تدل على أنهم لا يحبوننا بل يحبون أعداءنا، وهؤلاء يأمرنا ديننا بأن نأخذ حذرنا منهم دون أن نعتدى عليهم ...

ومهما تكن أحوال غير المسلمين ؛ فإنه لا يجوز لولى الأمر المسلم أن يوكل إليهم ما يتعلق بأسرار الدولة الإسلامية. أو أن يتخذهم بطانة له بحيث يطلعون على الأمور التى يؤدى إفشاؤها إلى خسارة الأمة فى السلم أو الحرب .

وبعد أن حذر – سبحانه – المؤمنين من ولاية اليهود والنصارى، عقب ذلك بنداء آخر وجهه إليهم، وبين لهم فيه أن موالاة أعداء الله قد تجر إلى الارتداد عن الدين، وأنهم إن ارتدوا ؛ فسوف يأتى الله بقوم آخرين لن يكونوا مثلهم، وأن من الواجب عليهم أن يجعلوا ولايتهم لله ولرسوله وللمؤمنين... فقال تعالى :

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) ﴾

المفردات:

يــــرتــــد : يرجع عما هو عليه .

أذلــــة : جمع ذليل، لين، رحيم، متواضع لا بمعنى مهين. أي: رحماء متواضعين .

أعــــزة : أقوياء أشداء .

لــــومــــة : المرة من اللوم ، ولامه: كدره بالكلام ؛ لإتيانه مالا ينبغى .

التفسير:

٥٤- **يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ**... الآية. من يرجع منكم عن دين الإسلام إلى الكفر وإنكار ما جاء به الإسلام من تكاليف .

فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ . بأناس آخرين .

يُحِبُّهُمْ . يرضى عنهم إذ هداهم إلى خيرى الدنيا والآخرة .

وَيُحِبُّونَهُ . ويحرصون على طاعته وينصرون دينه .

أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ . أى: يظهرون العطف والحنّو والتواضع للمؤمنين، ويظهرون الغلظة والشدة والترفع على الكافرين .

يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ . يجمعون بين المجاهدة فى سبيل الله، وعدم خوف الملامة فى الدين، بل هم متصلبون لا يبالون بما يفعله أعداء الحق وحزب الشيطان، من الازدراء بأهل الدين، وقلب محاسنهم مساوئ، ومناقبهم مثالب؛ حسدًا وبغضا وكراهية للحق وأهله[١٢٩] .

ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. أى: ما تقدم من الأوصاف العظيمة، والفضائل الجليلة من محبة الله لهم، ومحبتهم لله تعالى، وحنوهم على المؤمنين، والشدة على الكفار والجهاد فى سبيل الله – دون خشية أحد – إنما هو لطف الله وإحسانه، يتفضل بمنحه من يشاء من عباده، وذلك بتوفيقه للعمل على تحصيله والحرص على التحلى به .

وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. كامل القدرة، كثير الأفضال، كامل العلم، محيط بكل شىء وقد تحدثت الآية عمن يرتدون قبل أن تقع ردتهم، فكان ذلك إخبارًا عن مغيبات، وكان معجزة للرسول ﷺ، وإعجازا للقرآن الكريم، وقد ارتد من العرب فى أواخر عهد الرسول ﷺ ثلاث فرق :

١- بنو مدلج: تحت رياسة الأسود العنسى تنبأ باليمن، ثم قتله فيروز الديلمى .

٢- بنو حنيفة: أصحاب مسيلمة الكذاب وقد قتل فى حروب الردّة .

٣- بنو أسد: قوم طلحة بن خويلد وقد هُزم وهرب إلى الشام ثم أسلم وحسن إسلامه .

وقد قيض الله أبا بكر الصديق فجهز الجيوش لقتال المرتدين، واستطاع القضاء على هذه

الفتنة، وضمَّ المسلمين بعد أن كادوا يتفرقون وقد اختلف المفسرون فى المراد بهؤلاء القوم الذين يأتى الله بهم، فقال بعضهم: أبو بكر الصديق ومن معه من المؤمنين .

وقال بعضهم : المراد بهم الأنصار .

وقال مجاهد: أهل اليمن .

وقال آخرون: كل من تنطبق عليه هذه الصفات الجليلة: فكل من أحب الله وأحبه الله، وتواضع للمؤمنين وأغلظ على الكافرين وجاهد فى سبيل الله دون أن يخشى أحدًا سواه فهو منهم .

★ ★ ★

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَٰلِبُونَ (٥٦) ﴾

المفردات :

حِزْبَ الله : الحزب فى اللغة: القوم الذين يجتمعون لأمر حَزَبَهم. وحِزْبُ الرجل: أصحابُه الذين يكونون معه على رأيه. وأظهرُ ما قاله المفسرون في بيان معناه: أنهم الذين يطيعون الله فيما أَمَرَ ونَهَى ، فينصرهم الله .

التفسير :

٥٥- إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعونَ .

جاء فى تفسير الطبرى: أن جابر بن عبد الله قال: جاء عبد الله بن سلاّم للنبى ﷺ فقال: إن قومنا من بنى قريظة والنضير قد هجرونا وأقسموا ألاّ يجالسونا، ولا نستطيع مجالسة أصحابك؛ لبعد المنازل، فنزلت هذه الآية، فقال: رضينا بالله وبرسوله وبالمؤمنين أولياء .

كما وردت عدة أقوال فيمن نزلت فيهم هذه الآية .

فقيل: إنها نزلت فى أبى بكر الصديق . وقيل: نزلت فى على بن أبى طالب، وقيل: الآية عامة فى جميع المؤمنين .

ومعنى الآية:

أن الولىّ حقا، الجدير بأن يستنصر به: هو الله تعالى وحده، وكذلك رسوله ﷺ والمؤمنون، فإن الاستعانة بهم استعانة بالله تعالى .

وقد جاءت هذه الآية تحريضًا للمؤمنين على الاستنصار بالله وبرسوله والمؤمنين، وتحذيرا من موالاة غيرهم .

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ . أى: إنما وليكم الجدير بالولاء هو الله وحده وكذلك رسوله والمؤمنون .

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . أى: الذين يحافظون على أداء الصلاة فى أوقاتها ويعطون الزكاة لمستحقيها وهم خاشعون خاضعون لأمر الله لا يتكبرون على أحد من الفقراء .

جاء فى تفسير زاد المسير لابن الجوزى:

والمراد بالركوع ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه ركوع الصلاة .

ثانيها: أنه صلاة التطوع بالليل والنهار، وإنما أفرد الركوع بالذكر؛ تشريفًا له .

ثالثها: أنه الخشوع والخضوع وأنشدوا :

ولا تهن الفقير علَّك أن تر كع يومًا والدهر قد رفعه

أى: لا تتطاول على الفقير فربما أصابك الذل والفقر يوما . وارتفع شأن هذا الفقير فصار غنيا أو عظيما .

ذكر ابن كثير والفخر الرازى وغيرهم من المفسرين أن الآية عامة فى حق جميع المؤمنين، فكل من كان مؤمنا حقا فهو نصير لجميع المؤمنين .

ونظيره قوله تعالى: وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ. (التوبة: ٧١) .

قال الراغب: «الركوع: الانحناء وتارة يستعمل فى الهيئة المخصوصة فى الصلاة، وتارة يستعمل فى التذلل والتواضع إما فى العبادة، وإما فى غيرها ...»[١٣٠] .

٥٦-وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ .

ذكر الشوكانى فى سبب نزول الآية:

أنه لما حاربت بنو قينقاع من اليهود رسول الله ﷺ تمسك عبد الله بن أبىّ بحلفه معهم، أما عبادة ابن الصامت، فمشى إلى رسول الله ﷺ وتبرأ من حلفهم، وكان له من حلفهم مثل ما لعبد الله بن أبى، لكنه خلعهم إلى رسول الله ﷺ، وقال: أتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم .

قال الطبرى:

«أى من فوّض أمره إلى الله، وامتثل أمر رسوله وولى المسلمين فهو من حزب الله» [١٣١] . وهم المؤمنون القائمون بنصر شريعة الله، الذين يطيعون أمره ويجتنبون نهيه، فكان لهم النصر على أعدائهم .

★ ★ ★

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾

المفردات :

هُـــــزُوًا : هَزَأ بفلان: سَخِر منه، واستخف به. واتخذه هزوا أي: جعله موضع سخرية منه .

التفسير :

٥٧ – يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّن الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ .. الآية

ورد فى تفسير القرطبى، وتفسير الآلوسى وغيرهما روايات فى أسباب نزول هذه الآية من ذلك ما يأتى:

أخرج ابن إسحاق وجماعة عن ابن عباس قال: كان رفاعة بن زيد بن التابوت وسويد بن الحارث قد أظهرا الإسلام ونافقا، وكان رجال من المسلمين يوادُّونهما، فأنزل الله تعالى:

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ... الآية. [١٣٢]

وروى عن ابن عباس أن قوما من اليهود والمشركين ضحكوا من المسلمين وقت سجودهم فأنزل الله تعالى هذه الآيات [١٣٣].

والآيات فى حدّ ذاتها خطاب من الله تعالى لجمع المؤمنين ينهاهم عن موالاة المتخذين للدّين هزوا ولعبا، وهذا النهى يعم كل من حصل منه ذلك من المشركين وأهل الكتاب وأهل البدع المنتمين إلى الإسلام [١٣٤]

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ.... أى: لا تجعلوا أيها المؤمنون – أولئك الذين تلاعبوا بدينكم من أهل الكتاب والكفار واستهزءوا به وسخروا منه، بإظهار الإسلام بألسنتهم مع الإصرار على الكفر بقلوبهم – أولياء أبدا.

وصدّر أهل الكتاب فى الذكر؛ لزيادة التشنيع عليهم؛ لأنهم أعرف بالتدين السليم ممن سواهم، ممن كفروا ولا دين لهم .

وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . وهذه الجملة تذييل قصد به استنهاض همتهم لامتثال أمر الله تعالى، وإلهاب نفوسهم؛ حتى يتركوا موالاة أعدائهم بسرعة ونشاط .

أى: واتقوا الله فى سائر ما أمركم به وما نهاكم عنه، فلا تضعوا موالاتكم فى غير موضعها، ولا تخالفوا لله أمرا إن كنتم مؤمنين حقا .

٥٨– وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُم قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ . ورد فى سبب نزول هذه الآية أن منادى رسول الله ﷺ كان إذا نادى إلى الصلاة وقام المسلمون إليها قالت اليهود: قاموا لا قاموا، صلّوا لا صلُّوا، على سبيل الاستهزاء والضحك، فنزلت هذه الآية[١٣٥] .

وروى أن الكفار لما سمعوا الأذان؛ حسدوا رسول الله ﷺ والمسلمين على ذلك وقالوا: يا محمد لقد ابتدعت شيئًا لم نسمع به فيما مضى من الأمم فمن أين لك صياح مثل صياح العير، فما أقبحه من صوت، وما أسمجه من أمر[١٣٦] .

ومعنى الآية:

وإذا ناديتم – أيها المؤمنون – بعضكم بعضا إلى الصلاة عن طريق الأذان اتخذ هؤلاء الضالون الصلاة والمناداة بها موضعا لسخريتهم وعبثهم وتهكمهم .

ذَلِكَ بِأَنَّهُم قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ . لأن الهزؤ واللعب شأن أهل السفه والخفة والطيش، فكيف بمن يهزأ بشعائر دين الله تعالى:

والصلاة هى شعار المؤمنين وفيها صلة روحية بالله تعالى وفيها عبادة وطهارة وذكر وخشوع وتبتل، وليس فيها شىء مما يدعو إلى السخرية .

قال ابن كثير:

هذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام من الكتابيين والمشركين، الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون وهى شرائع الإسلام المطهرة . المحكمة المشتملة على كل خير دنيوى وأخروى، يتخذونها هزوا،

يستهزئون بها، ولعبا يعتقدون أنها نوع من اللعب فى نظرهم الفاسد، وفكرهم البارد كما قال القائل :

وكم من عائب قولاً صحيحا وآفته من الفهم السقيم[١٣٧].

وقال القرطبى فى تفسير الآية: ولم يكن الأذان بمكة قبل الهجرة، وإنما كانوا ينادون الصلاة جامعة، فلما هاجر النبى ﷺ وحرفت القبلة إلى الكعبة أمر بالأذان، وبقيت الصلاة جامعة للأمر يعرض، والأذان فرض على الكفاية، وقيل: سنة مؤكدة، وقيل: مستحب لساكن المصر أن يؤذن ويقيم فإن استجزأ بأذان الناس وإقامتهم أجزأه[١٣٨].

★ ★ ★

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾

المفردات :

تنقمون : تعيبون علينا وتنكرون منا .

الطاغوت : رأس الضلال. وقيل: الشيطان ، أو كل معبود من دون الله .

مثوبة : المثوبة والثواب : الجزاءُ على الأعمال خيرها ، وشرها ، وكثر استعماله فى الخير.

التفسير :

٥٩- قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّه وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ ...

سبب نزولها: أنَّ نفرا من اليهود أتوا رسول الله ﷺ فسألوه عمن يؤمن به من الرّسل فذكر جميع الأنبياء، فلما ذكر عيسى، جحدوا نبوته، وقالوا: والله ما نعلم دينا شرا من دينكم، فنزلت هذه الآية والتى بعدها[١٣٩].

ومعنى نقمت: بالغت فى كراهية الشىء، والمعنى: هل تكرهون منّا إلا إيماننا وفسقكم لأنكم علمتم أننا على الحق، وأنكم فسقتم .

وجاء فى التفسير الوسيط :

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا . أى: ما تنكرون منا وتعيبون علينا إلا إيماننا بالله وما أنزل إلينا من القرآن المجيد وإيماننا بما أنزل من قبل إنزال القرآن الكريم: من التوراة والإنجيل المنزلين عليكم، وسائر الكتب السماوية، وكذلك إيماننا بأنكم قوم فاسقون متمردون على الحق خارجون عن الطريق المستقيم للصالح الإنساني، مكذبون بنبوة محمد الذى بشرت به كتبكم وجاء لخلاصكم[١٤٠] .

وقال الشوكانى فى فتح القدير فى معنى الآية:

هل تعيبون أو تسخطون أو تنكرون أو تكرهون منّا إلا إيماننا بالله وبكتبه المنزلة، وقد علمتم بأنا على الحق.

وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ . بترككم للإيمان والخروج عن امتثال أوامر الله . ا هـ .

ومن بلاغة القرآن الكريم وإنصافه فى الأحكام واحتراسه فى التعبير، أنه لم يعمم الحكم بالفسق على جميعهم، بل جعل الحكم بالفسق منصبا على الكثيرين منهم حتى يخرج عن هذا الحكم القلة المؤمنة من أهل الكتاب، وشبيه بهذا قوله فى آية أخرى: مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ . (المائدة: ٦٦)

وفى الآية ما يسمى عند علماء البيان تأكيد المدح بما يشبه الذم وبالعكس . فمن الأول قول القائل:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وقول الآخر:

فتى كملت أخلاقه غير أنه جواد فما يبقى من المال باقيا

أما تأكيد الذم بما يشبه المدح ففى هذه الآية وما يشبهها . أى: ما ينبغى أن ينقموا شيئا إلا هذا، وهذا لا يوجب لهم أن ينقموا شيئا، إذًا فليس هناك شىء ينقمونه، ومادام الأمر كذلك، فينبغى لهم أن يؤمنوا به ولا يكفروا، وفيه أيضا تقريع لهم حيث قابلوا الإحسان بسوء الصنيع[١٤١]

٦٠- قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ .. الآية

بين الله سبحانه لرسوله أن هناك قومًا فيهم من العيب ما هو أولى بالعيب، وهو ما هم عليه من الكفر الموجب للعن الله وغضبه ومسخه[١٤٢] .

والمعنى:

قل لهم يا محمد على سبيل التبكيت والتنبيه على ضلالهم: هل أخبركم أيها اليهود، بمن هم شر وأسوأ من أهل ذلك الدين عقوبة عند الله يوم القيامة ؟!

هم أولئك الذين طردهم الله من رحمته، وأبعدهم عن رضوانه وحل عليهم سخطه، وهم:

مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ . أى: وجعل منهم من يشبه القردة فى التقليد الأعمى، والخنازير فى الانغماس فى كلّ ما هو قذر.

وكذلك جعل منهم الذين عبدوا الكهنة ورؤساء الضلال .

وفى المراد بالطاغوت هنا قولان :

أحدهما: الأصنام .

والثانى: الشيطان .

وفى القرطبى وابن كثير، وابن الجوزى عشرون قراءة فى كلمة وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ وفيها وجهان.

أحدهما: أن المعنى: وجعل منهم القردة والخنازير ومن عبد الطاغوت .

الثانى: أن المعنى: من لعنه الله وعبد الطاغوت. أى: خدم الطاغوت وأطاع الظلم والباطل والفساد. والآية وردت على سبيل المشاكلة والمجاورة لتفكير اليهود الفاسد وزعمهم الباطل .

فكأنه سبحانه يقول لنبيه :

إن هؤلاء يا محمد ينكرون عليكم إيمانكم بالله وبالكتب السماوية ويعتبرون ذلك شرا، قل لهم:

لئن كنتم تعيبون علينا إيماننا وتعتبرونه شرا لا خير فيه فشر منه عاقبةً ومآلاً ما أنتم عليه من لعن وطرد من رحمة الله، وما أصاب أسلافهم من مسخ بعضهم قردة، وبعضهم خنازير. وما عرف عنكم من عبادة لغير الله .. وشبيه بهذه الآية فى مجاراة الخصم قوله تعالى: وَإِنَّا وإِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ (سبأ: ٢٤)

أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا . أى: هؤلاء الموغلون فى الاتصاف بتلك القبائح والخبائث التى أوقعتهم فى سوء المصير . هم فى شر المكانة وأحط المقام فى الدنيا والآخرة .

وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ. أى: وهم أكثر ضلالا عن طريق الحق المستقيم من سواهم، فهم فى الدنيا يشركون بالله وينتهكون محارمه وفى الآخرة مأواهم النار وبئس القرار .

★ ★ ★

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣)﴾

المفردات :

الإثم : الذنب وكل المعاصى ، ويطلق على الكذب .

والعدوان : مجاوزة الحد فى الظلم .

السحت : الحرام .

لولا : هلاَّ. وهى هنا : للتحضيض .

الربانيون : العلماءُ العارفون بالله ، يكونون فى اليهود وغيرهم .

الأحبار : علماء اليهود، وقيل : هما في اليهود ؛ لأن الحديث ما زال متصلا ببيان شأنهم.

التفسير :

٦١- وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ... الآية

نزلت هذه الآيات فى ناس من اليهود كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ فيظهرون له الإيمان والرضا بما جاء به؛ نفاقا وخداعا ومكرًا .

فإذا خرجوا من عنده خرجوا بالكفر كما دخلوا دون أن يتأثروا بما سمعوه من هدى الرسول وإرشاده فأنزل الله هذه الآيات لإظهار نفاقهم .

والمعنى: وإذا جاءوا إليكم أيها المؤمنون – أولئك اليهود – أظهروا أمامكم الإسلام وقالوا لكم: آمنَّا بأنكم على حق، وحالتهم وحقيقتهم أنهم قد دخلوا إليكم وهم متلبسون بالكفر، وخرجوا من عندكم وهم متلبسون به أيضا، فهم يدخلون عليكم ويخرجون من عندكم وقلوبهم كما هى لا تتأثر بالمواعظ التى يلقيها الرسول ﷺ؛ لأنهم قد قست قلوبهم، وفسدت نفوسهم .

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ . أى: والله أعلم بما كانوا يخفونه من نفاق وخداع وبغض للمسلمين وتدبير للكيد لهم وإلحاق أبلغ الضرر بهم .

وقد قال تعالى فى شأنهم أيضا: وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُواْ بِالَّذِى أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . (آل عمران: ٧٢)

٦٢- وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ .

أى: وترى - أيها الرسول الكريم - كثيرا من هؤلاء اليهود يسارعون فى ارتكاب الآثام والظلم وأكل المال الحرام بدون تردد أو تريث .

لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . تذييل. قصد به تقبيح أعمالهم التى يأباها الدين والخلق الكريم .

وفى هذه الآية نجد أن الله تعالى قال: وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ . ولم يقل: وتراهم؛ لأن قليلا منهم كانت فيهم إنسانية فيستحيون، فيتركون المعاصى .

وأكثر ما يستعمل لفظ المسارعة فى الخير قال تعالى: نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ . (المؤمنون: ٥٦)

فاستعماله هنا يدل على أنهم كانوا يرتكبون المعاصى وكأنهم على حق فيما يفعلون.

٦٣- لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُون .

أى: هلاَّ قام العلماء بالنهى عن التسابق إلى ارتكاب المعاصى والانغماس فى الشهوات؟

السُّحْت: هو المال الحرام كالربا والرشوة، سمى سحتا من سحته إذا استأصله؛ لأنه مسحوت البركة أى: مقطوعها، أو لأنه يذهب فضيلة الإنسان ويستأصلها، واليهود أرغب الناس فى المال الحرام وأحرصهم عليه، والرَّبَّانِيُّون: جمع ربانى وهم العلماء الحكماء البصراء بسياسة الناس وتدبير أمورهم والقيام بمصالحهم . والأَحْبَار: جمع حبر، وهم علماء اليهود وفقهاؤهم المفسرون لما ورد فى التوراة من أقوال وأحكام .

جاء فى فتح القدير للشوكانى عند تفسير الآية :

أى: لقد ترك علماؤهم نهيهم عن المنكر الذى يقولونه بألسنتهم، وما يأكلونه من الحرام والرشا والظلم .

لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُون . فبئس الصنيع من علمائهم هذا التهاون فى إبقائهم واقعين فى الحرام دون إنكار ولا تغيير، فوبخ سبحانه الخاصة وهم العلماء التاركون للأمر والنهى عن المنكر، بما هو أغلظ وأشدّ من توبيخ فاعلى المعاصى، فهم أشدّ حالا، وأعظم وبالا من العصاة، فرحم الله عالما قام بما أوجبه الله عليه من فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[١٤٣] .

وقال ابن جرير: كان العلماء يقولون: ما فى القرآن آية أشد توبيخا للعلماء من هذه الآية، ولا أخوف عليهم منها .

وقال ابن كثير: روى الإمام أحمد أن رسول ﷺ قال: «ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصى، وهم أعزّ منه وأمنع ولم يغيروا؛ إلاّ أصابهم الله منه بعذاب»[١٤٤] .

وروى ابن أبى حاتم عن يحيى بن يعمر قال: خطب على بن أبى طالب فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إنما هلك من كان قبلكم؛ بركوبهم المعاصى، ولم ينههم الربانيون والأحبار فلما تمادوا؛ أخذتهم العقوبات؛ فمروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذى نزل بهم، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يقطع رزقا ولا يقرّب أجلاً [١٤٥] .

وجاء فى تفسير القرطبى للآية:

روى سفيان بن عيينة قال: حدثنى سفيان بن سعيد عن مِسعر قال: بلغنى أن مَلَكًا أمر أن يخسف بقرية فقال: يا رب، فيها فلان العابد، فأوحى الله إليه: «أن به فابدأ، فإنه لم يتَمَعّر[١٤٦] وجهه فىّ ساعة قط»[١٤٧] .

وفى صحيح الترمذى «إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه؛ أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده»[١٤٨] .

★ ★ ★

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾

المفردات :

يــــد الله : اليد فى كلام العرب تكون: للجارحة، وللنعمة، وللقوة، وللقدرة، وللصلة، وللتأييد، وللنصرة .

مــغــلــولــة : الغُل: قيد من الجلد، أو الحديد يوضع فى اليد أو العنق . ومرادهم بذلك: أنها مقبوضة، بخيلة بالعطاء .

مبسوطتان : البسط: المد بالعطاء. والمراد منه هنا: الجود والإعطاء.

أوقدوا نارا للحرب : أوْقَد النار: أشعلها. والمراد هنا: أثاروا الفتن، ودبروا المكائد التى تؤدى إلى وقوع الحرب بين الناس .

التفسير:

٦٤- وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ... الآية

سبب النزول:

جاء فى تفسير القرطبى ما يأتى:

قال عكرمة: إنما قال هذا فنحاص بن عازوراء وأصحابه، وكان لهم أموال فلما كفروا بمحمد ﷺ؛ قلّ ما لهم، فقالوا : إن الله بخيل، ويد الله مقبوضة عنا فى العطاء، فالآية خاصة فى بعضهم، وقيل: لما قال قوم هذا ولم ينكر الباقون؛ صاروا كأنهم بأجمعهم قالوا هذا .

وقال الحسن: المعنى: يد الله مقبوضة عن عذابنا .

وقيل: إنهم لما رأوا النبى ﷺ فى فقر وقلة مال وسمعوا: مَّن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا. (البقرة: ٢٤٥)

ورأوا النبى ﷺ قد كان يستعين بهم فى الدِّيات قالوا: إن إله محمد فقير وربما قالوا: بخيل، وهذا معنى قولهم: يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ . فهو على التمثيل كقوله: وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ . (الإسراء: ٢٩).

ويقال للبخيل: جعد الأنامل، ومقبوض الكف، وكز الأصابع ومغلول اليد [١٤٩] .

والسبب فيه أن اليد آلة لأكثر الأعمال، لا سيما فى دفع المال وإنفاقه فأطلقوا اسم السبب على المسبب وأسندوا الجود والخير إلى اليد والكف فقيل للجواد: فياض اليد، مبسوط الكف، وقيل للبخيل: مقبوض اليد، كز الكفّ ...

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ . أى: أن الله بخيل علينا بما عنده من المال والعطاء والرزق، أو المراد: أنه فقير لا يجد ما يعطيه لنا، حيث قالوا فى الآية ١٨١ من سورة آل عمران: إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ.

وهذا نوع من جرأة اليهود على الله وسوء أدبهم معه وتوبيخ لهم على جحودهم نعم الله التى لا تحصى .

غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا . وهو دعاء عليهم بالشح المرير وبالبخل الشنيع بأن يخلق سبحانه فيهم الشح الذى يجعلهم منبوذين من الناس، ومن ثمّ كان اليهود أبخل خلق الله، وحكم عليهم بالطرد من رحمة الله تعالى.

قال الآلوسى: ويجوز أن يكون المراد بغلّ الأيدى: الحقيقة أن يغلّوا فى الدنيا أسارى، وفى الآخرة معذبين فى أغلال جهنم، ومناسبة هذا لما قبله حينئذ من حيث اللفظ فيكون تجنيسا، وقيل من حيث اللفظ وملاحظة أصل المجاز كما تقول: سبّنى سبّ الله دابره أى: قطعه؛ لأن السبّ أصله القطع [١٥٠] وقد حقق الله قضاءه فيهم، فكانوا أبخل الناس فى الدنيا، وأحرصهم على المال، وباءوا فى الآخرة بالخلود فى النار.

بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ . أى: ليس الأمر كما زعمتم أيها اليهود، بل هو سبحانه الواسع الفضل، الجزيل العطاء، وما من شىء إلا عنده خزائنه.

فبسط اليد هنا: كناية عن الجود والفضل والإنعام منه – سبحانه – على خلقه وقد أشير بتثنية اليد إلى تقرير غاية جوده وغناه.

فإن أقصى ما تصل إليه همة الجواد السخى أن يُعطى بكلتا يديه.

وقوله : يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ . جملة مستأنفة واردة؛ لتأكيد كمال جوده، والدلالة على أنه ينفق على مقتضى حكمته ومشيئته، فهو يبسط الرزق لمن يشاء ويقبضه عمن يشاء؛ لحكمة يعلمها ولا نعلمها.

قال تعالى : وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (الشورى: ٢٧)

وقال تعالى: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (آل عمران: ٢٦)

وروى البخارى، ومسلم، وأحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول ﷺ : «إن الله تعالى قال: أَنفِقْ أُنفِقَ عليك» [١٥١] وقال رسول الله ﷺ: «يمينُ الله مَلأى لا يغيضُها نفقة، سحاءُ [١٥٢] الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خَلَقَ السماوات والأرض فإنه لم يَغِضْ ما فى يمينه، قال: وعرشهُ على الماء وبيده الأخرى القبض يرفع ويخفض. [١٥٣]

قال القرطبى:

يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ. يرزق كما يريد، ويجوز أن تكون اليد فى هذه الآية بمعنى: القدرة أى: قدرته شاملة، إن شاء وسع وإن شاء قتر.

وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا . المراد بالكثير: علماء اليهود ورؤساؤهم، أى: إذا نزل شىء من القرآن فكفروا به؛ ازداد كفرهم .

والقرآن بطبيعته كتاب هداية وشفاء للنفوس من ضلالها لكن اليهود قوم أكل الحقد قلوبهم واستولى الحسد على نفوسهم فهم يضمون إلى حقدهم القديم وكفرهم السابق كفرا جديدًا بكل ما نزل عليك يا محمد .

قال تعالى: وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا . (الإسراء: ٨٢)

وقد أكد الله هذه الجملة بالقسم المطوىّ وباللاّم الموطئة له، وبنون التوكيد الثقيلة؛ لكى ينتفى الرجاء فى إيمانهم وليعاملهم النبى ﷺ على أساس مكنون نفوسهم الخبيثة وقلوبهم المريضة بالحسد والخداع .

وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . قال ابن عطية: وكأن العداوة . شىء يُشهد يكون عنه عمل وحرب، والبغضاء لا تتجاوز النفوس .

والمعنى: وألقينا بين طوائف اليهود المتعددة، العداوة الدائمة والبغضاء المستمرة، فلا تتوافق قلوبهم، ولا تتطابق أقوالهم أبدًا إلى يوم القيامة .

ولقد كانوا كذلك طوال تاريخهم، منذ أن أرسل إليهم الرسل، ودأبوا على قتل الأنبياء بغير حق، ثم كذّبوا محمدًا ﷺ، واستمروا على اقتراف جرائمهم ، وازدادوا فيها، قال تعالى: بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى .. (الحشر: ١٤)

كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ . أى: كلما هموا بحرب لرسول الله ﷺ أفسد الله عليهم خطتهم وأحبط مكرهم، وألقى الرعب فى قلوبهم، أو كلما حاربوا أحدًا أو جماعة غلبوا وهزموا، وقد كان أمرهم كذلك على مدى التاريخ.

جاء فى تفسير القرطبى:

وقيل: إن اليهود لما أفسدوا وخالفوا كتاب الله – التوراة – أرسل الله عليهم بختنصَّر، ثم أفسدوا فأرسل عليهم تيطس الرومى، ثم أفْسَدوا فبعث عليهم المجوس، ثم أفسدوا فبعث عليهم المسلمين فكانوا كلما استقام أمرهم شتتهم الله كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا. أى: أهاجوا شرًّا، وأجمعوا أمرهم على الحرب قهرهم الله ووهن أمرهم فذكر النار مستعار [١٥٤].

والعرب كانوا إذا أرادوا حربا بالإغارة على غيرهم أوقدوا نارًا يسمونها: نار الحرب.

وَيَسْعَوْنَ فِى الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ. أى: أن حال هؤلاء اليهود أنهم يجتهدون فى الكيد للإسلام وأهله، وأنهم يسعون سعيا حثيثا للإفساد فى الأرض عن طريق إثارة الفتن وإيقاظ الأحقاد بين الناس.

وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ. بل يبغضهم ويمقتهم؛ لإيثارهم الضلالة على الهدى والشر على الخير.

وقد كانت أصابع اليهود وراء نيران الحروب والعداوة فى تاريخهم الطويل.

ومنذ القدم واليهود كلما جمعوا جموعهم وأعدوا عدتهم لإيذاء الناس، أو إشعال نار الفتنة على عباد الله؛ شتت الله شملهم، وخيّب رجاءهم ودمّر كيدهم.

★ ★ ★

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

المفردات:

أقاموا التوراة والإنجيل: نفّذوا ما فيها من الأحكام التى شرعها الله لخير الإنسانية، والتزموا بالمحافظة على أدائها.

لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم: المراد: لوسَّع الله عليهم أرزاقهم.

منهم أمة مقتصدة: الاقتصاد فى اللغة: الاعتدال من غير غُلُوّ ولا تقصير أى: من اليهود طائفة معتدلة، وهم الذين آمنوا إيمانًا حقيقيا بمحمد ﷺ.

وكثير منهم ساء ما يعملون: كثير من اليهود غلوا على الكفر وأفرطوا فى العداوة والبغضاء فبئس ما عملوا.

التفسير:

٦٥ – وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

والمعنى: ولو أن أهل الكتاب – من اليهود والنصارى – آمنوا برسول الله ﷺ وبما جاء به من حق ونور واتقوا الله تعالى وأقبلوا على طاعته بصدق وإخلاص **لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ**. أى: غفرنا ذنوبهم وسترنا عليهم فى الدنيا ولأدخلناهم جنات النعيم فى الآخرة.

قال الفخر الرازى:

واعلم أنه سبحانه لما بالغ فى ذمهم وفى تهجين طريقتهم عقب ذلك ببيان أنهم لو آمنوا واتقوا؛ لوجدوا سعادات الآخرة والدنيا، أما سعادات الآخرة فهى محصورة فى نوعين: أحدهما: رفع العقاب، والثانى: إيصال الثواب، أما رفع العقاب: فهو المراد بقوله: **لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ**.

وأما إيصال الثواب: فهو المراد بقوله: **وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ**.

وأما سعادات الدنيا فقد ذكرناها فى قوله بعد ذلك **وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ**.

٦٦– وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ... الآية

والمعنى: لو أن أصحاب الكتاب عملوا بما فى التوراة والإنجيل وأقاموا الحدود ولم يحرفوا الكلم عن مواضعه.

وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ. أى: القرآن الكريم.

لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم. يعنى: المطر والنبات أى: لوسعنا عليهم فى أرزاقهم وأكلوا أكلا متواصلا.

قال القرطبى:

ونظير هذه الآية قوله تعالى: **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ**. (الطلاق:٢، ٣)

وقوله سبحانه: **وَأَلَّوِ اسْتَقَامُواْ عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا**. (الجن: ١٦)

وقوله عز شأنه: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ . (الأعراف: ٩٦)

فجعل التقوى من أسباب الرزق كما فى هذه الآيات ووعد بالمزيد لمن شكر فقال: لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ . (إبراهيم: ٧)

مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ . وهم المؤمنون منهم كالنجاشى وسلمان، وعبد الله بن سلام وغيرهم من المؤمنين بالرسل السابقين وبمحمد ﷺ، وقيل: أراد بالاقتصاد: قوما لم يؤمنوا ولكنهم لم يكونوا من المؤذين المستهزئين .

وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ . وجماعة كبيرة من أهل الكتاب أكثروا من فعل السيئات، وأعرضوا عن الإيمان وحرَّفوا الكتب وكذبوا الرسل وأكلوا السحت، وكان من حالهم ما يثير العجب والدهشة .

★ ★ ★

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

المفردات :

يَعْصِمُكَ : يحفظك وينجيك.

التفسير :

٦٧- يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِكَ ....

وردت روايات فى سبب نزول هذه الآية، منها: أن رجلاً حاول قتل النبى ﷺ فحال بينه وبين ما يريد، فأنزل الله تعالى هذه الآية، كما ورد فى تفسير ابن كثير . وأورد الفخر الرازى عشرة أقوال فى سبب نزولها ثم قال: واعلم أن هذه الروايات وإن كثرت إلا أن الأولى حمل الآية على أن الله تعالى آمنه من مكر اليهود والنصارى، وأمره بإظهار التبليغ من غير مبالاة منه بهم، وذلك لأن ما قبل هذه الآية بكثير، وما بعدها بكثير لما كان كلاما عن اليهود والنصارى، امتنع إلقاء هذه الآية الواحدة على وجه تكون أجنبية عما قبلها وما بعدها ...

فالآية عامة لتثبيت قلب النبى ﷺ وأمره بالمضى فى تبليغ رسالته بدون خوف من أعدائه .

لقد ناداه الله بعنوان الرسالة فى هذه السورة الكريمة مرتين .

دعاه فى الأولى منها إلى عدم الحزن على مسارعة الكفار فى إنكار رسالته .

ودعاه فى هذه الآية إلى تبليغ جميع ما أنزل عليه من الآيات البينات؛ لعموم رسالته للبشر أجمعين .

والمعنى: يأيها الرسول الكريم، المرسل إلى الناس جميعا، بَلِّغ. أى: أوصل إليهم **مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ** . أى: كل ما أنزل إليك من ربك من الأوامر والنواهى والأحكام والآداب والأخبار .. دون أن تخشى أحدًا إلا الله .

وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ . وإن لم تبلغ كل ما أنزل إليك من ربك؛ كنت كمن لم يبلغ شيئا مما أوحاه الله إليه، لأن ترك بعض الرسالة يعتبر تركا لها كلها، وتقصيرا فى أداء الأمانة، وحاشاه ﷺ أن يقصر فى حق الله تعالى.

جاء فى الصحيحين أن سائلا سأل الإمام عليا رضى الله عنه: هل عندكم شيء من الوحى إلا ما كان فى كتاب الله ؟ فقال: لا والذى فلق الحبة وبرأ النَّسمة إلا فهما يعطيه الله رجلا فى القرآن .[١٥٥]

وروى البخارى والترمذى: «من حدَّثك أن محمدًا كتم شيئا مما أنزل عليه؛ فقد كذب» [١٥٦].

لقد قال الله تعالى **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**. (الحجر: ٩) وفيها دلالة على أن الله تعالى تكفل بحفظ كتابه الذى أمر الرسول بتبليغه فبلغه .

قال الزهرى – فيما رواه البخارى – من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم، وقد شهدت أمته له بتبليغ الرسالة فى حجة الوداع، وقد أدى هذه الشهادة أربعون ألفا حضروا معه حجة الوداع .

وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ . أى: بلغ الرسالة، والله تعالى – يحفظك من كيد أعدائك ويمنعك من أن تعلق نفسك بشيء من شبهاتهم واعتراضاتهم، ويصون حياتك من أن يعتدى عليها أحد بالقتل أو الإهلاك .

وهذا لا ينافى ما تعرض له – ﷺ – من بأساء وضراء وأذى بدني، فقد رماه المشركون بالحجارة حتى سالت دماؤه، وشج وجهه، وكسرت رباعيته فى غزوة أحد، والمراد بالناس هنا: المشركون والمنافقون واليهود ومن على شاكلتهم فى الكفر والضلال والعناد .

ولقد تضمنت هذه الجملة الكريمة معجزة كبرى للرسول ﷺ، فقد عصم الله تعالى حياة الرسول ﷺ من أن يصيبها قتل أو إهلاك على أيدى الناس مهما دبروا له من مكر وكيد، لقد نجاه من كيدهم عندما اجتمعوا لقتله فى دار الندوة ليلة هجرته إلى المدينة .

ونجاه من كيد اليهود عندما هموا بإلقاء حجر عليه وهو جالس تحت دار من دورهم .

ونجاه من مكرهم عندما وضعت إحدى نسائهم السم فى طعام قُدم إليه، إلى غير ذلك من الأحداث التى نجاه الله منها .

وقد أخرج الترمذى والحاكم عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحرس ليلا حتى نزلت وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ . فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة فقال لهم: «أيها الناس، انصرفوا فقد عصمنى الله»

إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ . تذييل قصد به تعليل عصمته ﷺ، وتثبيت قلبه، أى: إن الله – تعالى – لا يهدى القوم الكافرين إلى طريق الحق بسبب عنادهم وإيثارهم العمى على الرشد... ولا يوصلهم إلى ما يريدون من قتلك، ومن القضاء على دعوتك، بل سينصرك عليهم ويجعل العاقبة لك.

★ ★ ★

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

المفردات:

حتى تقيموا : حتى تؤدوا أداء كاملا على أحسن وجه .

طغيانا : الطغيان: تجاوز الحد في الضلال .

فلا تأس : فلا تحزن .

التفسير:

٦٨– قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيءٍ حَتَّى تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ... الآية

ادعى اليهود أنهم على ملة إبراهيم، وأنهم متمسكون بالتوراة وأنهم على الحق والهدى، ولن يؤمنوا بالنبى محمد ﷺ (١٥٧) فأنزل الله تعالى هذه الآية .

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى:

يا أهل الكتاب، لستم على شىء يعتدّ به من العقيدة الصحيحة؛ حتى تلتزموا بما أنزل الله فى التوراة والإنجيل، وحتى تؤمنوا بمحمد ﷺ، ولا تفرقوا بين الرسل .

قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا . (النساء: ١٥٠، ١٥١) .

والمعروف أن اليهود والنصارى حرّفوا التوراة والإنجيل، ولم يعملوا بما بقى بين أيديهم منها، فارتكبوا المنكرات واتبعوا الشهوات .

وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ . أى: لستم على شىء يعتد به من أمر الدين حتى تؤمنوا بما أنزل إليكم من ربكم من قرآن كريم يهدى إلى الرشد .

وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ... أمعن اليهود فى الضلال والإضلال وجاوزوا الحدّ فى الكفر والعناد، وكان الأولى بهم أن يستجيبوا لهداية القرآن ويستمعوا لآياته بقلوب مفتوحة راغبة فى الاستفادة .

لكنهم بدلا من أن يزدادوا إيمانًا بما أنزل الله إليك، ازدادوا إمعانا فى الكفر والطغيان، إلا قليلا منهم استجابوا للحق فآمنوا بما أنزله الله عليك من الآيات البينات، وبقى الكثيرون على ضلالهم القديم .

فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ. أى: إذا كان شأن الكثيرين كذلك فلا تحزن عليهم، ولا تتأسف على القوم الكافرين فإنهم هم الذين استحبوا العمى على الهدى، وحسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين. وليس المراد: نهيه ﷺ عن الحزن والأسى؛ لأنهما أمران طبيعيان لا قدرة للإنسان عن صرفهما، وإنما المراد نهيه عن لوازمهما .

كالإكثار من محاولة تجديد شأن المصائب، وتعظيم أمرها، وبذلك تتجدد الآلام ويحزن القلب.

★ ★ ★

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾

المفردات:

الصابئون: المائلون من عقيدة إلى عقيدة ، والمراد: أتباع بعض الرسالات السماوية السابقة.

التفسير:

٦٩- إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى ... الآية

إن أتباع الديانات السابقة من المؤمنين برسالة محمد ﷺ ومن اليهود المتمسكين برسالة موسى عليه السلام قبل المسيحية ممن لم يحرفوا كتب أنبيائهم .

ومن الصابئين الذين تمسكوا بملة إبراهيم عليه السلام قبل نسخها .

(والصابئة: فرقة تعيش فى العراق ولهم طقوس دينية خاصة بهم، ومن العسير الجزم بحقيقة معتقدهم؛ لأنهم أكتم الناس لعقائدهم. ويقال: إنهم يعبدون الملائكة أو الكواكب) .

ومن المسيحيين الذى تمسكوا بالمسيحية، ولم يحرفوها قبل بعثة محمد ﷺ .

هؤلاء جميعا إذا آمنوا بالله تعالى إيمانا صحيحا غير ملتبس بالشرك، واستمسكوا بهذا الإيمان، واتبعوا أنبياءهم وما جاء على ألسنتهم من التبشير بمحمد ﷺ وآمنوا به عند مبعثه، وآمنوا بالبعث والنشور والجزاء، وعملوا الأعمال الصالحة؛ إن هؤلاء جميعا يظفرون بالثواب الجزيل على ما قدموه من إيمان وعمل صالح .

مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. إن كل من آمن من هؤلاء بالله واليوم الآخر - فإن الله تعالى يرضى عنه ويثيبه ثوابا حسنًا .

ولا خوف على هؤلاء المؤمنين من عقاب ولا يعتريهم حزن من سوء الجزاء فلا يخافون بخسا ولا رهقًا ولا يحزنهم الفزع الأكبر .

يقول الدكتور طنطاوى:

والإيمان المشار إليه فى قوله: مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآَخِرِ . يفسره بعض العلماء بالنسبة لليهود والنصارى والصابئين . بمعنى: صدور الإيمان منهم على النحو الذى قدَّره الإسلام فمن لم تبلغه دعوة الإسلام وكان ينتمى إلى دين صحيح فى أصله بحيث يؤمن بالله واليوم الآخر، ويقوم بالعمل الصالح على الوجه الذى يرشده إليه دينه؛ فله أجره على ذلك عند ربّه .

أما الذين بلغتهم دعوة الإسلام من تلك الفرق، ولكنهم لم يقبلوها فإنهم لا يكونون ناجين من عذاب الله مهما ادعوا أنهم مؤمنون بدين آخر؛ لأن شريعة الإسلام قد نسخت ما قبلها، والرسول ﷺ قال: لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعى [١٥٨].

وبعض العلماء يرى أن معنى مَنْ ءَامَنَ. أى: من أحدث من هذه الفرق إيمانا بالنبى ﷺ وبما جاء من عنده .

قالوا: لأن مقتضى المقام هو الترغيب فى دين الإسلام .

والآية الكريمة مسوقة للترغيب فى الإيمان والعمل الصالح .

وقد بدأت الآية بحرف إنّ وهو حرف ينصب الاسم ويرفع الخبر وكان مقتضى ذلك أن تكون هكذا.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِئِينَ . لكن جمهور القراء قرأها وَالصَّابِئُونَ، وقرأ ابن كثير بالنصب .

ورفع: الصَّابِئُون؛ إبرازا لأنهم أيضا ناجون شأنهم شأن المؤمنين والنصارى واليهود، ودفعا لما يسبق إلى الأذهان من أنهم عبدة أوثان .

وجاء فى حاشية الجمل على الجلالين:

وقوله : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ . أى: إيمانا حقا لا نفاقا، وخبر إن محذوف وتقديره: فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، دلّ عليه المذكور .

وَالَّذِينَ هَادُوا: مبتدأ فالواو لعطف الجمل أو للاستئناف وقوله: وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى عطف على هذا المبتدإ وقوله: فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ. خبر عن هذه المبتدآت الثلاثة وقوله : مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ. بدل من كل منها بدل بعض من كل، فهو مخصص فكأنه قال: «الذين آمنوا من اليهود ومن النصارى والصابئين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فالإخبار عن اليهود ومن بعدهم بما ذكر مشروط بالإيمان لا مطلقا ...» (١٥٩)

★ ★ ★

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

المفردات:

ميثاق: الميثاق؛ العهد القوى.

فتنة: الفتنة: الاختبار بالنار، ومعناها هنا: العذاب.

التفسير:

٧٠ - **لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً** ... الآية

أخذ الله العهد المؤكد على بنى إسرائيل بعبادته وحده وأداء جميع أوامره واجتناب جميع نواهيه .

كما أرسل سبحانه إليهم رسلا ذوى عدد كثير وأولى شأن خطير؛ لكى يتعهدوهم بالتبشير والإنذار، بحيث لم يبق لهم عذر فى مخالفة العهد أو نقض الميثاق، وقد ذكر هذا الميثاق فى أماكن أخرى فى القرآن الكريم .

ففى الآية ١٢ من سورة المائدة يقول سبحانه:

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ .

وقال سبحانه: **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**... (البقرة: ٨٣)

وقل عز شأنه: **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ** ... (البقرة: ٨٤)

كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ . أى: أخذنا الميثاق المؤكد عليهم (١٦٠) وأرسلنا إليهم رسلاً كثيرين لهدايتهم، ولكنهم نقضوا الميثاق، وعصوا الرسل وقابلوهم بالجحود والعدوان والتكذيب، ولم يقتصروا على التكذيب بل قتلوا بعض هؤلاء الرسل .

والتقدير، كلما جاءهم رسول بما يخالف أهواءهم، استكبروا ولجوا فى العناد فكذبوا فريقا من الأنبياء وقتلوا فريقا منهم، كما قال تعالى لهم : ... **أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ** . (البقرة: ٨٧)

٧١- **وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا** ...

فِتْنَةٌ . من الفتن وهو إدخال الذهب فى النار لتظهر جودته .. والمراد بها هنا: الشدائد والمحن والمصائب التى تنزل بالناس .

فَعَمُوا وَصَمُّوا . من العمى الذى هو ضد الإبصار ومن الصمم الذى هو ضدّ السمع، وقد استعير هنا للإعراض عن دلائل الهدى والرشاد التى جاء بها الرسل .

والمعنى: لقد ظن اليهود أنهم لن يصيبهم بلاء بتكذيبهم للرسل وقتلهم لهم فأمنوا عقاب الله وتمادوا في فنون البغي والفساد، وعموا وصموا عن دلائل الهدى و الرشاد التي جاء بها الرسل واشتملت عليها الكتب السماوية .

ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ . أي: ثم تاب الله عليهم قبل توبتهم بعد أن رجعوا عما كانوا عليه من فساد، ثم نكسوا على رءوسهم مرة أخرى فعادوا إلى فسادهم وضلالهم وعدوانهم على أنبيائهم إلا عددا قليلا منهم بقي على توبته وإيمانه .

وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ. أي: والله تعالى عليم بما يعملونه علم من يبصر كل شيء دون أن تخفى عليه خافية، وسيجازيهم على أعمالهم بما يستحقونه من عذاب أليم .

وتفيد الآية: أن فساد اليهود وعماهم وصممهم عن الحق قد حصل مرتين، واختلف المفسرون في المراد بهاتين المرتين على وجوه:

الأول: أنهم عموا وصموا في زمان زكريا ويحيى وعيسى ثم تاب الله عليهم حيث وفق بعضهم للإيمان ثم عموا وصموا كثير منهم في زمان محمد ﷺ .

الثاني: أن العمى الأول كان في زمن بختنصر البابلي، وقد غزاهم سنة ٦٠٦ قبل الميلاد، ثم ساعدهم قورش ملك الفرس سنة ٥٢٦ قبل الميلاد فعادوا لبلادهم وأعادوا بناء هيكلهم .

ثم عموا مرة ثانية؛ فسلط الله عليهم الرومان بقيادة تيطس سنة ٧٠م.

قال القفال [١٦١] : ذكر الله تعالى في سورة الإسراء ما يجوز أن يكون تفسيرا لهذه الآية فقال:

وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَاءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا . (الإسراء: ٤١)

قال الدكتور محمد سيد طنطاوي [١٦٢] بعد أن نقل عن الفخر الرازي آراء المفسرين ثم عقب قائلاً:

«والذي نراه أن تحديد عماهم وصممهم وتوبتهم بزمان معين أو بجريمة أو جرائم معينة تابوا بعدها – هذا التحديد غير مقنع، ولعل أحسن منه أن تقول:

إن القرآن الكريم يصوّر ما عليه بنو إسرائيل من صفات ذميمة وطبائع معوجة، ومن نقض للعهود والمواثيق ... فهم أخذ الله عليهم العهود فنقضوها، وأرسل إليهم الرسل فاعتدوا عليهم، وظنوا أن عدوانهم هذا شيء هين ولن يصيبهم بسببه عقاب دنيوي، فلما أصابهم العقاب الدنيوي كالقحط والوباء والهزائم... بسبب مفاسدهم؛ تابوا إلى الله فقبل الله توبتهم، ورفع عنهم عقابه، فعادوا إلى

عماهم وصممهم - إلا قليلا منهم - وارتكبوا ما ارتكبوا من منكرات بتصميم وتكرار، فأصابهم - سبحانه - بفتن لم يتب عليهم منها ..

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ. (العنكبوت: ٤٠).

★ ★ ★

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢) ﴾

التفسير:

٧٢- لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ... الآية

بعد أن تحدث الله عن اليهود ونقضهم الميثاق، وتكذيبهم وقتلهم الأنبياء، شرع هنا في الكلام عن النصارى فحكى عن فريق منهم أنهم قالوا: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَم .

قال الفخر الرازي : وهذا هو قول اليعقوبية، لأنهم يقولون: إن مريم ولدت إلها، ولعل معنى هذا المذهب أنهم يقولون: إن الله تعالى حلَّ في ذات عيسى واتحد بذات عيسى ا هـ .

والمعنى: أقسم لقد كفر أولئك النصارى الذين قالوا كذبا وزورًا: إن الله المستحق للعبادة هو المسيح ابن مريم مع أنه بشر ولا يصح أن يكون إلها .

ونسبة المسيح إلى مريم، للإيذان بأنه ليس له حظ من الألوهية وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَاءِيلَ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ .

أي: قال المسيح مكذبا من وصفه بالألوهية:

يَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ اعْبُدُواْ اللَّهَ . وحده ولا تشركوا به شيئا فهو ربي الذي خلقني وتعهدني بالتربية والرعاية، وهو ربكم الذي أنشأكم وأوجدكم ورزقكم من الطيبات . ومع أن الأناجيل قد حرفت، لكنها بقيت فيها بقية ناطقة بالتوحيد تؤيد أن المسيح عبد الله ورسوله، ومن ذلك ما قاله المسيح: «وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع: المسيح الذي أرسلته» يوحنا ١٧-٣٠ .

قوله: «وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذى سمعه من الله» .

وقوله: «للرب إلهك نسجد وإياه وحده نعبده» متى ٤ - ١٠ .

وقوله: «ليس لأعمل لمشيئتى بل لمشيئة الذى أرسلنى» يوحنا ٦ - ٣٨ .

إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ . إن الحال والشأن، أن الله حرَم الجنة على من أشرك فى عبادته أحدًا من خلقه، وجعل مَأْوَاهُ النَّار. أى: جعل مستقره ومكانه النار بدل الجنة.

والجملة الكريمة تحذير من الاشراك بالله وبيان عاقبة الشرك فقد جمعت الآية بين العقوبة السلبية وهى حرمان المشرك من الجنة وبين العقوبة الإيجابية وهى الاستقرار فى النار.

وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ. أى: من ظلموا أنفسهم فقابلوا نعم الله المتوالية عليهم بالكفر لا ينقذهم أحد من عقابه ولا تنفعهم شفاعة الشافعين، وهذه الجملة الكريمة، يحتمل أن تكون من كلام عيسى الذى حكاه الله عنه، ويحتمل أن تكون من كلام الله تعالى؛ لتأكيد ما قاله المسيح من دعوته لقومه بعبادة الله وحده والتحذير من الشرك بالله تعالى .

★ ★ ★

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾

التفسير:

٧٣- لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ... الآية

لقد كفر الذين قالوا كذبا وزورا: إن الله واحد من آلهة ثلاثة، والحق أنه ليس فى هذا الوجود إله مستحق للعبادة والخضوع سوى إله واحد وهو الله ربّ العالمين.

جاء فى التفسير الوسيط ما يأتى:

نصت الآية على كفر من قال: إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ.

والتثليث هو العقيدة السائدة بين الطوائف المسيحية، حيث يطلقون على الله - سبحانه - لقب الأب ويشركون معه الابن وهو عيسى، وروح القدس وهو جبريل .

لقد ادعوا أن المسيح ابن الله؛ لأنه ورد وصفه بهذا أربعا وأربعين مرة فى العهد الجديد – وهو يضم الأناجيل الأربعة والرسائل الملحقة بها .

وهذا اللقب لم ينحصر فى المسيح ولم يقتصر عليه، بل أطلق على آدم وعلى إسرائيل، وعلى داود، وعلى الملائكة وعلى المؤمنين جميعا .

ومع هذا فقد ورد أيضا فى العهد الجديد وصف المسيح بما يقرب من ضعفى هذا العدد بأنه ابن الإنسان ثمانية وسبعين مرة[١٦٣] .

وطبيعى أن هذين الوصفين يهدمان البنوة بمعنى الألوهية وإذا انهدمت البنوة فقد انهدمت تبعا لها الأبوة .

أما روح القدس : فهو جبريل عليه السلام، وهو من الملائكة المقربين، وهو بهذا من خلق الله وكلامهم فيه مضطرب مختل .

وأمَّا كلمة التثليث: فقد اعترف كبار علماء اللاهوت – فى قاموس الكتاب المقدس – أنها « لم ترد فى الكتاب المقدس، ويظن أن أول من صاغها واخترعها واستعملها ترتيليان فى القرن الثاني للميلاد، وقد خالفه كثيرون ولكن مجمع نيقية أقر التثليث سنة ٣٢٥ ميلادية، ثم استقر التثليث بعد ذلك عند الكنيسة المسيحية، على يد أوغسطنيوس فى القرن الخامس[١٦٤] .

ومن هنا يتضح أن التثليث نبت بعد المسيح عليه السلام بأكثر من ثلاثة قرون وربع القرن، وأنه دخيل على المسيحية الحقة الموحدة .

وبهذا استحق القائلون به الحكم بالكفر الصريح، وقال كبار الباحثين: إن التثليث تسرب إلى المسيحية من العقائد الوثنية الهندية القديمة .

وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ . والحق أنه لا يمكن عقلا أن يكون الإله إلا واحدًا .

أما تعدد الآلهة فهو وصم لها بالقصور والحاجة إلى الآخرين، ولو كان كل واحد قادرا على ما يخلق الآخرون فما فائدة التعدد، ولو كان كل واحد منهم عاجزا فلا يصلحون جميعا للألوهية، وإن كان البعض قادرًا والبعض عاجزًا فالقادر هو الإله وحده .

وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أى: وإن لم يرجع هؤلاء الذين قالوا بالتثليث عن عقائدهم الزائفة وأقوالهم الفاسدة، ويعتصموا بعروة التوحيد .

لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أى: ليصيبن الذين استمروا على الكفر منهم عذاب شديد .

وهذه الجملة تحذير من الله تعالى لهم عن الاستمرار فى هذا القول الكاذب، والاعتقاد الفاسد الذى يتنافى مع الرأى السديد والفكر القويم .

٧٤- أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ... الآية

هذه دعوة من الله لهم إلى التوبة من معتقداتهم الفاسدة. والفاء للعطف على مقدر يقتضيه الكلام. أى: أيسمعون ما يسمعون من الحق الذى يزهق باطلهم ومن النذر التى ترقق القلوب .. فلا يحملهم ذلك على التوبة والرجوع إلى الله وطلب مغفرته .

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . والحال أنه سبحانه عظيم المغفرة واسع الرحمة يقبل توبة التائبين ويغفر للنادمين ويرحم كل من جاء إليه. قال تعالى : غَافِرُ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ . (غافر: ٣) .

★ ★ ★

﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾

التفسير:

٧٥- مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ... الآية

ناقشت آيات سابقة اليهود ثم أتبعت ذلك بمناقشة النصارى فى تأليه المسيح . وهنا تفيد الآيات أن عيسى عليه السلام رسول من البشر كسائر الرسل الذين سبقوه، مثل: نوح وإبراهيم وموسى وغيرهم من الرسل الذين مضوا دون أن يدعى أحد منهم الألوهية، وأما أم عيسى فما هى إلا أمة من إماء الله كسائر النساء ديدنها الصدق مع خالقها عز وجل، أو التصديق له فى سائر أمورها .

ونسبة عيسى إلى مريم للدلالة على أنه ولد من غير أب، فإن الولد ينسب إلى أبيه لا إلى أمه وللدلالة على بشريته وبشريتها فإن التوالد من صفات البشر .

والأناجيل التى بين أيدينا تؤيد ما ذكره القرآن الكريم .

فقد جاء فى إنجيل يوحنا ١٧ – ٣ – أن المسيح قال مخاطبا ربه : «أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته» .

وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ. الصديق: هو الذى يلتزم الصدق والحق .

ومريم من سلالة طاهرة . ونشأت فى بيئة طيبة .

وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ . (التحريم : ١٢) .

كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ. وأكل الطعام : يستدعى الحاجة إليه للانتفاع به ويستدعى شرب الماء والإخراج وغير ذلك من صفات البشر .

قال الزمخشرى : لأن من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم والنفض، لم يكن إلا جسما مركبا من عظم ولحم وعروق وأعصاب وأخلاط وأمزجة مع شهوة ... وغير ذلك مما يدل على أنه مصنوع مؤلف كغيره من الأجسام وحاشا للإله أن يكون كذلك [١٦٥] .

انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . أى: انظر يا محمد : كيف نبين لهم الأدلة المنوعة على حقيقة عيسى وأمه بيانا واضحا ظاهرًا .

ثم انظر بعد ذلك كيف ينصرفون عن الإصاخة إليها والتأمل فيها لسوء تفكيرهم، واستيلاء الجهل والوهم والعناد على عقولهم .

قال ابن الجوزى فى زاد المسير **يُؤْفَكُون**: يُصرفون عن الحق ويَعدلون يقال : أفك الرجل عن كذا: إذا عدل عنه، وأرض مأفوكة : محرومة المطر والنبات . كأن ذلك صرف عنها وعدل .

٧٦ – قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا ... الآية

أى: قل يا محمد لهؤلاء الضالين من النصارى وأشباههم فى الكفر والشرك – قل لهم: أتعبدون معبودات غير الله تعالى، هذه المعبودات التى لا تملك أن تصيبكم بشىء من الضرر كالمرض والفقر، ولا تملك أيضا أن تنفعكم بشىء من النفع كبسط الرزق ودفع الضرّ وغير ذلك مما أنتم فى حاجة إلى.

فالآية الكريمة تنفى أن يكون هناك إله سوى الله تعالى يستحق العبادة والخضوع لأنه سبحانه هو المالك لكل شىء والخالق لكل شىء . **أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** . (الأعراف: ٥٤)

وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . أى: كيف تعبدون من لا يسمع نجواكم، ولا يعلم أموركم الخفية، ونياتكم الباطنة وتتركون عبادة الله المحيط علمه بالأمور والشئون وهو سبحانه يعلم السر وأخفى ؟ .

★ ★ ★

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

التفسير:

٧٧- قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ... الآية

بين الله فيما سبق انحراف اليهود والنصارى عن دينهم القويم ثم دعاهم إلى التوبة والاستغفار .

وهنا ينهاهم عن الغلو فى الدين ومجاوزة الحدّ .

قال الزمخشرى: دلت الآية على أن الغلو فى الدين غلوَّان: غلو حق: وهو أن يفحص عن حقائقه، ويفتش عن أباعد معانيه، ويجتهد فى تحصيل حججه كما يفعل المتكلمون ... وغلو باطل: وهو أن يتجاوز الحق ويتخطاه بالإعراض عن الأدلة واتباع الشبه كما يفعل أهل الأهواء والبدع والضلال[١٦٦].

ومعنى الآية : قل لهم يا محمد، يأهل الكتاب لا ينبغى لكم أن تتجاوزوا القصد، ولا أن تخرجوا عن الحق والصواب كأن تعبدوا غير الله مع أنه هو الذى خلقكم ورزقكم، وكأن تصفوا عيسى بأوصاف هو برىء منها .

روى أحمد والنسائى وابن ماجه عن النبى ﷺ قال: «إياكم والغلو فى الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلوّ فى الدين » [١٦٧] .

وروى البخارى عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، وإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله» [١٦٨] .

وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ . أى: لا ينبغى لكم أن تنقادوا لشهوات الأحبار والرهبان من أسلافكم وعلمائكم ورؤسائكم الذين قد ضلوا من قبل بعثة النبى ﷺ؛ بتحريفهم للكتب السماوية .

فأضلوا كثيرًا ممن اتبعوهم وقلدوهم ووافقوهم على أكاذيبهم .

وَضَلُّواْ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ . أى: عن الطريق الواضح الذى أتى به النبى ﷺ وهو طريق الإسلام .

٧٨- لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِى إِسْرَاءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ... الآية

اللعن هو الطرد من رحمة الله .

والمعنى: لعن الله الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان نبيين كريمين هما داود وعيسى عليهما السلام. أى: لعنهم الله سبحانه فى الزبور على لسان داود، وفى الإنجيل على لسان عيسى.

وقد كان داود قائدا مظفرًا قادهم إلى النصر بعد الهزيمة ومهد لم الملك .

وعيسى عليه السلام آخر أنبيائهم، وقد لقى منهم أشد أنواع الإيذاء، وقد حاولوا قتله فنجّاه الله من كيدهم الأثيم، ولذا سماهم عيسى: أولاد الأفاعى[١٦٩] .

وقيل: إن أهل أيلة لما اعتدوا فى السبت قال داود:

اللهم ألبسهم اللعنات مثل: الرداء ومثل المنطقة على الحقوين؛ فمسخهم الله قردة .

وأصحاب المائدة لما كفروا بعيسى؛ قال: اللهم عذب من كفر من أصحاب المائدة عذابا لم تعذبه أحدًا من العالمين، والعنهم كما لعنت أصحاب السبت[١٧٠] .

ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ . أى: استحقوا اللعن والطرد بسبب عصيانهم وتمردهم واستمرارهم فى البغى والعدوان حتى كذبوا بعض أنبيائهم، وقتلوا بعضهم، وبالغوا فى إيذاء الآخرين .

٧٩- كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ... الآية

أى: أن من مظاهر عصيان الكافرين من بنى إسرائيل أنهم أهملوا واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، بل كانوا يرون المنكرات ترتكب فيسكتون عليها بدون استنكار مع قدرتهم على منعها قبل وقوعها وهذا شر ما تصاب به الأمم فى حاضرها ومستقبلها: أن تفشو فيها المنكرات والرذائل فلا تجد من يستطيع تغييرها وإزالتها .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ لأنهما قوام الأمم، وسياج الدين .

روى الشيخان عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ : «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» (١٧١) .

وقد مدح الله أمة الإسلام بخصيصة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، قال تعالى: كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . (آل عمران: ١١٠)

وروى الإمام أحمد والترمذى، وأبو داود عن النبى ﷺ قال: «لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى، نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم فى مجالسهم أو فى أسواقهم وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون» (١٧٢) .

وكان ﷺ متكئا فجلس – فقال: لا والذى نفسى بيده، حتى تأطروهم على الحق أطرا» (١٧٣). أى: تحملوهم على الحق حملا .

وفى رواية لأبى داود وابن ماجه والترمذى: «والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرًا، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض، ثم يلعنكم كما لعنهم» (١٧٤).

لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ . واللام فى لبئس لام القسم .

أى: أقسم لبئس ما كانوا يفعلون، وهو ارتكاب المعاصى والعدوان وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

قال صاحب الكشاف:

قوله: لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ . للتعجب من سوء فعلهم مؤكدا لذلك بالقسم، فيا حسرة على المسلمين فى إعراضهم عن باب التناهى عن المناكير، وقلة عبثهم به، كأنه ليس من ملة الإسلام فى شىء مع ما يتلون من كلام الله وما فيه من المبالغات فى هذا الباب .

★ ★ ★

﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١) ﴾

المفردات :

يتولون : يوالون ويناصرون .

سخط : غضب غضبا شديدا .

أولياء : نصراء .

فاسقون : خارجون عن شعائر الدين .

التفسير :

٨٠- تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ... الآية

أى: ترى أيها الرسول الكريم كثيرا من بنى إسرائيل يوالون مشركى قريش ومنافقى المدينة وكانوا على صلات وثيقة بالروم فهم يوالون كل مناهض للإسلام؛ حسدًا للرسول الكريم وكراهية للإسلام والمسلمين .

والذى يقرأ تاريخ الدعوة الإسلامية يرى أن اليهود كانوا دائما يضعون العراقيل فى طريقها ويناصرون كل محارب لها، ففى غزوة الأحزاب انضم بنو قريظة إلى المشركين ولم يقيموا وزنا للعهود والمواثيق التى كانت بينهم وبين المسلمين، وظلت عداوة اليهود للإسلام والمسلمين مستمرة فى الماضى والحاضر، قال تعالى: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا. (المائدة: ٨٢) ونشاهد الآن فى فلسطين ثورة الحجارة: وقيام اليهود بالقتل والقمع، والعدوان على الشباب والشيوخ والأطفال الأبرياء والنساء .

وفى الحديث الصحيح : «لن تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود فيختبئ أحدهم وراء الحجر فيقول الحجر يا عبد الله هذا يهودى ورائى فاقتله» .

لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ . أى: لبئس ما قدمت لهم أنفسهم من أقوال كاذبة وأعمال قبيحة وأفعال منكرة استحقوا بسببها سخط الله عليهم .

وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ . أى: وسيكون جزاءهم على هذا فى الآخرة الخلود فى النار ومقاساة عذابها الأليم .

٨١- وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ... ولو كان هؤلاء اليهود يؤمنون بالله ربا وخالقا، وبنبىّ الله موسى، ويؤمنون بالتوراة التى أنزلها الله عليه إيمانا سليما ولو كانوا مؤمنين هذا الإيمان الصادق؛ لكفوا عن اتخاذ الكافرين أولياء وأصفياء؛ لأن تحريم موالاتهم للمشركين متأكدة فى التوراة وفى كل شريعة أنزلها الله على نبىّ من أنبيائه .

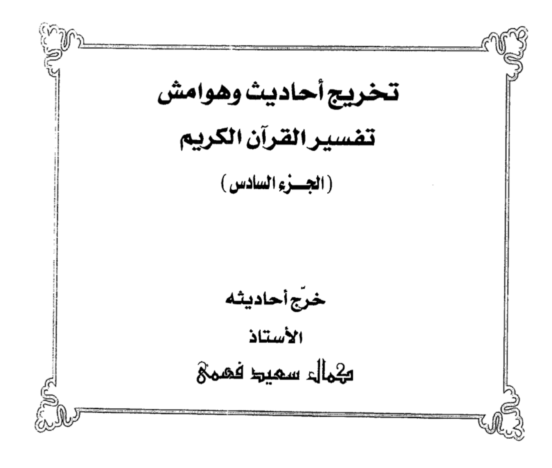
وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ . أى: ولكن أكثر اليهود، خرجوا عن الجادة، وانحرفوا عن الديانة الحقة إلى موالاة الكافرين ومعاداة المؤمنين، وقد ذكَر سبحانه وصف الكثيرين منهم بالصفات الذميمة؛ إنصافا للقلة المؤمنة، وتمييزا لها عن تلك الكثرة الكافرة الفاسقة .

إن الآيات الكريمة السابقة تحدثت طويلا عن أهل الكتاب عامة وعن اليهود خاصة فذكرت نقضهم للعهود والمواثيق التى أخذها الله عليهم، وذكرت دعاواهم الباطلة ومسالكهم الخبيثة لكيد الإسلام والمسلمين وتحدثت عن المصير المؤلم الذى ينتظرهم، كما سلك القرآن الكريم منهجا قويما فى دعوتهم إلى الدين الحق وإلى التصديق بالنبى محمد ﷺ .

خاتمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

★ ★ ★



تخريج أحاديث وهوامش

تفسير القرآن الكريم

(الجـــزء السادس)

خرّج أحاديثه

الأستاذ

كمال سعيد فهمي

(١) اللهم اشدد وطأتك على مضر:

رواه البخارى فى الأذان ح ٨٠٤، ومسلم فى المساجد ح ٦٧٥، والنسائى فى التطبيق ح ١٠٧٤، وأبو داود فى الصلاة ح ١٤٤٢، وابن ماجه فى إقامة الصلاة ح ١٢٤٤، وأحمد ح ٧٢١٩، ٧٤١٥، والدارمى فى الصلاة ح ١٥٩٥.

(٢) لا تسبخى عنه:

رواه أبو داود فى الصلاة (١٤٩٧) وفى الأدب (٤٩٠٩) وأحمد فى مسنده (٢٣٦٦٣، ٢٤٥٣٠، ٢٤٥٣١، ٢٥٢٧٠) من حديث عائشة قالت سرقت ملحفة لها فجعلت تدعو على من سرقها فجعل النبى ﷺ يقول لا تسبخى عنه قال أبو داود لاتسبخى أى لاتخففى عنه.

(٣) جاء فى محيط المحيط:

سَبَّخ عنه الحمى خففها ومنه قول الشاعر:

فسبخ عليك الهمّ واعلم بأنه إذا قدّر الرحمن شيئا فكائن

وسبَّخ الحرَّ سكّنه، وسبَّخ العِرق سكن من ضربان وألم. وسبَّخ الحر سكن وفتر.

(٤) التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية، الحزب الحادى عشر ص ٩٥٠.

(٥) ما نقص مال من صدقة

رواه مسلم فى البر والصلة ح ٢٥٨٨، والترمذى فى البر والصلة ٢٠٢٩، وأحمد ح ٧١٦٥، ٨٧٨٢، والدارمى فى الزكاة ح ١٦٧٦ من حديث أبى هريرة، وقال الترمذى: حديث حسن صحيح.

(٦) تفسير الفخر الرازى ٩٠/١.

(٧) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، تفسير سورة النساء، للدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر، ص ٤٨٤ ط ٢.

(٨) تفسير القرطبى ٦ / ٤.

(٩) تفسير الطبرى ٧/٦.

(١٠) قيل لبنى إسرائيل ادخلوا الباب سجدا:

رواه البخارى فى كتاب أحاديث الأنبياء (٣٤٠٣) وفى التفسير (٤٤٧٩، ٤٦٤١) ومسلم فى التفسير (٣٠١٥) والترمذى فى التفسير (٩٩٩٦) وأحمد (٢٧٤٤٩) من حديث أبى هريرة.

(١١) د. محمد سيد طنطاوى. تفسير سورة النساء ص ٤٩٦ ط ٢.

(١٢) د. محمد سيد طنطاوى تفسير سورة النساء ص ٤٦٨.

(١٣) تفسير الآلوسى ١٠/٦، وقد ورد ذلك أيضا فى إنجيل برنابا.

(١٤) تفسير ابن كثير ٥٧٤/١.

(١٥) جاء فى إنجيل متى إصحاح ٢٦ فقرة ٣١ وإنجيل مرقص ١٤ فقرة ٢٧ - أن السيد المسيح قال لحوارييه (كلكم يشكون فى هذه الليلة) يقصد الليلة التى قتل فيها، وهذا مصدق لما جاء فى القرآن من شكهم فيه.

(١٦) صفوة التفاسير للأستاذ محمد على الصابونى ١ / ٣١٧.

(١٧) ﴿لكن﴾ حرف استدراك مهمل، و﴿الراسخون﴾ مبتدأ خبره جملة ﴿أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما﴾ وما بينهما صفات للراسخين في العلم من جهة المعنى، ولكنها عطفت عليها تنزيلا للاختلاف في العنوان منزلة الاختلاف في الذات.

(١٨) المقيمين وصف في المعنى لكلمة ﴿الراسخون﴾ وقد عدل عن رفعه بالعطف إلى قطعة ونصبه لإرادة المدح، وفي مصحف عبد الله ابن مسعود ﴿والمقيمون﴾ وقد آثرها سيد قطب في تفسيره.

(١٩) البحر المحيط ٣/ ٣٩٨.

(٢٠) رسالة التوحيد للأستاذ الإمام محمد عبده ص ١١٧ وما بعدها نقلا عن تفسير سورة النساء للدكتور محمد سيد طنطاوى ص ٥٢١.

(٢١) تفسير ابن جرير الطبرى ٣١/٦.

(٢٢) فى ظلال القرآن ١٦/٦.

(٢٣) يقول صاحب رسالة الأصول والفروع أحد شراح العقيدة المسيحية: (قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا، ونرجو أن نفهمه فهما أكثر جلاءً في المستقبل حين ينكشف لنا الحجاب عن كل ما في السماوات والأرض).. نقلا عن كتاب النصرانية للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة. ا هـ وانظر في ظلال القرآن ٦ / ١٨.

(٢٤) لا تطرونى كما أطرت:

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٤٥) (٦٨٣٠) والدارمى فى الرقاق (٢٧٨٤) وأحمد فى مسنده (١٥٥، ١٦٥، ٣٣٣) من حديث عمر قال قال رسول الله ﷺ لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم عليه السلام فإنما أنا عبد فقولوا عبده ورسوله.

(٢٥) مجلة لواء الإسلام السنة ١٨ العدد ٩ تفسير القرآن الكريم للشيخ محمد أبو زهرة.

(٢٦) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٦ / ١٩

(٢٧) تفسير الكشاف ١ / ٥٩٤.

(٢٨) انظر تفسير الآلوسى ٦ / ٢٦ - ٣٦، وتفسير القاسمى ٥ / ١٧٦٥.

(٢٩) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٢١/٦.

(٣٠) تفسير الفخر الرازى ١١٩/١١ طبعة عبدالرحمن محمد.

(٣١) القرآن صراط الله المستقيم:

رواه الترمذى فى كتاب فضائل القرآن (٢٩٠٦)، والدارمى فى كتاب فضائل القرآن (٣٣٣١)، وأحمد (٧٠١) من حديث على بن أبى طالب. قال الترمذى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول وفى الحارث مقال. قال السيوطى فى «الدر»: وأخرج ابن أبى شيبة والدارمى والترمذى وضعفه وابن جرير وابن أبى حاتم وابن الأنبارى فى المصاحف وابن مردويه والبيهقى فى شعب الإيمان عن على.. فذكره. قلت: وذكره الفتنى فى تذكرة الموضوعات وقال: موضوع.

(٣٢) تفسير أبى السعود ١ / ٤٠١.

(٣٣) اهتم العلماء بأسباب نزول الآيات وتاريخ نزولها وبيان ما نزل منها نهارا وما نزل ليلا وما نزل شتاء وما نزل صيفا وما نزل بالمدينة وما نزل بأماكن أخرى غير مكة والمدينة. وهى عناية بالغة تكاد أن تجعل لكل آية سجلا خاصا وذلك من حفظ الله لكتابه، ومن الكتب التى عنيت بذلك، كتاب أسباب النزول للواحدى وكتاب أسباب النزول للسيوطى. ومن كتب علوم القرآن: كتاب البرهان فى علوم القرآن لبدر الدين الزركشى. والإتقان فى علوم القرآن لجلال الدين السيوطى.

(٣٤) للسيد رشيد رضا فى تفسير المنار طريقة حكيمة في اتباع تفسيره المطول بخلاصة للسورة. وأنصح بمراجعة هذه الخلاصة قبل قراءة تفسير المنار. وانظر خلاصة سورة المائدة جـ ٧ ص ٢٧٦، فقد استعنت بها فى كتابة هذا الموضوع. وانظر أيضا تفسير القرآن الكريم للإمام محمود شلتوت ص ٢٧٥ ط ٣.

(٣٥) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٦ / ٢٦

(٣٦) المرجع السابق

(٣٧) انظر مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى ١ / ٤٧٧.

(٣٨) انصر أخاك ظالماً أو:

رواه البخارى فى المظالم (٢٤٣٣، ٢٤٤٤) وفى الإكراه (٩٦٥٢) والترمذى فى الفتن (٢٢٥٥) وأحمد فى مسنده (١١٥٣٨، ١٢٦٦٦) من حديث أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ انصر أخاك ظالما أو مظلوما قالوا يا رسول الله هذا ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما قال تأخذ فوق يديه. رواه مسلم فى البر (٢٥٨٤) والدارمى فى الرقاق (٢٧٥٣) من حديث جابر أن رسول الله ﷺ قال لينصر الرجل أخاه ظالما أو مظلوما فإن كان ظالما فلينهه فإنه له نصرة وإن كان مظلوما فلينصره.

(٣٩) من دعا إلى هدى:

رواه مسلم فى العلم ٢٦٧٤، وابن ماجه فى المقدمة ٢٠٦، والدارمى في المقدمة ٥١٣، وأبو داود فى السنة ٤٦٠٩، وأحمد ٨٩١٥، والترمذى فى العلم ٢٦٧٤ من حديث أبى هريرة. ورواه ابن ماجه فى المقدمة ٢٠٥ من حديث أنس إلا أنه بلفظ: أيما داع دعا إلى ضلالة فاتبع فإن له مثل أوزار من اتبعه ولا ينقص من أوزارهم شيئاً وأيما داع دعا إلى هدى فاتبع فإن له مثل أجور من اتبعه ولا ينقص من أجورهم شيئا.

(٤٠) فى ظلال القرآن ٦/ ٢٨.

(٤١) إذا هم أحدكم بالأمر - الاستخارة -:

البخارى فى الجمعة ١١٦٦، وفى الدعوات (٦٣٨٢)، وفي التوحيد ٧٣٩٠ وأبو داود فى الصلاة (١٥٣٨)، والترمذى فى الصلاة (٤٨٠) والنسائى فى النكاح ٣٢٥٣، وابن ماجه فى إقامة الصلاة ١٣٨٣، وأحمد ١٤٢٧٩. كلهم من حديث جابر ومعنى «فاقدره لى»: أى اجعله مقدورا لى، أو قدره. وقيل: معناه يسره لى.

(٤٢) إذا أرسلت كلبك المعلم:

رواه البخارى فى الوضوء (١٧٥) وفي الذبائح (٥٤٧٥، ٥٤٧٦، ٥٤٨٥، ٥٤٨٦) ومسلم فى الصيد (١٩٢٩) وأبو داود فى الصيد (٢٨٥٤) والترمذى فى الصيد (١٤٧٠) والنسائى فى الصيد (٤٢٦٣) والدارمى فى الصيد (٢٠٠٢) وأحمد فى مسنده (١٧٧٨١، ١٨٨٨٢، ١٨٩٠٠) من حديث عدى بن حاتم قال سألت النبى ﷺ فقال: «إذا أرسلت كلبك المعلم فقتل فكل وإذا أكل فلا تأكل فإنما أمسكه على نفسه. قلت: أرسل كلبى فأجد معه كلبا آخر. قال: فلا تأكل فإنما سميت على كلبك ولم تسم على كلب آخر». ورواه البخارى فى الذبائح (٥٤٧٨، ٥٤٨٨، ٥٤٩٦) وأبو داود فى الصيد (٢٨٥٢، ٢٨٥٥، ٢٨٥٦) والترمذى فى الصيد (١٤٦٤) وفى السير (٣٩٨٣) وفى الأطعمة (١٧٩٧) (١٧٢٧٩، ١٧٢٨٣، ١٧٢٩٦) وابن ماجه فى الصيد (٣٢٠٧) من حديث أبى ثعلبة الخشنى قال قال رسول الله ﷺ فى صيد الكلب إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل وإن أكل منه وكل ما ردت عليك يداك.

(٤٣) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى ٤٨٥/١

والتفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية حزب١ ١ ص ١٠١٨، وصفوة التفاسير للأستاذ محمد على الصابونى ٣٢٨/١، وفى تفسير ابن كثير عن صحيح البخارى عن عائشة أنهم قالوا يا رسول الله إن قوما يأتوننا حديث عهدهم بكفر بحلمان لا ندرى أذكر اسم الله عليها أم لا؟ فقال: (سموا أنتم وكلوا).

(٤٤) كل ما شئت والبس ما شئت:

ذكره البخارى تعليقًا فى اللباس باب قول الله تعالى: ﴿قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده﴾ وقال ابن عباس كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك اثنتان سرف أو مخيلة.

(٤٥) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٣٢/٦ بتصرّف واختصار .

(٤٦) إذا توضأ العبد المسلم خرج من وجهه:

رواه مسلم فى الطهارة (٢٤٤) والترمذى فى الطهارة (٢) ومالك فى الموطإ كتاب الطهارة (٦٣) والدارمى في الطهارة (٧١٨) وأحمد فى مسنده (٧٩٦٠) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقيا من الذنوب.

(٤٧) ويل للأعقاب من النار:

رواه البخارى فى العلم (٦٠، ٩٦) وفى الوضوء (١٦٣) ومسلم فى الطهارة (٢٤١) وأبو داود فى الطهارة (٩٧) والنسائى فى الطهارة (١١١) وابن ماجه فى الطهارة (٤٥١) والدارمى فى الطهارة (٧٠٦) وأحمد فى مسنده (٦٧٧٠) من حديث عبد الله بن عمرو قال تخلف عنا النبى ﷺ فى سفرة سافرناها فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاة ونحن نتوضأ فجعلنا نمسح على أرجلنا فنادى بأعلى صوته ويل للأعقاب من النار مرتين أو ثلاثا. رواه البخارى فى الوضوء (١٦٥) ومسلم في الطهارة (٢٤٢) والترمذى فى الطهارة (٤١) وابن ماجه فى الطهارة (٤٥٣) وأحمد فى مسنده (٧٠٨٢) من حديث أبى هريرة قال أسبغوا الوضوء فإن أبا القاسم ﷺ قال ويل للأعقاب من النار. رواه مسلم فى الطهارة (٢٤٠) وأحمد فى مسنده (٢٣٩٥٥) من حديث سالم مولى شداد قال دخلت على عائشة زوج النبى ﷺ يوم توفى سعد بن أبى وقاص فدخل عبدالرحمن بن أبى بكر فتوضأ عندها فقالت يا عبدالرحمن أسبغ الوضوء فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول ويل للأعقاب من النار. ورواه أحمد فى مسنده (١٣٩٨٣) من حديث جابر قال رأى رسول الله ﷺ قوما يتوضئون فلم يمس أعقابهم الماء فقال ويل للأعقاب من النار.

(٤٨) سبب نزول صلاة الخوف:

رواه مسلم فى صلاة المسافرين (٨٤٠) من حديث جابر قال غزونا مع رسول الله ﷺ قوما من جهينة فقاتلونا قتالا شديدا فلما صلينا الظهر قال المشركون لو ملنا عليهم ميلة لاقتطعناهم فأخبر جبريل رسول الله ﷺ ذلك فذكر ذلك لنا رسول الله ﷺ قال وقالوا إنه ستأتيهم صلاة هى أحب إليهم من الأولاد فلما حضرت العصر قال صفنا صفين والمشركون بيننا وبين القبلة قال فكبر رسول الله ﷺ وكبرنا وركع فركعنا ثم سجد وسجد معه الصف الأول فلما قاموا سجد الصف الثانى ثم تأخر الصف الأول وتقدم الصف الثانى فقاموا مقام الأول فكبر رسول الله ﷺ وكبرنا وركع فركعنا ثم سجد معه الصف الأول وقام الثانى فلما سجد الصف الثانى ثم جلسوا جميعا سلم عليهم رسول الله ﷺ وقال أبو الزبير ثم خص جابر أن قال كما يصلى أمراؤكم هؤلاء.

(٤٩) سفر أرمياء: ٧، ٨ – ١١

(٥٠) إنجيل متى: إصحاح: ٢٣ فقرة: ١٣ ، ١٤ ، ٢٧، ٢٣ - ٣٥

(٥١) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٦ / ٤١

(٥٢) التسهيل ١٧٢/١

(٥٣) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٤٣/٦

(٥٤) مختصر تفسير ابن كثير ٥٠٠/١ تحقيق محمد على الصابونى.

(٥٥) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٤٣/٦.

(٥٦) مختصر تفسير ابن كثير ٥٠٠/١.

(٥٧) أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم:

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٤٢، ٣٤٤٣) ومسلم فى الفضائل (٢٣٦٥) وأبو داود فى السنة (٤٦٧٥) (٢٧٤٦٨، ٢٧٢٤٠) من حديث أبى هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول أنا أولى الناس بابن مريم والأنبياء أولاد علات ليس بينى وبينه نبى.

(٥٨) من أصبح منكم آمنا فى سربه:

رواه الترمذى فى الزهد (٢٣٤٦) وابن ماجه فى الزهد (٤١٤١) من حديث سلمة بن عبيد الله بن محصن الخطمى عن أبيه وكانت له صحبة قال قال رسول الله ﷺ من أصبح منكم آمنا في سربه معافى فى جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا. قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث مروان بن معاوية، وحيزت جمعت.

(٥٩) التسهيل ١٧٣/١.

(٦٠) راجع القصة بتمامها في سفر العدد - إصحاح ١٣، ١٤، ١٥ (لتطلع على جبنهم وهلعهم وما صاحب ذلك من الأساطير).

(٦١) تفسير الكشاف ١٢٦/١

(٦٢) تفسير الفخر الرازى ١٩٩/١١

(٦٣) تفسير الفخر الرازى ١١ / ١٩٧.

(٦٤) مقدمة ابن خلدون.. نقلا عن تفسير سورة المائدة د. محمد سيد طنطاوى ص ١٥٠.

(٦٥) تفسير المنار جـ ٦ ص ٣٣٧ - بتصرف وتلخيص -.

(٦٦) هذا المعنى مستخلص من تفسير الطبرى وتفسير ابن كثير.

(٦٧) إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل:

رواه البخارى فى المغازى (٣٩٥٢) وفى التفسير (٤٦٠٩) وأحمد فى مسنده (٣٦٩٠) من حديث ابن مسعود قال شهدت من المقداد بن الأسود مشهدا لأن أكون صاحبه أحب إلى مما عدل به أتى النبى ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال لا نقول كما قال قوم موسى (اذهب أنت وربك فقاتلا) ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك فرأيت النبى ﷺ أشرق وجهه وسره يعنى قوله. ورواه أحمد فى مسنده (١١٦١١) من حديث أنس قال لما سار رسول الله ﷺ إلى بدر خرج فاستشار الناس فأشار عليه أبو بكر رضى اللهم عنهم ثم استشارهم فأشار عليه عمر رضي اللهم عنهم فسكت فقال

رجل من الأنصار إنما يريدكم فقالوا يا رسول الله والله لا نكون كما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ولكن والله لو ضربت أكباد الإبل حتى تبلغ برك الغماد لكنا معك.

(٦٨) جاء في التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر: لم نجد سندا لذلك في السنة.

(٦٩) تفسير القرطبي ٦ / ١٢٠ نقلا عن أبي حيان.

(٧٠) تفسير القرطبي ١٣٨/٦.

(٧١) لاتقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم:

البخارى فى الأنبياء ٣٣٣٦، وفى الديات ٦٨٦٧، وفى الاعتصام ٧٣٢١، مسلم فى القسامة ١٦٧٧، الترمذى فى العلم ٢٦٧٣، النسائى فى تحريم الدم ٣٩٨٥، ابن ماجه فى الديات ٢٦١٦، وأحمد ٣٦٢٣، ٤٠٨١، ٤١١٢.

(٧٢) تفسير القرطبي ١١٥/٦.

(٧٣) تفسير القرطبي ١١٥/٦.

(٧٤) الندم توبة:

رواه ابن ماجه فى الزهد (٤٢٥٢) وأحمد فى مسنده (٣٥٥٨، ٤٠٠٢) من حديث ابن معقل قال دخلت مع أبى على عبدالله فسمعته يقول قال رسول الله ﷺ الندم توبة فقال له أبى أنت سمعت النبى ﷺ يقول توبة قال نعم. قال العراقى فى تخريج الإحياء: أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن مسعود، ورواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين. قال المناوى فى الفيض: قال فى شرح الشهاب هو حديث صحيح وقال ابن حجر فى الفتح حديث حسن.

(٧٥) تفسير المنار ٦ / ٣٤٧.

(٧٦) تفسير القرطبي ١٤٦/٦.

(٧٧) مادة التفعيل لما فيه من الزيادة على القصاص، من أنه لا يسقط بالعفو، لكونه حق الشرع، والمراد من التصليب: التصليب مع القتل.

(٧٨) الحسم: الكي لمنع سيلان الدم.

(٧٩) نهى رسول الله ﷺ عن المثلة:

رواه البخارى فى المظالم (٢٤٧٤) وفى الذبائح (٥٥١٦) وأحمد فى مسنده (١٨٢٦٥) من حديث عبدالله بن يزيد الأنصارى قال نهى النبى ﷺ عن النهبى والمثلة. ورواه النسائى فى تحريم الدم (٤٠٤٧) من حديث أنس قال كان رسول الله ﷺ يحث فى خطبته على الصدقة وينهى عن المثلة. ورواه أبو داود فى الجهاد (٢٦٦٧) من حديث الهياج بن عمران أن عمران أبق له غلام فجعل لله عليه لئن قدر عليه ليقطعن يده فأرسلنى لأسأل له فأتيت سمرة بن جندب فسألته فقال كان نبى الله ﷺ يحثنا على الصدقة وينهانا عن المثلة فأتيت عمران بن حصين فسألته فقال كان رسول الله ﷺ يحثنا على الصدقة وينهانا عن المثلة. ورواه أحمد فى مسنده (١٧٦٨٦) من حديث المغيرة بن شعبة قال نهى رسول الله ﷺ عن المثلة.

(٨٠) تفسير القرطبي ٦ / ١٥٩ طبعة دار الكتب المصرية.

(٨١) اللهم رب هذه الدعوة التامة:

رواه البخارى فى الأذان (٦١٤) وفى التفسير (٤٧١٩) وأبو داود فى الصلاة (٥٢٩) والترمذى فى الصلاة (٢١١) والنسائى فى الأذان (٦٨٠) وابن ماجه فى الأذان (٧٢٢) وأحمد فى مسنده (١٤٢٠٩) من حديث جابر بن عبدالله أن

رسول الله ﷺ قال من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته حلت له شفاعتى يوم القيامة.

(٨٢) لا تنسنا يا أخى من دعائك:

رواه أبو داود فى الصلاة (١٤٩٨) والترمذى فى الدعوات (٣٥٦٢) وابن ماجة فى المناسك (٢٨٩٤) وأحمد في مسنده (١٩٦) من حديث عمر رضى الله عنهم قال استأذنت النبى ﷺ فى العمرة فأذن لى وقال لا تنسنا يا أخى من دعائك فقال كلمة ما يسرنى أن لى بها الدنيا قال شعبة ثم لقيت عاصما بعد بالمدينة فحدثنيه وقال أشركنا يا أخى فى دعائك. قال الهيثمى فى المجمع: رواه أحمد وأبو يعلى وفيه عاصم بن عبيد الله بن عاصم وفيه كلام كثير لغفلته وقد وثق.

(٨٣) اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك:

رواه البخارى فى الجمعة (١٠١٠) وفى المناقب (٣٧١٠) من حديث أنس بن مالك أن عمر بن الخطاب رضى اللهم عنهم كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبدالمطلب فقال اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا قال فيسقون.

(٨٤) يؤتى بالرجل من أهل النار فيقال له:

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٣٤) وفي الرقاق (٦٥٣٨، ٦٥٥٧) ومسلم فى صفة القيامة (٢٨٠٥) وأحمد فى مسنده (١١٩٠٣) من حديث أنس يرفعه إن الله يقول لأهون أهل النار عذابا لو أن لك ما فى الأرض من شىء كنت تفتدى به قال نعم قال فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت فى صلب آدم أن لا تشرك بى فأبيت إلا الشرك.

(٨٥) التفسير الوسيط مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر حزب ١٢ ص ١٠٦٦.

(٨٦) تفسير القرطبى ١٥٩/٦ طبعة دار الكتب المصرية.

(٨٧) يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة:

رواه مسلم فى الإيمان (١٩١) وأحمد فى مسنده (١٤٤١٤) من حديث جابر بن عبدالله قال قال رسول الله ﷺ إن قوما يخرجون من النار يحترقون فيها إلا دارات وجوههم حتى يدخلوا الجنة. ورواه البخارى فى الرقاق (٦٥٥٩) وأحمد فى مسنده (١٣٤٢٧) من حديث أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال يخرج قوم من النار بعد ما مسهم منها سفع فيدخلون الجنة فيسميهم أهل الجنة الجهنميين. ورواه البخارى فى الرقاق (٦٥٦٦) وأبو داود فى السنة (٤٧٤٠) من حديث عمران بن حصين رضى اللهم عنهما عن النبى ﷺ قال يخرج قوم من النار بشفاعة محمد ﷺ فيدخلون الجنة يسمون الجهنمين.

(٨٨) انظر تفسير القرطبى ٦ / ١٧٥.

(٨٩) أنت ومالك لأبيك:

رواه ابن ماجه في التجارات (٢٢٩١) من حديث جابر بن عبدالله أن رجلا قال يا رسول الله إن لى مالا وولدا وإن أبى يريد أن يجتاح مالى فقال أنت ومالك لأبيك. قال البوصيرى فى الزوائد: إسناده صحيح، ورجاله ثقات على شرط البخارى ورواه ابن ماجه فى التجارات (٢٢٩٢) وأحمد فى مسنده (٦٨٦٣) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال إن أبى اجتاح مالى فقال أنت ومالك لأبيك وقال رسول الله ﷺ إن أولادكم من أطيب كسبكم فكلوا من أموالهم. ورواه الشافعى فى مسنده (٦٣٩) من حديث محمد بن المنكدر: أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال إن لى مالا وعيالا وأنه يريد أن يأخذ مالى ويطعمه عياله فقال النبى ﷺ : «أنت ومالك لأبيك». قال الزيلعى فى نصب الراية: قال ابن القطان: إسناده صحيح، وقال المنذرى: رجاله ثقات، وقال فى التنقيح»: ويوسف بن إسحاق من الثقات المخرج لهم فى «الصحيحين» قال: وقول الدارقطنى فيه: غريب تفرد به عيسى عن يوسف لا يضره، فإن غرابة الحديث والتفرد به لا يخرجه عن الصحة. قال المناوى فى الفيض: قال ابن حجر فى تخريج الهداية: رجاله ثقات لكن

قال البزار: إنما يعرف عن هشام عن ابن المنكدر مرسلا وقال البيهقي: أخطأ من وصله عن جابر (طب) وكذا البزار (عن سمرة) بن جندب قال الهيثمي: فيه إبراهيم بن عبدالحميد ولم أجد من ترجمه وبقية رجاله ثقات وقال ابن حجر: فيه من طريق ابن مسعود هذا معاوية بن يحيى وهو ضعيف وأما حديث سمرة فإن العقيلي بعد تخريجه عنه قال: وفى الباب أحاديث فيها لين وبعضها أحسن من بعض وقال البيهقي: روى من وجوه موصولاً لا يثبت مثلها وقال ابن حجر في موضع آخر قد أشار البخارى فى الصحيح إلى تضعيف هذا الحديث.

(٩٠) تقطع يد السارق في ربع دينار:

رواه البخارى فى الحدود (٦٧٨٩، ٦٧٩٠، ٦٧٩١) ومسلم فى الحدود (١٦٨٤) ومالك فى الموطإ كتاب الحدود (١٥٧٥) وأبو داود فى الحدود (٤٣٨٣، ٤٣٨٤) والترمذى فى الحدود (١٤٤٥) والنسائى فى قطع السارق (٤٩١٤) وابن ماجه فى الحدود (٢٥٨٥) والدارمى فى الحدود (٢٣٠٠) وأحمد فى مسنده (٢٣٥٥٩) من حديث عائشة قال النبى ﷺ تقطع اليد فى ربع دينار فصاعدا.

(٩١) ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم:

رواه الترمذى فى الحدود (١٤٢٤) من حديث عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن كان له مخرج فخلوا سبيله فإن الإمام أن يخطئ فى العقوبة. قلت: فى إسناده يزيد بن زياد. قال الزيلعى فى نصب الراية: ورواه الحاكم فى «المستدرك»، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبى فى «مختصره»، فقال: يزيد بن زياد، قال فيه النسائى: متروك، انتهى. وقال الترمذى فى «علله الكبير»: قال محمد بن إسماعيل: يزيد بن زياد منكر الحديث، ذاهب، انتهى. ورواه الدارقطنى، ثم البيهقى فى «سننيهما» مرفوعا، وقال البيهقى: الموقوف أقرب إلى الصواب. قلت وذكره أيضا من حديث على وقال: وأما حديث على: فأخرجه الدارقطنى فى «سننه» (٢) عن مختار التمار عن أبى مطر عن على قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ادرءوا الحدود»، انتهى. ومختار التمار ضعيف.

(٩٢) زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى ٢ / ٣٥٤.

(٩٣) تفسير القرطبى ٦ / ١٧٢.

(٩٤) لا قطع على خائن:

رواه أبو داود فى الحدود (٤٣٩٢) والترمذى فى الحدود (١٤٤٨) والنسائى فى قطع السارق (٤٩٧١) وابن ماجه فى الحدود (٢٥٩١) والدارمى فى الحدود (٢٣١٠) وأحمد فى مسنده (١٤٦٥٢) من حديث جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال لا يقطع الخائن ولا المنتهب ولا المختلس. قال المناوى فى الفيض: قال ابن حجر رواته ثقات إلا أنه معلول بين ذلك أبوحاتم والنسائى. قال الزيلعى فى نصب الراية: وسكت عنه عبدالحق فى «أحكامه»، وابن القطان بعده، فهو صحيح عندهما، وفرقه أبوداود، فرواه بهذا الإسناد، ليس على المنتهب قطع، ومن انتهب نهبة مشهورة، فليس منا، وقال بهذا الإسناد: ليس على الخائن، ولا على المختلس قطع، انتهى. قال أبو داود: وهذان الحديثان لم يسمعهما ابن جريج من أبى الزبير.

(٩٥) أتشفع فى حد من حدود الله:

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء ح ٣٤٧٥، وفى الحدود ح ٦٧٨٨، ومسلم فى الحدود ح ١٦٨٨، والترمذى فى الحدود ح ١٤٣٠، والنسائى فى قطع السارق ح ٤٨٩٩، ٤٩٠٢، وأبو داود فى الحدود ح ٤٣٧٣، وابن ماجه فى الحدود ٢٥٤٧، والدارمى فى الحدود ح ٢٣٠٢.

(٩٦) تفسير القرطبى ١٦٩/٦ بتصرف واختصار شديد، وتنظيم.

(٩٧) تفسير المنار ٣٨٤/٦، زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى ٢ / ٣٥٤.

(٩٨) تفسير ابن كثير ٥٦/٢ وزاد المسير لابن الجوزى ٣٥٥/٢

(٩٩) اقطعوا يدها فمن تاب من بعد ظلمه:

رواه أحمد في مسنده (٦٦١٩) من حديث عبدالله بن عمرو أن امرأة سرقت على عهد رسول الله ﷺ فجاء بها الذين سرقتهم فقالوا يا رسول الله إن هذه المرأة سرقتنا قال قومها فنحن نفديها يعنى أهلها فقال رسول الله ﷺ اقطعوا يدها فقالوا نحن نفديها بخمس مائة دينار قال اقطعوا يدها قال فقطعت يدها اليمنى فقالت المرأة هل لى من توبة يا رسول الله قال نعم أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فأنزل الله عز وجل فى سورة المائدة ﴿فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح﴾ إلى آخر الآية. قال الهيثمى فى المجمع: رواه أحمد وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف. وبقية رجاله ثقات.

(١٠٠) الحمد لله الذى طهرنى منكم:

رواه ابن ماجه فى الحدود (٢٥٨٨) من حديث ثعلبة الأنصارى أن عمرو بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس جاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إنى سرقت جملا لبنى فلان فطهرنى فأرسل إليهم النبى ﷺ فقالوا إنا افتقدنا جملا لنا فأمر به النبى ﷺ فقطعت يده قال ثعلبة أنا أنظر إليه حين وقعت يده وهو يقول الحمد لله الذى طهرنى منك أردت أن تدخلى جسدى النار. قلت: فى إسناده ابن لهيعة.

(١٠١) اللهم إنى أول من أحيا أمرك:

رواه مسلم فى الحدود ح ١٧٠٠، وأبو داود فى الحدود ح ٤٤٤٨، وابن ماجه فى الحدود ح ٢٥٥٨، وأحمد ح ١٨٠٥٤ من حديث البراء.

(١٠٢) تفسير سورة المائدة د. محمد سيد طنطاوى ص ٢٠١

(١٠٣) زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى ٣٥٨/٢.

(١٠٤) إن المقسطين على منابر من نور:

رواه مسلم فى الإمارة (١٨٢٧) والنسائى فى آداب القضاة (٥٣٧٩) وأحمد فى مسنده (٦٤٥٦) من حديث عبدالله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا.

(١٠٥) تفسير القرطبى ١٨٩/٦، وقد نقل أكثر من أى من العلماء فى معنى ﴿الربانيون والأحبار﴾ كما أجاد فى نقل الآراء عن معنى آخر الآية.

(١٠٦) تفسير الفخر الرازى ١٢ / ٤.

(١٠٧) المفردات فى غريب القرآن ص ١٤٩ للراغب الأصفهانى.

(١٠٨) تفسير سورة المائدة للدكتور محمد سيد طنطاوى ص ٢١٩ نقلا عن تفسير الآلوسى ١٤٥/٦.

(١٠٩) التفسير الوسيط تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية الحزب ١٢ ص ١٠٨٠.

(١١٠) تفسير القرطبى ٦/ ١٩٠.

(١١١) قال فى البحر: يعنى أن كفر المسلم ليس مثل كفر الكافر. قلت وهو كفر النعمة عند الإباضية

(١١٢) ورد مثل هذه الأحكام فى سفر الخروج. الإصحاح ٢١: ٢٣ - ٢٥ وفى سفر اللاويين الإصحاح ٢٤: ١٧/ ٢٠

(١١٣) التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية حزب ١٢ ص ١٠٨٢

(١١٤) تفسير ابن كثير ٦١/٢

(١١٥) لا يقتل مؤمن بكافر:

رواه أبو داود فى الجهاد (٢٧٥١) وفى الديات (٤٥٠٦) وأحمد فى مسنده (٦٦٥٣) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ قال لا يقتل مؤمن بكافر ومن قتل مؤمنا متعمدا دفع إلى أولياء المقتول فإن شاءوا قتلوه وإن شاءوا أخذوا الدية. ورواه ابن ماجه فى الديات (٢٦٦٠) من حديث ابن عباس عن النبى ﷺ قال لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد فى عهده. ورواه الترمذى فى الديات (١٤١٢) والنسائى فى القسامة ٤٧٣٥، من حديث القرآن وما فى الصحيفة قلت وما فى الصحيفة قال العقل وفكاك الأسير وأن لا يقتل مؤمن بكافر. وقال عيسى حديث على حديث حسن صحيح. ورواه أبو داود فى الديات (٤٥٣٠) والنسائى فى القسامة (٤٧٣٥) من حديث على رضى اللهم عنهم أن النبى ﷺ قال المؤمنون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم يسعى بذمتهم أدناهم لايقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد فى عهده.

(١١٦) فى نور القرآن د. عبدالله شحاتة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٣ م ص ٣٢.

(١١٧) ما من رجل يجرح فى جسده جراحة:

رواه أحمد فى مسنده (٢٢١٩٣، ٢٢٢٨٦) من حديث عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله ﷺ يقول ما من رجل يجرح فى جسده جراحة فيتصدق بها إلا كفر الله عنه مثل ما تصدق به.

(١١٨) تفسير ابن كثير ٢/٦٤.

(١١٩) نقلا عن تفسير سورة المائدة د. محمد سيد طنطاوى ص ٢٣٤.

(١٢٠) تفسير المنار ٦/٤٤.

(١٢١) فتح القدير للشوكانى.

(١٢٢) فتح القدير للشوكانى.

(١٢٣) أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم:

تقدم ٩٦

(١٢٤) تفسير الآلوسى ٦/١٥٦.

(١٢٥) أبغض الناس إلى الله من يبتغى فى الإسلام سنة الجاهلين:

رواه البخارى فى الديات (٦٨٨٢) من حديث ابن عباس أن النبى ﷺ قال أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم ومبتغ فى الإسلام سنة الجاهلية ومطلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه.

(١٢٦) تفسير الفخر الرازى ١٢/١٦.

(١٢٧) زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى٢ /٣٧٨

(١٢٨) تفسير الطبرى ٦/٢١٨

(١٢٩) فتح القدير للشوكانى.

(١٣٠) المفردات فى غريب القرآن ص ٢٢.

(١٣١) تفسير الطبرى ٦/٢٢٢.

(١٣٢) تفسير الآلوسى ٦/١٧١.

(١٣٣) تفسير القرطبى ٦/٢٢٣.

(١٣٤) تفسير فتح القدير للشوكانى.

(١٣٥) تفسير الطبرى ٦/٢٢٤، والدر المنثور للسيوطى ٢ / ٢٩٤.

(١٣٦) تفسير الطبرى ٦/٢٢٤.

(١٣٧) تفسير ابن كثير ٢ / ٧٢.

(١٣٨) تفسير القرطبى ٦ / ٢٢٦.

(١٣٩) رواه ابن عباس وانظر تفسير القرطبى ٦/٢٣٢، وزاد المسير لابن الجوزى ٢/٣٨٦

(١٤٠) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية الحزب الثانى عشر ص ١١٠٤.

(١٤١) تفسير القاسمى ٦ / ٢٥١ بتصرف واختصار.

(١٤٢) تفسير الشوكانى (فتح القدير).

(١٤٣) زيدة التفسير من فتح القدير للشوكانى، اختصار محمد سليمان الأشقر ص ١٤٩.

(١٤٤) ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصى:

رواه أحمد فى مسنده (١٨٧٣١) من حديث جرير قال قال رسول الله ﷺ ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصى هم أعز منه وأمنع لم يغيروا عليه إلا أصابهم الله عز وجل منه بعقاب.

(١٤٥) تفسير ابن كثير ٢ / ٧٤.

(١٤٦) أن به فابدأ فإنه لم يتمعر:

قال الهيثمى فى المجمع: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: أوحى الله إلى ملك من الملائكة أن اقلب مدينة كذا وكذا على أهلها قال: إن فيها عبدك فلانا لم يعصك طرفة عين قال: اقلبها عليه وعليهم فإن وجهه لم يتمعر (أى لم يتغير من التألم والغضب) فى ساعة قط. رواه الطبرانى فى الأوسط من رواية عبيد بن إسحاق العطار عن عمار بن سيف وكلاهما ضعيف ووثق عمار بن سيف بن المبارك وجماعة ورضى أبو حاتم عبيد بن إسحاق.

(١٤٧) يتمعر وجهه: يتغير.

(١٤٨) إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه:

رواه أبو داود فى الملاحم (٤٣٣٨) والترمذى فى الفتن (٢١٦٨) وأحمد فى مسنده (٣٠، ٣١) من حديث قيس قال: قال أبو بكر بعد أن حمد الله وأثنى عليه يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية وتضعونها على غير مواضعها ﴿عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ قال عن خالد وإنا سمعنا النبى ﷺ يقول إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب.

(١٤٩) تفسير القرطبى ٦ / ٢٣٨.

(١٥٠) تفسير الآلوسى ٦ / ١٠٨، والتفسير الوسيط حزب ١٢ ص ١١١١.

(١٥١) أنفق أنفق عليك:

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٦٤٨) وفى النفقات (٥٣٥٢) وفى التوحيد (٧٤٩٦) ومسلم فى الزكاة (٩٩٣) وابن ماجه فى الكفارات (٢١٢٣) وأحمد فى مسنده (٧٢٥٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال قال الله

(١٥٢) يمين الله ملأى:

رواه البخارى فى التوحيد (٧٤١٩) ومسلم فى الزكاة (٩٩٣) وابن ماجه فى المقدمة (١٩٧) وأحمد فى مسنده (٧٢٥٦) من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم ينقص ما في يمينه وعرشه على الماء وبيده الأخرى الفيض أو القبض يرفع ويخفض.

(١٥٣) انظر تفسير القرطبى، وفيه: السح الصب الكثير، ويغيض: ينقص، وبالهامش «الليل والنهار» قال النووى:

هو بنصب الليل والنهار ورفعهما بالنصب على الظرف، والرفع على الفاعل.

(١٥٤) تفسير القرطبى ٦ / ٢٤٠.

(١٥٥) لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة:

رواه البخارى فى الجهاد (٣٠٤٧) وفى الديات (٦٩٠٣، ٦٩١٥) والترمذى فى الديات (١٤١٢) والنسائى فى القسامة (٤٧٣٥) والدارمى فى الديات (٢٣٥٦) وأحمد فى مسنده (٦٠٠) من حديث أبى جحيفة قال قلت لعلى يا أمير المؤمنين هل عندكم سوداء فى بيضاء ليس فى كتاب الله قال لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ما علمته إلا فهما يعطيه الله رجلا فى القرآن وما فى الصحيفة قلت وما فى الصحيفة قال العقل وفكاك الأسير وأن لا يقتل مؤمن بكافر. وقال أبو عيسى حديث على حديث حسن صحيح. ورواه مسلم فى الإيمان (٧٨) من حديث أبى ذر قال قال على والذى فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبى الأمى ﷺ إلى أن لا يحبنى إلا مؤمن ولا يبغضنى إلا منافق.

(١٥٦) من حدثك أن محمدا ﷺ كتم شيئا:

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٦١٢) وفى التوحيد (٧٥٣١) ومسلم فى الإيمان (١٧٧) والترمذى فى تفسير القرآن (٣٠٦٨، ٣٢٧٨) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت من حدثك أن محمدا ﷺ كتم شيئا مما أنزل الله عليه فقد كذب والله يقول ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ الآية.

(١٥٧) انظر تفسير الآلوسى: الطبرى وغيرهم حيث أوردوا ذلك فى أسباب نزول الآية.

(١٥٨) لو كان موسى حيا:

رواه أحمد (١٥٤٣٧، ١٧٨٧١) من حديث عبدالله بن ثابت. وذكره الهندى فى الكنز (١٠١١) ونسب لابن سعد وأحمد والحاكم فى الكنى والطبرانى والبيهقى فى الشعب عن عبدالله بن ثابت الأنصارى قال الهيثمى فى المجمع: رواه أحمد والطبرانى ورجاله رجال الصحيح إلا أن فيه جابرا الجعفى وهو ضعيف.

(١٥٩) حاشية الجمل على الجلالين ١ / ٥١١.

(١٦٠) وردت إشارة كاملة إلى هذا الميثاق فى سفر تثنية الاشتراع وهو أحد أسفار التوراة التى بأيديهم، الإصحاح: ٢٩ – ٣٣.

(١٦١) نقلا عن تفسير الفخر الرازى ١٢/٥٧.

(١٦٢) تفسير سورة المائدة ٣١٠.

(١٦٣) راجع قاموس الكتاب المقدس: ١٠٨، ١٠٩

(١٦٤) قاموس الكتاب المقدس ٢٣٢ ، ٢٣٣

(١٦٥) تفسير الكشاف ٦٦٥/١.

(١٦٦) تفسير الكشاف ٦٦٦/١.

(١٦٧) إياكم والغلو فى الدين:

رواه النسائى فى مناسك الحج (٣٠٥٧) وابن ماجه فى المناسك (٣٠٢٩) وأحمد فى مسنده (١٨٥٤) من حديث ابن عباس قال قال لى رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على راحلته هات القط لى فلقطت له حصيات هن حصى الحذف فلما وضعتهن فى يده قال بأمثال هؤلاء وإياكم والغلو فى الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو فى الدين.

(١٦٨) لا تطرونى كما أطرت النصارى:

تقدم ص ٣٦.

(١٦٩) إنجيل متى: ١٢ - ٣٤، ٢٣ - ٣٣.

(١٧٠) تفسير الآلوسى ٢١١/٦.

(١٧١) من رأى منكم منكرا:

مسلم فى الإيمان ح ٧٠، والترمذى فى الفتن ح ٢٠٩٨ وقال: حديث حسن صحيح، والنسائى فى الإيمان ح ٤٩٢٢، ٤٩٢٣، وأبو داود فى الصلاة ح ٩٦٣، وفى الملاحم ح ٣٧٧٧، وابن ماجه فى إقامة الصلاة ح ١٢٦٥، وفى الفتن ح ٤٠٠٣، وأحمد ح ١٠٦٥١، ١١٠٣٤، ١١٠٩١، ١١٤٤٢ من حديث أبى سعيد الخدرى.

(١٧٢) لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى نهتهم علماؤهم:

رواه الترمذى فى تفسير القرآن (٣٠٤٧) وأحمد فى مسنده (٣٧٠٥) من حديث عبدالله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم فى مجالسهم وواكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم: (على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) قال فجلس رسول الله ﷺ وكان متكئا فقال لا والذى نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا. وقال الترمذى: حسن غريب.

(١٧٣) لا والذى نفسى بيده حتى تأطروهم:

انظر ما قبله.

(١٧٤) والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون:

رواه الترمذى فى الفتن ح ٢١٦٩، وأحمد ح ٢٢٧٩٠، ٢٢٨١٦ من حديث حذيفة بن اليمان، وقال الترمذى: حديث حسن.

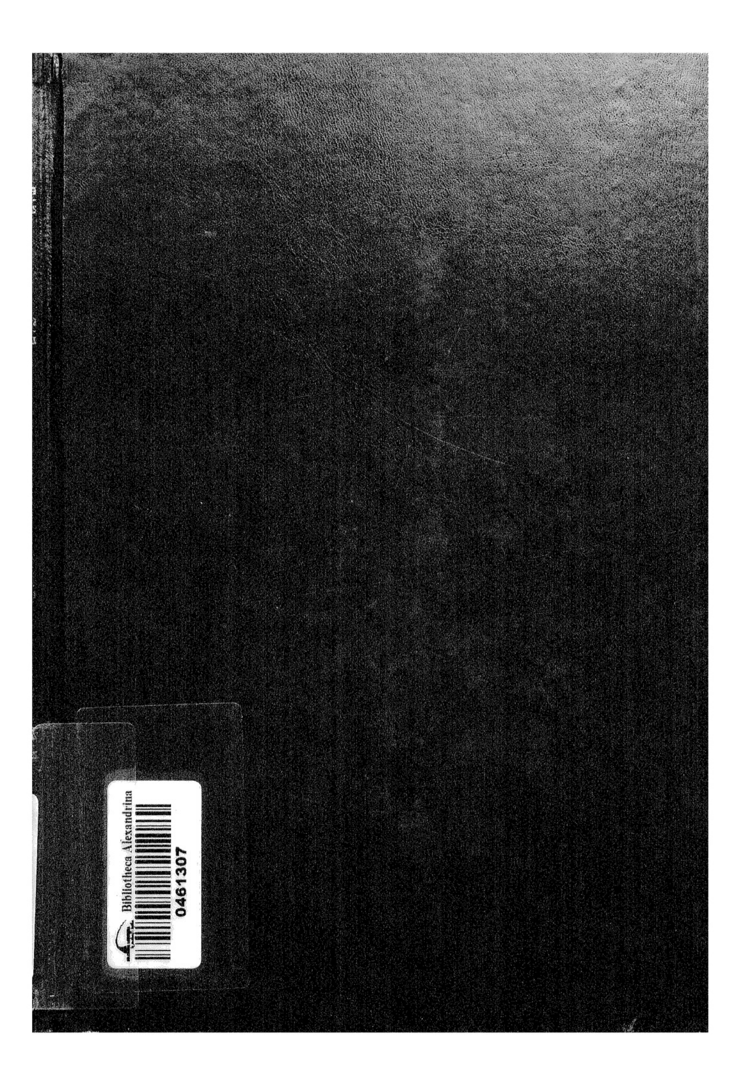
★ ★ ★

تمت الهوامش وتخريج الأحاديث بحمد الله

وبها تم الجزء السادس

محتويات الكتاب

تم بحمد الله الجزء السادس . . ويليه الجزء السابع بإذن الله


Bibliotheca Alexandrina
0461307